بنسالم حِمِّيش

امرأة أعمال

رواية



دار الشروق

امرأة أعمال

بنسالم حميش

لوحة الغلاف للفنان الفرنسي هنري ماتيس

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

الطبعة الأولى ٢٠١٣

تصنيف الكتاب: أدب/ رواية

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٣٦٨٧/ ٢٠١٣
ISBN 978-977-09-3222-3

بنسالم حِمِّيش

امرأة أعمال

رواية

دار الشروق

الإهداء

إلى الذكيات المستحقات

ولو كان النساءُ كمن فقدنا

لَفُضلتِ النساءُ على الرجالِ

وما التأنيثُ للشمسِ عيبٌ

ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ

وما التأنيث لاسم الشمس عيب

أبو الطيب المتنبي

كشاف الكلمات

مانجمنت: فن التسيير والإدارة

بارافور: سجل

كاش-كاش: لعبة التواري

دياليز: عملية تطهير الدم

البّاربريز: زجاج السيارة الأمامي

ستريس: الضغط، القلق

دابا: الآن

كرّيسة: كارو

سبيتش: خطبة

كوشمار: كابوس

بيك-نيك: وجبة غذاء على الهواء الطلق

شطابا: مكنسة

كونتوار: مبسط

وين وين: المرابحة

سينوبسيس: ملخص

سبيطار: مشفى

كاسك: خوذة

كوسطار: بدلة أنيقة

تي تايم: وقت الشاي

هابي إند: نهاية سعيدة

إيكوغرافيا: فحص طبي بالأشعة

RAS: لا إشعار

-١-

في أرض خلاء ذات مسـالك موحلة محفرّة، والوقتُ ليل، تمر عربة بدائية يجرها بغل. تجويفها كتابوت يتسـع لجثتين أو شوية أكثر، تغطيه بطانية وأكياس خيش، يُسمع من تحتها لهاث وأنات. عجبا لسائقها - وهو ملاكم قديم - يعلن انتهاء الدورة ويهـدد قائـلا: الله يرحم مـن زار وخفّـف، وإلا خويا زيد راك فـي الثمن تزيد. زدْ المـا زدْ الدقيق... فجأة تكشـف امرأة عن وجههـا وتنهر زاعقـة: بركه... خلاص! انزل مـن فوقي يا ولد الهـزازة. وفعلا يقفز شـاب على التربة لاعنـا العاهرة وقوادها ومسوّيا سرواله.

راجـلا يؤم القافز بيته الصفيحي بدوّار الكورة في العاصمة الرباط المحاذي لسـاحل البحر الأطلسـي، يلقـى أمه العجوز نشـطا نشـوان، يتقبل منها أسـئلة عما فعله بيومه ثم يقتات مما قدمتـه من مأكل خفيف وماء شـروب، منصتا إلى أخبارها عن أهـل الحي من أفـراح كالزواج والولادة والختـان، ومن أتراح مدارهـا ضعف الـزاد وضنك العيـش وقلة الصحـة. ويحدث أن توصيـه بزيارة هذا البيـت أو ذاك للتهنئـة أو التعزية. وكثيرا ما يسـتجيب، مضيفا عيادة مرضـى قدامى أو جدد من طريحي الأسِرة ومنتظري ملك الموت والنّزعِ الأخير.

لحظات استرخاء يقضيها في القراءة وحفظ الأزجال وكلمات أغاني شعبية أو في مشاهدة برامج تلفزية. وبعدها يغتسل ويقص لحيته ثم يستسلم للنوم محاطا بعناية أمه وأدعيتها. دعاؤها الأخير: سرْ يا ولْدي زيد الله يزيد في عقلك ورزقك وينجيك من بنات السوء وأولاد الحرام.

ككل صباح، يتنظف الشاب، يترك على المائدة دراهم نفقة اليوم، يقصد جامع الحي حيث يتوضأ ويصلي، يتناول فطوره في مطعم شعبي صحبة بعض من يعرفهم ويرتاح إلى محادثتهم في أمور شتى. وهذه المرة سأله أحدهم مستغربا:

- الحريرة والسفنج وبيض مسلوق وحتى العدس... هذا فطور الألبة!

جاوبه زيد مبتسما:

- هذا فيه فطور وغدا، من هنا حتى العشا. أما العدس ففيه فيتامين الحديد، وفي هذا الزمان الحديد نفعُه كبير... فهمت يا بوراس؟

يتسلم الشاب كأس قهوة من النادل، يحتسيها، يؤدي ما عليه، يدعو الجماعة إلى حضور تجمع مطلبي كبير أمام البرلمان...

كان زيد يحرص أيما حرص على المشاركة في المظاهرات والوقفات التي دأبت على تنظيمها حركة ٢٠ فبراير منذ نشأتها في هذا التاريخ من سنة ٢٠١١؛ تسمّت

بهذا الاسـم وبرزت في رحـاب مدنٍ جَرّاءَ مخاضاتٍ عسـيرةٍ دفينـة، فاضت انسـحاقاتها ومكبوتاتها المتراكمة، وتجلت في أجـواء الربيع العربي وثوراته على العبـث العربي وقوى القهر والاسـتبداد. حركة شـبابية انضم إليها زيـد - اللامنتمي حزبيا - من بابين: باب معيشه الشخصي والأهلي المتسم بالضنك والضيـق، وإحساسـه الحـادّ مغربيـا أنهـا حركة انفجـار ناجم عن سـنوات الرصاص والضغط ومعالجـات أمنية طال أمدها وعسـفها، ودارت في حلقات فاسـدةٍ عقيمة؛ أمـا الباب الثاني فهو تفوُّقه في إبداع شـعارات احتجاجية أو مطلبية سـرعان ما انضافت إلى أخرى، من دون أن يعرف في البدء نسبَتها إليه إلا قلـةٌ قليلة من المنظمين، اضطروا إلى تكذيب مغرضين دخلاء ببيـان حقيقة، مما جـاء فيه:... وعليه فإن زيـد أمحزون لم يبع للحركة شـعاراته بل أهداها لها على سبيل النضال والتطوع...

كان آخـر عهـد زيـد بالحركـة قبيل نهايـة السـنة المذكورة لمـا التحق وصحبُه بجمهور حاشـد للمعطلين والمعوّقين من ذوي المطالـب المشـروعة، وذلـك في وقفـة احتجاجية دعى إليهـا المنظمـون عبـر وسـائط التواصـل الحديثة لتكـون أمام البرلمـان وبعـده بباحـة الولاية. وكُلـف زيد بقيـادة المعوقين بصريا ولـمِّ صفهم بواسـطة حبل يسمونه غالبا العروة الوثقى، وذلك لموهبته في محاكاتهم في المشـية والتطلع إلى السماء، كأنمـا هو واحد منهم. قَبِل التكليف وكذلك تحميسَ الجموع

بشعاراته عبر البوق كما في السابق، لكنه طالب كغيره أن لا يتم اقتحام أيِّ وزارة أو مؤسسة عمومية، ولا أن يُلجأَ للعنف أو استفزاز قوى الأمن. وما إن دنا منتصف النهار حتى كان شارع محمد الخامس يعج بالمتظاهرين ذكورا باللحى أو بدونها وإناثا حاسرات أو محجبات، يهتفون جميعهم ملء حناجرهم بشعارات تلقائية تنبعث من هنا وهناك، وبأخرى منتظمة جماعيا تصدر بالتناوب من أبواق، وتتوحد حين يعلوها صوت زيد بطاقيته ونظارته السوداء، فيردد الجمهور بعده شعاراته واحدا واحدا، ومرارا وتكرارا لما فيها من معانٍ هادفة وصياغات موفقّة، منها:

هذي وقفه سلميه — والمبادئ حقوقيه
هذي خرْجه سلميه — وقيّمْنا تحريريه
هذي وفقه سلميه — وطْريقنا هيَ هيَ
هذي خرجه إنذاريه — والمطالب اجْتماعيه
هذي وقفه سلميه — والحلول ضروريه...

تعب زيد وبحّ صوته، فخلفه صوت آخر مدويا بشعارات مبسطة ترددها أطياف عن ظهر قلب:

إلهنا واحد — كتابنا واحد
وطننا واحد — لساننا واحد
مشروعنا واحد — سبيلنا واحد
جهادنا واحد — مصيرنا واحد...

ثم انبعث صوت آخر من البوق نفسه:

لا لكـنْ ولا حتّـى　　　الشـريعة ولا بـدَّ
لا لكـنْ ولا حتّـى　　　العدالـة ولا بـدَّ
لا لكـنْ ولا حتّـى　　　الإحسـانْ ولا بـدَّ
لا لكـنْ ولا حتّـى　　　التنميـة ولا بـدَّ
لا لكـنْ ولا حتّـى　　　الخدمـة ولا بـدَّ...

لما أحس زيد بشـيء من العياء يدبُّ فـي هدير الأصوات، بـادر إلى إعادة الحيوية إليه وتأجيجه بعـد أن اطمأنَّ إلى قعود العميان على العشـب ملتفين، فتناول بوقه معتليا كتفي متظاهر قويٍّ عملاق، وصاح والجموع تردد كل شعار فاه به:

الـحـرَكـه سلـميـه　　　والـحِـراك بـلا عـراك
خيراتْ البـلاد انْهَبْتوها　　　وبالريـعْ انْهكتوهـا
على فياقْنـا تْحاصرونا　　　واللّي بْغضنا يْضربو ضونا
الـكـرامـه دابـا دابـا　　　أو الـمـا والـشـطـابـا
الـفـسـادْ الـفـسـاد　　　هـوَ عَـدُوّ هـنْ البلاد
شَعْشَعْ الحقّ والطريْق بانْ　　　أتْـحـركـوا يـا الـنْـيـام
بالوعـودْ اتْخمتونـا　　　وعلى الـگـصّ ازْميتونا
لا عمـلْ ولا أمـلْ　　　احْكمتو علينـا بالزوال
مـامْفرقينْش مـامْفكينْش　　　وعلى الظلْم ما راضينْيش

الإصــــلاح الإصـــلاح هـــو طـــريـــق الـــفـــلاح
هــذي وقفه سلميه...

حين حل وقت توجـه المتظاهرين إلى باحة الولاية القريبة من شارع محمد الخامس، منعهم أعضاء فرق محاربة الشغب، إذ غلقـوا كل الأزقـة المفضيـة إلـى وجهتهم، إلا التي يسـهل فيهـا تفريقهم وتشـتيت شـملهم. وقـد توفقوا في ذلـك لوفرة عددهـم وعتادهم، مسـتعملين القوة في صفـوف المتظاهرين المقاوميـن، فوقعت مشـادات واشـتباكات تلتهـا تدافعات ثم إغمـاءات وإصابـات، فجـيء بسـيارات الإسـعاف، وتعالت أصـوات التنديد والاحتجاج من بعـض الفارين أو الصامدين، تعلو حينا وتخفت أحيانا.

أما زيد فقد سـلك بقافلة العميان دربـا ضيقا تغاضى عنهم فيـه أفـراد البوليس، حتـى إذا أوصلهم إلى مـكان آمن ودعهم وذهب إلى حال سـبيله حاملا بوقه، واثـقَ الخطوِ، غيرَ متعثر. وفجـأة برز له من الخلف رجلٌ بزيّ مدنـي، فلوى على ذراعه وقـال: «أنـا اللي أقـودك الآن يا لعمى لمـزور، لكن إلى مخفر الشرطة...» ولم ينه الرجل تهديده حتى تخلص زيد من قبضته وانطلق يعدو بسرعة فائقة أفشلت تماما جهود ملاحِقه البدين.

-٢-

فـي زنقـة بيـت لحـم المتفرعة عن شـارع مولاي يوسـف وسـط المدينة، عجبا ما يفعله زيد، حارس السيارات، بواحدة من نوع مرسـيدس سـبور حمـراء في موقفها المعتاد: يغسـلها بالمـاء الراغي مرات عديدة من سـقفها إلى أخمص عجلاتها، ثم يمسح ما غسل ونظّف بتفانٍ ينسيه مد يده لسائقين مغادرين أو إرشـاد آخرين يريدون الركون، ويختم عمله بوضع بوسات حارة على السيارة حيث استطاع.

لاحظتـه ذات مرة من نافذتها موظفـة مع المنظفة فلم تعبأ. ولما تكـررت ملاحظتها أخبرت بالأمر زميلتها التي تشـاركها المكتـب وأخرى من نافـذة مكتبها الخـاص، وذلك في وكالة عقارية بالطابق الأول لعمارة قديمة، فهبين جميعا إلى الشـرفة المطلـة علـى الزنقة، وهنا قَـوِيَ عجبهن لما يفعله الشـاب ذو الصدريـة الزرقاء والطاقية السـوداء بسـيارة مديرتهن السـيدة أسـماء. تناوبـن على نهره والإشـارة إليه بالابتعـاد، لكن عبثا. تطوعـت إحداهـن للنـزول إليه عجلـى، فاختفى ولـم تعثر له علـى أثر. وحين رجعت لاهثة، وجـدت المديرة تنهر زميلتيها وتأمرهمـا بالانكباب على العمل والملفات عوض الانشـغال بحارس أحمق يغسل سيارتها ويلوذ بالفرار كلما أرادت جزاءه

وشكره. وقالت مهددة قبل أن تعود إلى مكتبها: هذي آخر مرة أسامحك يا نائبتي عفاف، وأنتِ نعمى وحتى أنتِ نعيمة يا خفيفة الرِّجل...

من بين المذكورات بالإسم: عفاف، خمسونية، أرملة، هي الأكبر سنا والأوفر تجربة وكفاءة، ترتدي دوما جلبابا أنيقا وتضع على رأسها حجابا خفيفا؛ وهي المؤتمنة على مفاتيح العروض العقارية المعلقة في ألواح بمكتبها الخاص؛ كما أنها الأعرف بحياة المديرة الخاصة منذ مدة والمؤتمنة على سر يُسرها المالي. تتقاضى منها راتبا شهريا قارا يكفيها لاتمام الشهر ورعاية بيتها، وينضاف إليه قدر متحول بحسب حال سوق العقود والصفقات. أما نعمى ونعيمة فكلاهما عازبة مليحة دون الثلاثين، تغنيان أثناء غياب المديرة لوردة الجزائرية، «أنا عايزة معجزة»، وقصدهما الزواج الحلال، العاصم من إغراءات الزيغ والتيهان.

وأما الست أسماء!

أسماء التي أطفأت شمعتها الأربعين بداية هذي السنة ٢٠١٢، فهي امرأة أعمال (صفتها الأثيرة، وويلٌ لمن سماها سمسارة)، تبدو أقل من سنها بفضل هندامها المميّز ورشاقة جسمها وشغفها بالرياضة وعمليات الدلك والتجميل، هذا علاوة على أن جمالها أصلا لا لبس فيه ولا ريب: متوسطة القامة، هيفاء مهيمنة بأحذيتها العالية؛ ناهدة الصدرِ رشيقته؛ ذات شعر مبوْكل أو حرٍّ طليق، أسود أو كستنائي حسب

الفصول؛ محياها نضرٌ ريّان، ماكياجه خفيفٌ لطيف، أسيلةُ الخدين، عسليةُ العينين نجلاوان؛ إذا ابتسمت أو نطقت زادها ثغرها ذو الأسنان الناصعة والشفتين اللحيمتين رونقا وبهاء. تتهامس معيناتها وأيضا آخرون (وهم إلى حدٍّ كبير محقون) بأنها مزيج موفّق بين الممثلتين الشهيرتين يسرا المصرية وأدجاني الجزائرية الأصل، أما هي فتأبى التشبيهات والمماثلات بين أي امرأة وأخرى؛ لكن، إجمالا، كل من جالسها من المُلاك والمستثمرين العقاريين والزبناء يشهدون لها بالحسنيين: حسن الخِلقة والقسمات وحسن التدبير والادارة. وإذا أحدهم غرّته نفسه وحاول خرق حدود اللياقة والأدب، نهته بحزم وذكّرته بموضوع اللقاء ووجوب التقيد بقواعد المهنة وضمان دوام المعاملات وانتعاشها. وبهذا الشرط كانت عند الضرورة تقبل معالجة ملف أو مفاوضة عارض حول فطور أو غداء في مطعم محترمٍ راقٍ.

ذات يوم جمعة استقبلت الست رجلا عليه سمات الورع والوقار، يرتدي زيا تقليديا يفوح عنبرا ومسكا. قال إن اسمه الحاج عباس عبد اللاوي، وادعى أن الوقت يداهمه، وكلامَه معها متشعب كثير، وحرصَه على أداء صلاة الظهر مع الجماعة أكيد، فترجاها أن تقبل دعوته لوجبة غداء غدا السبت، وترك لها قبل أن ينصرف بطاقته وعنوان المطعم.

اعتادت أسماء عموما على قضاء عطلة آخر الأسبوع في منزلها، قريبا من زوجها المريض وابنها من قرينها الأول

المتوفى منذ سنين في حادثة سير مروعة. هذه المرة اختلقت عذرا قاهرا، وهبت إلى موعدها على شاطئ الهرهورة في ضاحية الرباط الجنوبية. استقبلها نادل قوي البنية، قادها إلى عتبة المطعم حيث لقيها شخص ذو بدلة عصرية أنيقة، ظنت أنه رب المطعم أو مسيره، فما إن أخذ يرحب بها ويحثها على تشريفه بالدخول حتى أيقنت من صوته أنه زائرها في مكتبها وصاحب الدعوة. تمالكت نفسها، سيما وقد لاحظت أن القاعة ليس فيها زبائن وسمعت الرجل يقترح عليها فتح زجاجة شامبنيْ في الصالون. تذرعت بكونها لا تشرب المسكر ولا تدخن، واستعجلته في تناول الموضوع الذي جاءت من أجله، فأجاب متصنعا اللطف والدماثة: ليس قبل أن نتناول وجبة الغداء!

حول الطاولة أصرت المدعوة على أن تجلس قبالة داعيها، وشرع النادل في وضع شتى أنواع المأكولات، يسقي سيده خمرا وتملأ هي كأسها ماء، يعرض عليها صحنا تلو آخر فتكتفي بالنزر اليسير. أخذ الرجل يحكي لها نتفا من حياته: المطعم جناح إحدى الفيلات التي يملكها. امرأته الأولى طلقها بإحسان، والثانية ماتت، والحاجة، زوجته الحالية، ترهلت وشاخت قبل الأوان؛ له ضيعات وعمارات على امتداد الوطن؛ إبناه كبرا وهاجرا، واحد إلى أمريكا والثاني إلى أستراليا حيث تجنسا وتأهلا، يراهما مرة كل سنتين لا أكثر...

فجأة ساد صمت تخللته زفرات المضيف واصطناع المدعوة المضغ بفم فارغ. رنّ موبايل أسماء، فقالت لمخاطبتها عفاف كلاما مشفرا يعني ضده: لا يا عفيفي، اطمئن ولا تبقى على الخط... ثم أنبأت جليسها أن حارسها الشخصي قلق عليها ويريد اللحاق بها. اضطرب الرجل في قعدته، أشعل سيجاره واقترح تناول القهوة أو الشاي في الصالون. اعتذرت عن ذلك وطلبت الخروج بعد أن سمعت منه بضع كلمات في موضوع هذا اللقاء. قال إن الأمر يتعلق بعرض صادقٍ سخيّ: أن يولّيها تسيير كل أعماله المالية والعقارية لقاءَ راتب تحدده وزواجٍ حلال يشرّعُ لها أن ترث منه... استقامت أسماء واقفة وقصدت الباب قائلة: لا يحل لامرأة أن يكون لها زوجان، وأوصته ببعث رسومه الملكية تنظر فيها وتبلغه جوابها. تعثر المخاطب في اصطحابها وتلعثم قائلا: طلّقي زوجك أو اقبليني عشيقا، أتشيّع من أجل جمالك، فيحل لنا زواج المتعة حتى يفرِّجَ الله...

استقلت الست سيارتها وانطلقت من دون أن تنصت إلى لغو المعتوه وتضرعاته. ذكّرتها هذه الواقعة بسابقاتها مع أن شروط الوقاية والسلامة كانت أوفر وأضمن. قررت إخبار الحاج مروان النصري في لقائها القادم معه بما حدث، وهو مالك الوكالة ووليُّ نعمتها، لعله يجد لها حلا يصونها ويعصمها.

-٣-

عادت الست إلى منزلها بحي الليمون بعد أن زارت بعض صديقاتها، رباتِ مخازن ألبسة نسوية، واقتنت منها ما حلا لها وواتاها. اختلت في طابق الدار الفوقي منتظرة أن ينهي زوجها وابنها صلاتهما في البيت الكبير. ما تبقى من عطلة آخر الأسبوع تعلم أنه، كما منذ عام وزيادة، سيكون مشحونا بالشنآن واللوم والحزن. الزوج، إدريس الريفي، المصاب بمرض مزمن وعلل أخرى، دأب على تأثيمها بسبب عملها الذي ما زاولته امرأة إلا جعلها مضغة الأفواه، وتلطخت به سمعة أسرتها، وسُميت السمسارة، فتُنسب عند الخصوم وحتى عامة الناس إلى عالم السمسرة والصيد في المياه العكرة؛ والابن حسّان العشروني، الميّال عطفا وإسعافا إلى من يعتبره أباه الروحي، يلقاها بالنبذ والصدود، لا يكلمها عند الضرورة إلا بما قل وقصر؛ أما هي، المأخوذة بين مطرقة البعل وسندان الولد، فقد تعبت من محاولة إقناعهما بأن الزمن تطور، والمرأة فيه تطلب رزقها الحلال حيثما استطاعت، مسلحة بكفاءتها وصفاء سلوكها ونواياها. تذكّرهما عبثا أنها عملت في شركة للنسيج أفلست، وفي أخرى للتأمين تأزمت فسرحتها مع آخرين؛ تُنبههما إلى أنها بمستواها باكالوريا

في المانجمنت اضطرت إلـى العمل في وكالة عقارية صارت فـي وقت وجيـزٍ مديرتهـا بفضل كدهـا وحنكتهـا وتوقها إلى مسـاعدة الابن علـى نيـل إجـازة الفيزياء-الكيميـاء، والزوجِ ذي الدخـل المحدود من وظيف بدار للضرائب؛ أما سـيارتها المرسـديس وتمكينهما من أظرفة مالية سـخية - وهنا بالذات تنهشهما أنياب الريبة والشك - فمصدرها من عائدات إضافية تدرهـا عليهـا الصفقـات العقاريـة المربحـة وفوائد سـهومها بالبورصـة. وهذه وتلك عنـد رجلها والإبن معا من تلبيسـات إبليس، يسـكنها الحرام والربا. وتعقدت علاقتهما بها وساءت أكثـر مـع محاولة إرغامهـا على أن تسـتتر وتحتجـب، إظهارا لحسـن نيتها ودرءا للشـبهات عنها، فـكان ردها الرفض البات والامتنـاع القاطـع، فقابـلا موقفها بالإعراض عن مسـاعداتها الماديـة، حتى بعـد أن شُـخصت إصابةُ الـزوج بقصور كلوي حاد وكثرت حاجيات الابن إلى آلات وأدوات دراسية حديثة.

هكذا أضحت الست تمضي أيام العطل في فضائها الفوقي بيـن المطبخ وغرفتين، تداري وضعها العائلي البائسَ المضني بالانكبـاب علـى ملفـات عملهـا، وقـراءةِ كتـب فـي التدبيـر والتسـويق، ومتابعـةِ أفـلام ديفيـدي، والتحدثِ فـي الموبايل والاسـتماعِ إلى الجـاز والبلوز، من موسـيقاها المفضلة. كان ابنها حسـانَ حتـى قبل مرض الزوج يأمرها صارخا من وسـط الدار أن تسـكت ما يسـميه أفلام الخلاعة وموسيقى الفسوق، فتطيـع الشـاب تجنبـا لإثـارة أعصابـه وأعصابهـا؛ سـيّما وأن

إدريس صار طريحَ الفراش، وحسّان حادَّ الطبع، ملتحيا، فباتت السمّاعة الأذنية وسيلتها الوحيدة للتفريج عن نفسها المكلومة.

من فتحات في الدربزين، دأبت الست على استراق النظر والسمع مساءً إلى الطابق السفلي، فتلحظ تقاطر رجال على بيت المريض يعودونه، وأحيانا يخرجونه والابنَ إلى مسجد الحي أو لحضور ليالي الأمداح النبوية والسماع. وكان أدومهم على زيارته وإسعافه فقيه جار، معروف بفضيلتي الاستقامة والطيبوبة، واسمه الشائع الحاج المختار.

ذات ليلة، لما أيقنت أسماء أن الدار خلت إلا من قطط أليفة، نزلت إلى السفلي خفيفة الوطأ حذرة، تفقدت بيت ابنها فألفت الكتب الدينية تعدل أو تفوق عددا المؤلفات الدراسية؛ ثم عرجت على بيت الزوج فلفتت نظرها علب الأدوية الكثيرة على مائدته، علمت من قراءة وصفات بعضها أن الرجل مصاب أيضا بالبواسير وربما بأعراض أخرى. هالها الأمر، فصعدت عجلى لاهثة إلى مستقرها لتستحم وتأخذ قسطها من النوم استعدادا لعمل الغد؛ لكنّ النوم استعصى عليها لما بات يعج به ذهنها من صور وأقوال متسلسلة متزاحمة، بعضها عن مهنتها وملفاتها العالقة أو الشائكة، وبعضها الآخر عن حياتها العائلية الكئيبة المأزومة. حاولت مراودة النوم بالإنصات إلى

بعـض أقـراص أغاني اسـمهان وفيروز بعـد تخفيض الصوت والضـوء. انتهت الأقراص وتقدم الليـل ولا نوم. فجأة تناهت إلى سـمعها أصداء رجوع الزوج والابن من سهرتهما الدينية، وحين تلاشت اضطرت إلى بلع منوّم اعتادت على تناوله كلما استبد بها السهاد وعبث، فأغمضَ جفنيها وأنعسها.

-٤-

صبيحة يوم الاثنين، ركنت الست المديرة سيارتها كالمعتاد، ألقت من حولها نظرات فاحصة، علها تلمح الحارس الأحمق، وحين صعدت إلى وكالتها غادر مخبأه خلف سارية وقصد عدّاد الزنقة الآلي وطفق، كدأبه مطلع كل صباح، ينطحه نطحات ويركل عموده الفولاذي مرات عديدة حتى التعب والانهاك، مترجيا من المارة الملتفتين إليه أن يعينوه على اقتلاع هذه الآلة الشيطانية، مصاصة الدراهم ومخربة أرزاق حراس السيارات الآدميين. أثناء عمله، قلة قليلة يجودون عليه بما استطاعوا، والآخرون ينصرفون مديرين سباباتهم في أصداغهم. عندئذ يتوجه بمناديله ومناشفه وسطل ماء إلى مرسديس المديرة ليشملها كعادته بعناية خاصة، غسلا ممنهجا ومسحا وبوسا. وبعدها يجري مسرعا العمل نفسه على سيارات أخر (لكن من دون حماس ولا تقبيل) رجاةَ أن يحصل من أصحابها الخارجين من إداراتهم على دريهمات يقتات بها هو وأمه العجوز في بيته الصفيحي.

نعمى ونعيمة لم تعودا تعيران أيَّ اهتمام بالحارس الأحمق وفعله بسيارة المديرة. عبرتهما الست بتحية عجلى، وطلبت من عفاف اللحاق بها في مكتبها. كان العناق بين المرأتين حارا

مؤثرا. أحسـت عفاف توا أن حالة الرايسة النفسية تسوء بسبب تدهـور علاقتها بزوجها وابنها. جلسـت على الأريكة حذاءها تكفكف دمعها وتواسيها بكلمات تقريظ واستنهاض، تذكّرها بصورتها الشيقة المضيئة في أعين رجال وحتى نسـاء تعاملوا معهـا وشـهدوا لها بقـدرة تفاوضية عاليـة وبالفطنـة والدهاء. نـدت عـن المنصتـة تنهيـدة أعقبتهـا بابتسـامة مشـعة خفيفـة وتعليق سـاخر: يا المزوَّق من بـرَّ أش اخبارك من الداخل؟... نهتهـا عفاف عن الأمثال الفارغة ونـادت على العون بويا عمر الجندي المتقاعد الأعرج لإحضار الفطور، فأتى به محييا على طريقتـه ووضعه على الطاولة وانسـحب، يتبعه تحذير المنادية بـأن يكـف عن مناوشـة المنظفـة والكاتبتيـن والتدخين داخل الوكالـة، وأوصتـه بمحاولـة القبض علـى الحـارس الأحمق وإحضاره، ثم مالت على جليستها وقالت:

-أمري بمنع التدخين يعني حتى الست المديرة... لا سيجارة واحـدة ولا نصفهـا. هذا الفطـور نعطيه حقو ووقتو. اسـمعي كيف أشرب الشـاي... بالنغمة، وأستحلي. شوفي الكرواسن أغمسـها بالعسـل والزبـدة وآكلهـا قطعـة قطعـة، ولا أبالي... ودابـا قلديني... هكذا... ما تفكري في شـيء، غير لذة الطعام والشراب. ومن بعد نعمل اللي علينا، والبقية لها مدبر حكيم...

خـف حـال أسـماء ولان، وأشـرق وجههـا وابتهـج، قالت مبتسمة:

- كلامك عفاف عسل. من هذي الساعة حتى هبوط الليل مذاقُه يشفيني. شكرا حبيبتي. والآن ما العمل؟

- صباح كل يوم يلزمك عسلي، وأنتِ بحسن مزاجك ونور ابتسامتك عسّليني... العمل؟ بالأمس في داري هيأت لك كل شيء. تقارير خبرة وأحكام قضائية لصالح الوكالة وحسابات للتوقيع، هو ذا السجل. طلبات مواعيد غربلتها وأتكفل بها، إلا من مستثمر شامي يلح على مقابلتك ولو في حضوري. سألتُه عن الموضوع قال: طوب-سكريت. موعده غدا في الرابعة بعد الزوال بحيث سفير السينغال يفضل زيارة فيلا الإقامة للكراء في الصباح، ومرافقتك له ضرورية، كما يشترط صاحب الملك وملاك فيلات غيرها، وإلا توجهوا إلى وكالات أخرى.

- مزيان... خبّري السائق بالموعد... الآن قريبي أذنك مني... الحاج علال المختار في دور الجامع، سمعتِ به؟

- طبعا! الرجل معروف حتى في حي المحيط...

- إذن رتبي لي غدا لقاء معه في بيتك بعد صلاة المغرب. ما عاد يقبل زيارتي في الوكالة... طوب-سكريت... عودي دابا إلى مكتبك. راقبي عمل البنتين.

استوت الست أسماء خلف منضدتها، تحتسي قهوتها وتطلّع على الوثائق وتوقّع على بعضها. وفيما هي ترقن على

حاسوبها سمعت ضجيجا في بهو الوكالة. استخبرت عن سببه في الأنترفون، أجابتها عفاف أن بويا عمر ألقى القبض على الحارس الأحمق وأحضره. هبت لرؤية المشهد فرأت الشاب، الذي لم يلحظها، يشاكس العون ويهدده على طريقة الراب بعد أن أبدل طاقيته بكاسكيت:

اطْلقْ يا الشايبْ مني
واقبضْ في الهوا لا يفلتْ لِك
سرْ تلهّى بشغلكْ
وشغلكْ يخدمْ عليكْ
وإلا نْفرّجْ هذْ النسوه فيكْ
نبدا بالضربه الرأسيه
ثم لَكْماتْ فنيه...
الأولى كو والثانيه كو
والثالثه عليها نتْعاركو...

فجأة، صمتَ المهدد، إذ لمح مولاة المرسديس مغتاظة، فيما عفاف تحاول تهدئة الوضع والكاتبتان تتمايحان وتطلقان ضحكات خافتة؛ ثم أخذ الشاب بصوت رخيم ينشد:

قلبي بالهوا مَفني
يا أُهيلَ الغرام

واصفَرَّ يا صْديقْ لوني
مـــن شـــــدّةْ الآلام
وذابْ منْ الجفا جسمي
وصـــار بحال لَخيال...

قاطعته عفاف مبشـورة الوجه: وعلى من يسـري كلامك يا هذا المجنون؟ فأجاب وهو يخفض طرْفه ويقصد الباب: على المرسـديس يـا ولية إذا كان فهمـك قصير، وعلـى ذات الهمة والزيـن إذا كنـتِ فايقـة وذكية... نهرته السـائلة وهـي تكد في كتـم ضحكة قاهرة وأمرتـه بالتنحي، فقال منشـدا: هانا واقف فـي الباب، حتى يطردنـي اللي فْهمني، وما يعودْ يشـوفني ولا يسوّل عليّ...

نزعـت السـت الرئيسـة مـن العون عصـاه وهرولـت نحو الحارس مسـتنفرةً مهـددة، لكنها لـم تلحقـه، إذ اختفى كالجن فـي طرفـة عيـن، فعـادت مفتعلـة الجديـة والصرامـة، مذكّرة الجميع أن الوكالة مقام محترم وليس سـيركا أو حلقة الفرجة، آمـرةً باسـتئناف العمل والكف عـن الضحك المكتـوم؛ ثم ما إن أقفلـت عليها مكتبها حتى تسـربت منه إلى آذان الموظفات أصـداء ضحكاتهـا المتقطعـة، فتنافسـت نعيمـة ونعمـى فـي التهامـس والتغامز، وعفاف تنهاهما جاهدة في حبس ضحكها والانكبـاب على حاسـوبهما، بينمـا بويا عمر يسـتعد لمرافقة

زبائـن ضربت لهـم عفاف موعدا لزيارة شـقق للبيع في عمارة جديدة، ثم يخرج وهو يبرئ نفسه من مطاوعة سوق النساء...

شعرت سيدة الوكالة أن حارس السيارات بكلامه العجيب وإنشـاده قـد أدخـل عليها سـرورا غريبا، جعلها تخـف وتنأى بفكرهـا وجوانحهـا، ولو إلـى حين، عـن هموم بيتهـا وكُربه. نظرت في مرآة إلى محياها فألفت أساريرها منفرجةً منشرحة، وعينيها وشفتيها تشعان بهذا البِشر المفاجئ...

سـمعت نقرا على بابها فإذا بها نجلاء، أعـزَّ صديقةٍ لديها. عاشـرتها أيـام عملـت في شـركة للتأميـن كما في أسـفار إلى عواصـم أوروبية وعربيـة، وظلت على صلة بهـا، معجبة بقوة شـخصيتها وملاحتهـا وتفننهـا فـي المـرح والتمتـع بالحيـاة والتهامهـا مـلء حواسـها ومـا ملكـت يداهـا. هللـت الزائرة لأمارات الحبور وحسن المزاج على صديقتها واهتبلتها فرصة، بعد أن جالسـتها، لدعوتها إلى حفل راقص يوم السبت القادم، يحضـره بعـض الأزواج الأوفيـاء وثلـة من العـزاب الأصفياء والعازبـات التقيات. أطلقت المدعوة ضحـكاتٍ ضاجةً تارة، خافتة طورا. استغربت نجلاء الأمر، هل بسبب الأوصاف التي أطلقتهـا على مدعويها أم ماذا؟ مصححةً أوضحت أسـماء أن ذلك إنما مدعاه ما جرى في الوكالة هذا الصباح. قصت عليها حكاية حارس السـيارات كاملة، فأخذتـا تتباريان في الضحك الطليـق أو المتقطـع، وفـي خضمـه ذكّـرت الزائـرة صاحبتها بالدعـوة، فاعتـذرت هاته عنها بسـبب مـرض زوجها وتربص

ابنهـا بحركاتهـا، ثـم دعتها وهي تمسـح دمعها إلـى مطعم من اختيارها. وفي ممر الخروج سـلمت الزائرة هاتفة: باي باي يا البنات، ووجهت لهن الست المديـرة إنذارا: الضحك ممنوع والعمـل الجدي مطلوب، قولي يا عفـاف لبويا عمر يعلق هذا الشـعار قدام نعيمـة ونعمى، وإذا حضر الحـارس الأحمق هنا علقيه من رجليه... وفي السيارة قبل انطلاقها نبهت صاحبتَها: شوفي الحارس كيف يلعب معيَ كاش-كاش... أحمق هو أو عندو عقل؟ الله أعلم.

الـزوج إدريس أضحى في غرفتـه يقضي معظم وقته مداريا مرضـه بيـن أداء الصلـوات بالتيمـم وكيفما تيسـر، بالإيماء أو بالقعـود، وبين الإنصـات إلى أقراص مقرئي القـرآن النابغين، ينصحه بذلك جاره وصديقـه الحميم علال المختار، ويتكفل بالإنفـاق علـى تطبيبـه وحصص تجديـد دمه. وحين يسـتكثر المريض ما يفعل الرجل من أجله، يجيبه مبتسما:

- إنمـا أقرضك بلا فوائد، وحين تشـفى بعون الله، ترد لِي الدّيْن، لا أترك لك من الحساب ولو ركعة.

- جـزاك اللـه خيـرا يا محسـن وأطال فـي عمـرك... إنما الدياليـز كان مـرة في الأسـبوع وصار مرتين، وألـم في المعدة مـرة مـرة يفيـق وزدْ عليـه البواسـير... ومـا أدري أي داء آخر يتربص بي... أش ذنبي تحت ملك الله؟ أش ذنبي؟!

- اسـتغفرِ الله يا هذا ولا تقنط من رحمته. المؤمن مصاب وممتحـن في صبره وإيمانه. أعراضك كلها قابلة للعلاج بقوته تعالى وحوله. وأنا دوما في إسـعافك ومؤانستك، وبنتي تخدم بيتك ومطبخك لوجه الله... إنما أطلبك في شيء واحد: تأمر حسان بالتفاني في دراستو والرفق بأمو ما استطاع.

انقبض وجه إدريس، قال متنهداً:

- اللهم فرّج ويسّر، يكون خير يا حاج... يكون خير...

- وبعض الخير، (عقب الحاج) في هذا الكيس... مال يكفيك ثلاثة أشهر على الأقل، وإذا أردت أكثر فمر.

- كيف أشكرك وأعيد لك سلفك، يا أفضل الناس؟

- اشكرني حالا بأقصر الكلمات؛ أما السلف تسدده في هذي الدار من بعد ما تتعافى وتصح. وإذا سبقتك أو سبقتني إلى دار البقاء، فثمة ننظر في أمر الديْن أو نمحوه كله إلى الأبد.

نظر إدريس في ساعته منبها أن ميعاد تصفية دمه يقترب. فجأة برز الشاب حسان، قبّل يد أبيه وكتفَ الشيخ، وجلس مقطب الوجه، برِماً بهذا الأخير، الذي رأى الفرصة سانحة لمحاولة صرف الشاب عن غلوه وتشدده وفهمه المتهافت لزاده من القرآن والأثر الديني فأنفق، أكثر مما فعل معه من قبل، بلاغة مؤثرة في وضع محفوظاته طي مناطاتها وسياقاتها، وكلها عنده تقي المؤمن العادلَ المعتدل شطط ما نهى عنه الكتاب المبين في قوله تعالى: ﴿لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾، وأعقبه بإحدى درر الامام سفيان الثوري: «إنما الرخصة من فقيه ثقه، أما التشديد فيحسنه كل واحدٍ»، وكذلك بحِكَمٍ ومأثورات أخرى، ثم نبّهه قائلا: الجماعة التي تخالطها، يا ولدي، أناس يهرفون في

الدين بما لا يعرفون، يركبونه عوجا ولا يعتبرون، يصح عليهم الحديث النبوي الشريف: «من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض»...

استقام الشاب واقفا كأنه يرغب عن سماع الشيخ، واكتفى بالقول، فيما أبوه يخصه بنظرات شجب وامتعاض: يظهر يا فقيه أنك تستخف بفساد الزمان وغلو الطغاة وقهر الناس والعبث بهم وبحقوقهم، وتقابل هذي الخروقات والمعاصي بالدعوة إلى الرفق واللين وترك الحبل على الغارب بالتسليم والإستكانة، نعوذ بالله من ذلك... انهض أبي أصحبك إلى المصحة...

رد إدريس بلهجة حادة: اذهب إلى دراستك. فضيلة الشيخ هو اللي يرافقني.

في الطريق إلى المشفى، بواسطة طاكسي، كرر إدريس اعتذاراته لمرافقه عما بدر من حسّان من كلام حاد، شديد اللهجة، وذكّره أن الشاب مضطرب المزاج، عنيف الطبع، شقي منذ صباه برزايا مضنية: أبوه كان سكيرا فاسدا ومات في حادثة مفجعة، وأعز أصدقائه - وكان مناضلا نقابيا - أدرجته منظمات حقوقية في عداد المختفين قسرا، لا أثر له ولا قبر حتى اليوم، وغير ذلك؛ كما أنه يجافي أمّه ويصدها بسبب امتهانها السمسرة؛ حركته لا تتعدى المنزل والمسجد والسيبر-كافي

وزاوية تجمعه بمن يسميهم أهل الخرقة والتقوى.

ظل الشيخ صامتا ينصت لما سمعه من صديقه مرات من قبل. وقبل وصولهما إلى مصلحة مقصدهما، دعا للشاب بالهداية ثم قال: كونُه برّاً بك يا أخي يبعدني عن اليأس منه. لكن إذا صعُب حاله، لا سمح الله، اعرِضْه على طبيب نفساني، علّه يهوّن من جموحه وغلوائه...

-٦-

كانت أسماء في «الصحة أولا» تمارس الحركات الرياضية قبل أن تسلم بدنها للدلك فالحمام سْبّى الراغي الفوار. في هذا النادي، الذي ترتاده صباحا ثلاث مرات في الأسبوع منذ أكثر من سنة، تُمضي الست وقتا يمتِّعها ويسعفها على تصفية ذهنها وحواسها لأداء عملها كما تحب وترضى، ومواجهةِ متاعب منزلها ومأساته. كانت تقنع في النادي برفقة صديقتها نجلاء وأخرى تحمل خطأً اسم راضية، لكونها دوما ثائرة على الهاي سوسايتي، وسطِ نشأتها وزواجها وتصريف أيامها، وكثرا ما تستشيط غضبا ضد أقربائها المترفين الفاسدين، فتحمر عيناها اللتان بهما حَوَلٌ يضفي على كلامها وحركاتها سحرا وصدقا؛ أما مع صاحبتيها فإنها في الغالب تؤوب إلى نفسها راضية مرضية في هذا النادي أو في أي فضاء آخر ممتع مريح. ونجلاء باتت تتقبلها وتعرف كيف تنزع فتائل غضباتها وتغلِّب لدى أسماء جانب وفائها وخفة روحها.

انتهاءً من تلقي خدمات النادي، يهبّ الثلاثي المتقارب عمريا إلى حديقة فندق سوفيتل حيث يتناولن الفطور في هوائها الطلق، رشيقات مبشورات. الحديث بينهن ذو مناحٍ، لكن كلما نطقت واحدة بأخبار أو حكاية أو نكتة وبدت

مـن المكـررات إلا وهتفـت الاثنتـان: «الجديـد الجديد!» أو «الحاجة هي الطرية!». الست أسماء، غالبا ما كانت تُدعى إلى افتتاح فصل ما جدّ وبهر.

فـي هذه المـرة باحت المدعوة لصديقتيهـا بقصة لم تروها لأي أحـد مـن قبـل، مفادها أنها تعرفت منذ شـهر على شـاب فـي الثلاثين، دأب على الوقـوف حذاءها صباح كل جمعة في مقبرة الشهداء للترحم معها على أختها الصغرى المتوفاة السنة الماضية في حادثة سـير، مدعيا أنه كان عشـيقها، وعاهد نفسه على الوفاء لها دوما، فلا يعشـق غيرها ما بقي حيّا. في الخطرة الأولـى اعتبرت الشـاب كذابـا، اختلق القصـة لإغرائها وربط علاقـة مّا معها. لكـن القرائن والتفاصيل التـي أضحى يطلعها عليهـا في كل زيارة أيقنتها أن العشـيق صـادق في زعمه. وفي آخر مرة رأته في المكان نفسـه، شـرع يقبل شـاهدة المرحومة كثيـرا ويذرف الدمـوع الغزار، على نحو لم تره لرجل من قبل، ثم دعا القـراء فأتوا جماعات ملتفين حولـه، رافعين أصواتهم بتلاوة آيات وآيات، يعلوهم صوت الشـاب شـجيا رخيما، ثم ختـم في حق المتوفاة بأدعية مرسـلة لم تسـمع أبـدا أبلغ منها ولا أنفذ ولا أجمل، والجمع من حوله مذهولين يكتفون بقول آميـن، حتى إذا تلوا الفاتحة تصدق عليهم بسـخاء، فحاصروه بأدعيتهم وشـيعوه بها إلى أن غادر المقبرة على عجل واختفى عن نظر المشـاهِدة المتعجبة المتأثرة، من دون أن يزوّدها بأي معلومة عنه...

سألتها نجلاء:

- ومن بعد يا حبيبتي، من بعد؟

- لا بعد ولا تتمة ولا خبر (أجابت). بقيت مسمرة في مكاني لعل وعسى يرجع فما رجع...

علقت راضية وهي تستحلي تدخينها:

- الشاب ذكيّ ماكر. يعمل بالمثل: كل غيبة تزيد هيبة... اعطيني كفك... أنا من كثر ما جربت أفاعيل الرجال أصبحت شوية عرافة... هذا الخط يقول لي: الشاب ربما كان عشيق أختك يرحمها الله، وربما يكذب على الميتة لاصطيادك أنتِ الحية. لكن تيقني أنو تارك لك الوقت الكافي وأنتِ مشغولة بالتفكير فيه، حتى يجيء يوم يظهر قدامك مثل جن، وبعدما يطمئن لدهشتك وفرحتك يهمس في أذنك: شبيك لبيك أنا عبد بين يديك...

سحبت أسماء يدها تعبيرا عن استخفافها بتكهنات صديقتها، وقالت:

- أنتِ كلامك كلُّه تخريف. الشاب أصغر مني بعشر سنين على الأقل... ثم نسيتِ أني متزوجة وعندي شغل ياخذ مني كل وقتي، وهمومي اللي ما تخفى عليك تكفيني؟!

ردت راضية بلهجة استياء، وهي تتأهب للنهوض:

- يا ستي المديرة، أنا ما قلت شيء. انسي كلامي كلو. أنتِ بيزنس ومن وأنا امرة بطالة. والله يلاقينا في الصواب.

تدخلت نجلاء لتهدئة راضية وتلطيف الجو، قالت:

- راضية يا أسماء مش مدام سولاي أو لها كرة البلور، لكن عندها حدس قوي يصيب مرة ويطلع بالصفر مرة... رجلي الأول كان تعمد تكسير مؤخرة سيارتي في الباركينگ بصدمة قوية من سيارته، وترك لي على البّاربريز بطاقة تعريفه كتب عليها اعتذاره والاتصال به لإصلاح كل الأضرار. حكيت لهذي العفريتة قصتي، نظرت في كفي وتنبأت أن الرجل ما فعل فعلتو إلا ليتعرف عليّ ويطلب يدي، وصدق كلامها... مدي لها كفك تعرفي البقية...

استجابت أسماء توا وهي تستسمح راضية وترغّبها في الجلوس لإتمام عملها. ردت المطلوبة بشيء من التردد:

- على شان نجلاء يا مدام، لكن مش بالمجان. الفطور على حسابك...

- اليوم وغدا وبعدو على حسابي... متفقة. اعتقيني يا حبيبتي...

أطالت راضية النظر في كف صديقتها، ثم قالت بصوت واثق رزين:

- خطوطك تتقاطع، بعضها أطول من بعض. القصيرة تقول: رجلك المريض ما بقى لو غير الفاس والقياس. بعد

موتو يبرز الشاب إليك في المقبرة أو ربما في مكان آخر. طلبُه الأوحد منك تسمعيه في شيء... وأنا ما أشوف الشيء... ما أشوف... سوري...

لم تقل أسماء شيئا عن قرب وفاة زوجها، لكنها طلبت بإشارات وإيماءات معرفة المزيد عن الشاب وطبيعة العلاقة الممكنة بينه وبينها. لكن نجلاء، العارفة بطبع راضية، ترجت السائلة أن تكبح فضولها وتُعفيَ عرافتها من النطق في ما لا تراه. قالت: كل شيء في وقتو، حبيبتي، كل شيء في وقتو... عندئذ نهضت راضية وخاطبت صاحبتيها: أما الغداء ففي يوم نتفق عليه بالهاتف... گود باي...

-٧-

كان الحارس زيد يذرع نطاق ميدانه جيئة وذهابا، وهو في حالة نرفزة واضطراب بينة، كأن شيئا ما ينقصه، والسيارات من حوله إما تركن أو تغادر، من دون أن يعبأ بها، ما عدا حين يمده سائقون بدراهم يعدونها صدقة مجزاة. فمنذ إقامة العدادات الآلية، أصبح أغلب هؤلاء يكتفون بالتعامل معها مكرهين، غير مكترثين بالحراس المتضررين بها في رزقهم وقوتهم. وبالرغم من شح الدخل وتناقصه ظل زيد متشبثا بعمله، قانعا به، بسبب شغفه بالمرسيدس التي يحرس مكانها حين تغيب، ويحتفي بها حين تحضر. وكم كان يسرّه ويفرّج عنه أن يرى أحيانا حارسا أحمق قبالته في وسط شارع مولاي يوسف ينظّم حركة السير بصفارته، أو لما يشاهد بعض أصحاب السيارات الأشداء يخلصون بأيديهم عجلاتهم المعرقلَة بأداة الصابو لشركة العدادات ويرمونه على قارعة الرصيف أو في قمامة!

أما في وكالة وين وين: الموظفات الثلاث صرن في غياب المديرة يعبرن عن رغبتهن في رؤية الحارس الشاب والاستمتاع بخفة روحه وطرافة كلامه، ويطلقن ضحكات ما إن يتناوبن في التذكير بأقواله المستملحة أو المغناة. فجأة ها هو يظهر على عتبة الباب حاملا باقة ورد أنيقة وافرة، سارع

إلى وضعها بين يديّ عفاف، طالبا منها تسليمها إلى الست المديرة، هدية من رجل لم يقل من هو. اقتربت منه نعمى ونعيمة فرحتين مرحبتين. سألته الأولى عن اسمه وحالته المدنية، والثانية عن عمله من قبل، فيما عفاف، متمسكة بالباقة، تلتزم الحياد، وبويا عمر على كرسيه في حاله سهو عما يجري حوله.

أجاب المسؤول، مصطنعا الحزم والجدية، أن اسمه في الحالة المدنية الزايد أمحزون، ويلقبه من يعرفونه زيد أفرحون لما يصدر عنه من كلمات ونكت تعجبهم؛ أعزب في السادسة والعشرين؛ يعيش مع أمه العجوز في بيت صفيحي وسبق له أن عمل حارس غابة تمارة لمدة شهرين لا أكثر. قاطعته نعيمة سائلة:

- وعلاش تركت الغابة اللي فيها الأشجار والهوا والهنا والطيور اللّي تزقزق؟ العمل فيها نزهة!

- اسمعي يا بنت الناس: الحاضي هو الله. واقفة أو مايلة، عمرك سمعت بشجرة طارت أو هربت؟ هذي الخدمة ما توافق طبعي. أنا عزيزة عليَّ الحركة ومخالطة الناس، هذا جاي هذا رايح أو قاعد؛ هذا عاقل داخل سوق راسو وآخر احمقْ أو بهلول يحدّث نفسو بصوت مسموع؛ هذي بنت الحجاب أو بنت الميني-جيب؛ هذي امرا رزينة واخرى تتمايح وما بقى لها غير ترقص على واحدة ونص... المدينة هي كل شيء

عندي. السيارات والمقاهي والشوارع والساحات والجوامع والأذان والمظاهرات... الإنسان مع ياجوج وماجوج ينسى همومو ويفرّج على نفسو... بركة أو نزيدك؟ أسماك الله؟

- أنا نعيمة وهذي نعمى، والواقفة خلفنا هي عفاف، الرايسة بالنيابة، مات رجلها من زمان؛ وأنا وصاحبتي ننتظر فارس الأحلام... شوف أفرحون، ادعو لي ولهذي المتعوسة يجيب لنا الله هذا الفارس قبل ما نظفّر الشيب ويفوتنا الوقت وندخل سن اليأس ونبقى لا ديدي ولا حَبّ الملوك...

تردد زيد وقال:

- أبدا داود ما يعوّد... مرة طلبت مني عزبا بحالك ادعو لها بالزواج، وجاب لها الله التيسير. ومن بعد شهر العسل جات عندي في هذْ الزنقة بيت لحم تعيرني وتسبني من حيث فارس الأحلام (قالت) طلع لها فارس الكوشمار... ألالة ما أدعو لك ولا لصاحبتك ولا حتى لنفسي. الزواج صعب في هذا الزمان، وما أبغي تتبعني ذنوب احد.

سألته نعمى:

- فكرتني... وهذ بيت لحم اللي حنا فيه، إيش معناه يا القاري؟ نعيمه تسميه *La maison de la viande* الله يبقي الستر!

- بيت لحم، ربّي ينجيك من الجهل، هو اسم مدينة في فلسطين، ولد فيها النبي عيسى بن مريم منذ ٢٠١٣ سنة، التاريخ اللي حتى هو اصبحنا نؤرّخ به؛ وهذا كل ما أعلم.

دعت نعمى الشاب وألحت عليه طالبة:

- قرّب للكونتوار... هذي المرة لا دُعا ولا زواج ولا سؤال. لكن احكِ لنا شي نكت تفرّج علينا بها...

أجاب همسا:

- واش قالوا لِك أنا الفدّ أو عبد الرؤوف!... يا الله واحدة فقط، ومرة أخرى بالفلوس... لكن راها مالحة...

- ما تعجبنا غير المالحات. توكّل على الله...

اقترب زيد من آذان الثلاثي وبث فيها نكتته، فضج المكتب بقهقهات طليقة منتشية، ساهمت فيها عفاف بشكل محتشم بعد أن تخلصت من باقة الورد. ترجته نعمى أن يمتعهن بنكتة، فاستجاب مؤكدا أنها نقية والأخيرة:

- هذا عروبي دخل عند صيدلي يشتري دواء الشقيقة. سأل على علبه عَجْبتو أش تكون. قالوا لِه: هذا مركوروكروم، الدوا لحْمر يوقّف الجرح إذا سال ويحفظو من المكروبات. اشرى منو مَطرب وحطو فوق ميدة في بيت النعاس. وشي مرة ما عرف كيف يدو ضربت المَطرب حتى تكسر على لَرْض. صاح على مرتو: يا فاطمة اجرحي الأطفال أرى الدواء يتدفق.

ضحكت النسوة ملء أفواههن وصدورهن، وغنى زيد قاصدا الباب: أيامنه اغْدرتني في لمان، أيامنه... ثم سكت فجأة وأمرهن بالصمت رافعا رأسه يشتم كذئبٍ ملء خيشوميه من جهة نافذة الباب المفتوحة، قال منبها:

- هذا نسيم الرايسة الفوّاح... ها هي طالعة الدرج ثابتة ورزينة... زينها يدوّخني، وأنا إنسان مسكين، ما عندي لِه جهد ولا حيلة!

سلم للعون حفنة نقود مرفقة بوصية: خذها واسكت، ثم هرول مسرعا نحو الباب في اتجاه الطابق الأعلى، تلاحقه كلمات الآنستين: كلما غابت المديرة، مرحبا بك عندنا...

أقبلت الست أسماء، سلمت على الثلاثي، ملاحظة انهماكهنَّ في عملهن وانشراحهن وأيضا باقةَ الورد، فهنأتهن متمنية أن يكنّ دائما، مثل اليوم، على أحسن حال، ثم دخلت مكتبها حيث اطلعت على برنامجها الأسبوعي وبعض الملفات المستعجلة، وأجرت مكالمات هاتفية، فيما عفاف تُقبل وتجلس مستأذنة. أخبرتها بإلغاء موعد سفير السينغال وإرجاء موعد المستثمر السوري بسبب وعكة صحية ألمت به في جامع بدر؛ لكنها في المقابل أعلنت عن اعتصام الحاج الدوغمي منذ ساعات في قاعة الانتظار، يقتات فيها ويصلي إلى أن يحظى بشرف مقابلة الست المديرة في أمر جدّ هام. ضربت أسماء يدا بيد وأذنت بإدخاله حالا. أقبل العجوز باديَ

التعب والاستياء. سلّم منحنيا قبل أن يجلس. اشتكى لها من عفاف والبنتين لما أطلقن من ضحكات هزء وسخرية في حقه، وألح في طَلبه البقاءَ معها رأسا لرأس، فكان له ذلك. عندئذ تلقى من جليسته كلمات هدّأت روعه وأراحته، ثم قال:

- أنا يا بنت الأصل والمفصل، خيرك عمري ما انْساه. ساعدتني حتى رجعتْ لي شقق عمارتي؛ اللي عليه واجبات الكرا لعام أو أكثر هرب؛ واللي باعوا لي مفاتيحي افرغوا لي متاعي. بعت العمارة كلها، ودفنت مالي في دفاتر التوفير وسهوم البورصة. ارتحت عامين، لا محاكم ولا رشاوي ولا حلاوات ولا محامين... لكن يا مولاتي، من بعد حجي مرتين مع لالة مرتي، عاودتني تيك البلية، البيع والشرا، وربح الفلوس بالفلوس واليوم قبل غدا. يقول المثل: اللي شبّ على شيء شاب عليه... بقى لي جنان من نصف هكتار في مكناس قبالة ضريح سيدي عبد اللّه بن أحمد، تطل عليه مقبرة سيد الشريف الوافي. وجدت اللي يساعدني حتى جعلت الجنان مقبرة خصوصية، فيها، أنتِ مولاة الخير، الشجر والما والخضرة... اللي مات على بغتة يحصل على قبرو بثمن غالي، واللي شراه وهو حيّ يؤدي عليه بالتخفيض ويباهي به الخايفين من الموت وترك هذي الدنيا...

بدأت الست تضجر من كلام زائرها، قاطعته سائلة:

- واش حبّ الخاطر، ألحاج؟

- وكالتـك الناجحـة تتكلـف بالمقبـرة. وكل صفقة عندك فيها عشرين في المئة يا قوت القلوب... المرابحة هي وكالتك اللـي مكتوب عليهـا البيع والكراء وكل المعامـلات العقارية. صحيح أو لا! أنتِ لك تسـيير هذي الصفقة من هنا، وثمَّ عيّني لـك اللي يشمشـم وينـوب عنـك ويجيب لِـك ولِـيَّ الغنايم والهموز اللي هي كلها رزق حلال...

قالت المديرة، وهي تخفي تذمرها:

- شـوف ألحاج، بدّل السـاعة هذي بسـاعة اخرى. خليني افكـر في هذ لافيـر، وإذا بانت لي فيها فايدة أنا انادي عليك... قل لي: أنت اللي اهديت لي الورد؟

أجاب متلعثما:

- يمكـن أكون أنـا! وعلاش لا؟ لو قـدرت جبت لك ورد من الجنة...

استقدمت الست نائبتها عفاف وأوصتها بمرافقة الحاج إلى الباب، فقام الرجل وانصرف متثاقلا يلهث بكلمات:

- أنـا ما قلت يـا بنت الناس غيـر الصـواب... اللهم معك ولا مـع وكالـة اخرى. ما عـدا إذا رفضـتِ وما ندمـتِ... الله يهنيك هذي السـاعة... تفشـت الأمراض والأموات كثروا... كلنا لها... واللي فكـر في الموت وكان من العقلاء، فاز بقبرو وهـو حيّ، وكلمـا زارو قال لمن معه: هـذا قبري وحصتي من التراب... وإنا لله وإنا إليه راجعون...

ما إن قفلت النائبة راجعة حتى سمعت من رئيستها موضوع زيارة الحاج الدوغمي، فانفجرتا ضحكا، ولحقت بهما الكاتبتان مستسمحتين، وشاركتاهما ضحكهما، واحدة تنوه بروح الحارس أفرحون المرحة، والأخرى تقر أن نكته ومستملحاته وكل كلامه ممتع يجلب للقلب البهجة والسرور، ويقوي الإقبال على العمل بصدر منشرح ورأس بلا هموم. بلهجة حادة أوضحت عفاف أن الموضوع لا علاقة له بالحارس، وأمرت الآنستين بالعودة إلى عملهما، إلا أن الست المديرة ارتأت أن الأمر يحتاج إلى جلسة استثنائية فدعت الثلاثي إليها. وقتها استأذن بويا عمر في الدخول وتقديم شهادته، قال بعد أداء التحية العسكرية:

- ألالة المديرة، خيرك عليَّ كثير! أنتِ اللي شغلتني هنا بعدما طردوني من شركة التأمين اللي عملتِ فيها. لهذا السبب واجب عليَّ أقول لك اللي يحصل في الوكالة... هذا العساس زيد بغى يرشيني بهذ العشرين درهم حتى اسكت عليه وعلى الحلقة اللي يديرها في الوكالة. هو اللي اعطى مشموم الورد وصار في غيبتك يحكي لهذي النسوان النكت، وكل واحدة تضحك لُو حتى تظهر اضراسها ويغيب عقلها... ولالة عفاف النايبة راها حتى هي تشارك في الحلقة... هذا كلامي والشهادة لله كلمتي حقا كلمة. راه جدي حارب في ڤيتنام، وبويا في الحرب الكبيرة، وأنا قاومت في بلادي الفرنسيس حتى اعطبوني.

انســحب العون مؤديا تحيته العسـكرية فيمـا المديرة تبدي استغرابها واستياءها:

- هــاي هــاي هــاي! هـذا الشــيء كلّـه واقـع وأنا فـي دار الغفلة... أش تقولي يا نايبتي المحترمة؟

بلهجة متلطفة متوددة، أجابت المسؤولة:

- الست أسماء... هذي أول مرة يحصل فيها اللي حصل... الشـاب أفرحون ما هجم علينا ولا جاء عندنا من دون سـبب. شخص سخرو يسلم باقة الورد لِك هدية.

- أش يكون هذا الشخص؟ ترك في الهدية شي بطاقة؟

- لا، وحتى المرسول ما احب يقول شي على صاحبها...

- والضحك والقهقهة في محل العمل؟

- كلامُه كله هو السبب، وطريقتُه وحركاتُه!

- مولاتــي المديـرة (قالت نعمى محتشــمة) لونحكي نكتة حكاها لنا لضحكتِ...

- اسكتي الله يمسخك...

هبت نعيمة لنجدة صاحبتها فقالت بصوت رزين:

- اسمحي لي ستي المديرة بكلمة واحدة... في مجلة جادة قرأت مقالة تظهر فوائد الضحك الكثيرة، منها: يزيل الستريس ويشجع على العمل ويزيد في الإنتاجية...

قاطعتها أسماء واقفةً، معلنةً نهاية الجلسة:

- الإنتاجية! هاي هاي! بغيتِ الوكالة تصبح حلقة أو تياترو! يا الله، كل واحدة ترجع لشغلها... أنتِ نعيمة يا خفيفة الرجل، غدا تحايلي على الحارس هذا وآتي به عندي... وانتِ عفاف اعطيني الباقة الآن... ومن بعد شوية سيري لدارك، وحتى واحد ما يبقى هنا...

ما إن خلت الست إلى نفسها حتى أخذت تشم أريج الباقة وردة تلو أخرى وتفتش داخلها عن بطاقة أو وريقة عليها أثر مكتوب، لكن لا شيء من هذا. تناولت الباقة كلها وضمتها إلى صدرها تحنو عليها وتقبلها، مسترجعة شريط الشاب حول قبر أختها، مرسلةً دمعا قاهرا لم تقدر على حبسه أو حتى تهوينه... وقتئذ رنّ هاتفها. سمعت صوت الحاج مروان النصري، وليّ نعمتها، يحييها ويستسمحها في إرجاء موعد الليلة إلى أجل قريب. همهمت بالقبول ثم تكومت في أريكتها حزينةً متأملة.

خلف سارية، والليل يرخي سدوله، ظل زيد يحرس المرسيدس بعينين يقظتين مستنفرتين، حتى إذا رأى صاحبتها تركبها وتنطلق، غادر مخبأه وقصد كعادته كل مساء مسجد السنة المطل بصومعته على شارع محمد الخامس وما جاوره، فيتطهر في دورة الماء من أدران نهاره، يتوضأ من نافورة الصحن، يصلي الظهر والعصر والمغرب تباعا والعشاء

مـع الجماعـة؛ عذره فـي ذلك كدّه فـي تحصيل رزقـه اليومي الضـروري واعتمادُه على رحمة اللـه وغفرانه. وبعدها يقضي لحظـات متحدثـا مع من يعرفهم، أو منزويـا في ركن ناظرا في حالـه، مفكرا بعينين مغمضتين في السـيدة المديرة ذات الهمة العالية والجمال الباهر.

-٨-

أسماء في بيت عفاف، بُعيد حلول الليل، أخبرتها مضيفتها أن المهمة التي كلفتها بها لدى الحاج المختار باتت صعبة، بسبب ما يسميه الرجل تجسس ابن السيدة عليه في الحي والمسجد وكل تنقلاته؛ أبلغتها مخاوفه من انفضاح السر مخلفا عواقب قد لا يحمد عقباها.

رنّ هاتف عفاف، تناهت إلى سمعها كلمات مبعثرة بصوت المختار يعتذر عن المجيء إلى الموعد لسبب قاهر. أبلغت صديقتها الخبر ونصحتها بنسيان الموضوع إلى أن يتضح الأمر وينقشع الغيم. هيأت لها وجبة عشاء خفيفة ثم أسمعتها قرصا من موسيقى الآلة المحببة لديها. حدثتها في مواضيع طريفة متنوعة لصرف فكرها عما يقلقها من الوقائع والطوارئ. حين انتهاء العشاء سلّمتها أسماء ظرفا مختوما لدسه غدا في قفة المختار ساعةَ وقوفه أمام بائع الخضر والفواكه أو الجزار بدور الجامع، وأوصتها أن تتلثم. أجابت صاحبة المساعي الحميدة بالسمع والطاعة وشيعتها بودّ وحرارة إلى باب الخروج واعدة إياها بالدعاء لها أثناء صلواتها.

* * *

عودا إلى دارها، سمعت الست صوت زوجها المنبعث من غرفتـه أنينا لاهثا مسترسـلا. قصدته على التو وجلسـت قبالته محاولةً التخفيف عنه ومواسـاته. عرضت عليه خدماتها، منها اسـتقدام طبيب عاجلا. قابلها كعادته بصـدود جاف، وطالبها بشـيء واحـد لا ثانـي لـه: أن تتركه وشـأنه وتغـرب حالا عن وجهـه. ارتأت أن لا فائدة في اللج والإلحاح، فوقفت ودلفت إلـى ابنهـا في غرفتـه. ألْفتـه منكبا علـى كتبه ودفاتـره. أرادت تقبيله والحديث معه فامتنع. ترجته أن يقبل منها مساعدة مالية لقضـاء حاجياته الدراسـية والخاصـة، فرفض قطعيا ما سـماه فلوس الحرام...

اليأسَ اليأس!

رأبُ الصـدع بيـن الابن وأمه بات من رابع المسـتحيلات، بل حتى رتقُ صلة التواصل بينهما وإعادة شيء من الدفء إلى علاقتهما!

صعدت الست إلى بيتها، استلقت على فراشها باكية متألمة من نفور ابن كأنها لم تحبل به وتلده، ومن وضعها المضطرب الشـاذ: لا متزوجـة ولا مطلقة بـل معلّقة. وظلـت على حالها وقتا، ثم قامت تتلهى بالاسـتحمام وعمليات النظافة استعدادا لنوم قد يأتي أو لا يأتي. وهذه المرة، استغراقها في سماع قطع من موسيقى لينةٍ ناعمة أسعفتها في نيل قسط من النوم، ولو في الهزيع الثاني من الليل.

في الصباح، سعت إلى مغادرة الدار على رؤوس أصابعها، وفيما هي تجوز السطوان، سمعت صوت الحاج المختار يتلو آيات قرآنية في غرفة الزوج العليل.

حين ركبت سيارتها في مرأب محروس، انتبهت إلى أن اليوم جمعة، فقصدت توا مقبرة الشهداء، كأنما قوة جاذبة تقودها إليها. وهنا وقفت مدة على قبر أختها، صامتة منتظرة، مخفية انفعالها خلف نظارة شمسية سوداء. لم يُجدِها كثر التفاتها من حولها في العثور على ضالتها المنشودة؛ ثم ها هم قراء يتهافتون عليها في مدار القبر ويطلقون العنان لتلاوة الآيات ثم من بعد لعقائرهم المرفوعة بالأدعية. خطر لها أن تسكتهم وتسألهم عن شاب وسيمِ المحيا وضّاحِهِ، أنيقِ المظهرِ والملبس، مهيبِ الجانب، بليغِ اللسان، حلوِ الكلام... لكنها عوض ذلك ناولت أحدهم ورقة نقدية وأوصته بفكها وتوزيعها على صحبه. شكرها المتسلم وسألها عن أخبار قريبها الذي رأوه معها منذ مدة، وأمتعهم بتجويده الرائع الجميل وجوده الحاتمي، سألها وأعناق رفاقه تشرئب إليها وآذانهم صاغية تترقب منها الجواب. قابلتهم بابتسامة عريضة لعلهم يستبشرون بها خيرا، ثم هرعت إلى الخارج لتنفرد بنفسها باكية في سيارتها وتهّب إلى ناديها لنيل حصتها من الرياضة وإراحة البال. ولا أنفع لذلك من القفز والغطس في الماء!

كان المسبح، كعادته غالبا في منتصف الصباح، خاليا إلا من عجوز متشبثة بعوامة، تمارس السباحة الثابتة وتحادث كائنا مجردا غير مرئي. فما أشبهها بطفلة تجرب الماء وتراوده!

الغطس مع قطع التنفس ما استطاعت كان وسيلة أسماء لمحاكاة سمكة في بوقال، لا ذاكرة لها ولا في شيء حاضر أو مقبل تفكر. تلطم الماء وتخبط عليه بعنف دحضا للهواجس والوساوس وطردا، والماء يرد الصاعات ملامساتٍ دافئةً ناعمةً لطيفة. وحين أخرجت رأسها للتنفس قليلا، سمعت العجوز تولول وتستغيث بمن ينقذ امرأة تغرق. صاح المدرب من مرقبه بكلمات تهدئة وطمأنة لم تفلح في إخراسها.

اقتربت الغاطسة من المستغيثة وبرزت لها كجنية البحر لتوقنها أنها حية تتنفس، شاكرةً لها خوفها عليها، والعجوز تعاتبها وتنهاها: الله يا بنتي! أنا مريضة بالقلب، وكان قلبي شوية ويسكت... الما ما معه مزاح ولا فيه ثِقة... عومي بالكياسة، بلا غطس ولا زعامة...

لكن مجنونة الماء لم تأبه لكلام الواعظة، فأجرت قفزات في المسبح متبوعة بغطسات أطول وأعمق، وتوجتها بعوم طولا وعرضا، حتى إذا استوفت حصتها خرجت، فلم تر للعجوز أثرا. قصدت الدوش وبعده المخدع حيث جففت جسمها وارتدت لباسها وأجرت مكالمات وردت على أخرى، ثم تهيؤا للحاق بعملها قضت وقتا في صالون الحلاقة

سمعت خلاله المجمّلات يتحادثن عن عجوز نقلتها منذ قليل سيارة إسعاف من النادي، مصابةً بسكة قلبية، وروت إحداهن عن المدرّب أن سبّاحة قد تكون بنحو لا إرادي قد تسببت في وفاتها. استعجلت أسماء خروجها غير عابئة بما طرق أذنها، فيما الرواية تعلق قائلة: تعددت الأسباب والموت واحد، والأعمار بيد الله...

العمـل فـي الوكالة علـى قدم وسـاق. وقفـت الموظفات للسـلام على السـت المديرة التي سـألتهن هل سبب نشاطهن هو وجود زيـد معهن قبل مجيئها. أنكرن ذلك. وعن بويا عمر الغائـب، أنبـأت عفاف أنـه ذهب لفتـح بعض الشـقق لطالبي الشـراء أو الكراء. من مكتبها نادت السـت على نائبتها، رتبت معها أمورا إدارية وتسـلّمت منها سـجّل عقود للتوقيع وأخرى للإطلاع، وعلمت منها أنها سـتنوب عنها في استقبال عدد من أصحـاب العـروض أو الطلبـات العقاريـة، إلا من المسـتثمر السـوري الذي يلح على مقابلة المديـرة المحترمة على انفراد لعـرض مربـح جـدا؛ ثم طمأنتهـا على تسـلّم الحـاج المختار الأمانة في قفة تسـوُّقه، وأبلغتها أن نعيمة لم تتوفق في إحضار الحارس إلى الوكالة.

بعـد خـروج النائبـة، اهتمـت السـت بالسـجلين وأجرت مكالمـات هاتفيـة وتلقـت أخـرى، أطولها كانت مـع محامي الوكالـة الذي بشـرها بنجاحـه في تنفيـذ حكم إفراغ شـقتين، وصارحهـا أن الحكم نفسـه في شـأن فيلا بحي حسـان وثانية بحي الليمون سيتطلب بعض الوقت ومصاريف إضافية...

استأذنت عفاف في إدخال السوري، فتقدمت وخلفها الرجل بزي عصري، تفوح من جسمه البدين رائحة عطر حجازي، وبيده مسبحة شامية يستعملها بطريقة لافتة للنظر. حيّا الست وجلس صامتا مطأطئ الرأس، ثم نطق بكلمة: تمنيت المقابلة على انفراد. فما إن انسحبت عفاف حتى أخذ الرجل – من باب تقديم نفسه – يكور جملا متتالية مفادها أنه مستثمر عقاري، بنى أحياء سكنية شتى وعمارات خدماتية وفيلات من هاي ستاندينگ في السعودية والإمارات ومصر، حتى إذا استقر به المقام في المغرب الشقيق، أبى إلا أن يسهم قدر الامكان في نهضة هذا البلد العمرانية، الذي صار مضربَ الأمثال في بلدان العرب والعجم على السواء، وقبلةَ المستثمرين الآتين تباعا حتى من الصين البعيدة. وكان الزائر سيستمر في كلامه المرسل المتدفق لو لم تقاطعه الجليسة متلطفة بسؤال وجيز: أي خدمة يا حاج؟

– والله يا ستي المديرة أصبتِ شم سمات الحج عليّ! منذ عقد، كل سنة أحج صحبة إحدى زوجاتي. أما العمرة، لا تسألي كم مرة. أؤدي الفريضة، أشكر الله عز وجلّ على ما متعني به من نِعم، ثم أمارس في تلك الديار المقدسة شوية بيزنس. حج وحاجة، كما يقال...

– أي خدمة، يا حاج؟

– نعم... نرجع إلى موضوع الزيارة... أنا كل يوم تقريبا في جامع بدر أؤدي الصلوات مع الجماعة وأتعرف على

أصحاب العروض والطلبات. وحين يحصل توافق مبدئي على صفقة مع واحد أو أكثر، نكمل الجلسة في مقهى مجاور على حسابي، فندقق التفاصيل ونحدد الموعد مع الموثق، ثم نعود إلى الجامع لقراءة الفاتحة...

هذه المرة أعادت أسماء طرح سؤالها بشيء من النرفزة ونفاد الصبر، فإذا بالرجل، بعد الاعتذار، يلقي عليها عرضه الذي توقعته واشتمت رائحته الكريهة من لف العارض ودورانه، وعرفت أمثاله في سالف الأيام.

- هناك عائلات محترمة يا ستي تفضل الشقق المفروشة على الفنادق ذات الإكراهات والأسعار المرتفعة. أملك في القاهرة عمارة من هذا الصنف بشارع الزمالك. الإقبال عليها كبير ومربح. بدا لي تكون على شاكلة هذي العمارة واحدة أملكها في طنجة وأخرى في الرباط بشارع فال ولد عمير...

قاطعته أسماء وهي تقف إشارة إلى إنهاء الجلسة:

- وترغب يا حاج أن تسيّر وكالتي شققك المفروشة؟

- هو بالذات، هداك الله، موضوع الزيارة...

- وكالتي لا اختصاص لها في هذا النوع من المعاملات، ولا تقبل بها أصلا... تفضل يا حاج...

قصد الرجل الباب متثاقلا، وقد انقبض وجهه وترمد، قال متلعثما:

- إذا غيرتِ رأيك يا ستي، بطاقتي عند الست عفاف... فكري جيدا، وإلا الوكالات كثيرة، ولا واحدة تضيّع هذي الهمزة، كما تقولون. تركتك بخير...

استأذنت عفاف في الدخول. جلست ونظراتها تستفسر.

- حتى هذا يا لالة طلبني نسيّر لو شقق مفروشة! من الآن وبعدين ما تاخدي مواعيد الزيارات من غير مواضيعها... غربلي وعينك ميزانك... سمعة الوكالة هي راس مالها...

- والله شممت في الرجل رائحة كروش الحرام... لكن اطمئني من هذي الجهة... الحاج المختار كلمني في الموبايل وقال لي: زوجك في حاجة إلى ممرض يعتني به بالليل.

- فيه أمور أخرى؟

- مرافقة السفير البوركينابي حررتك منها... قلت لو السيدة المديرة في مهمة بالخارج وأنا أقوم مقامها. زار معي فيلا أولى ما اعجبتو، والثانية طرب لها وما بقى لو غير شوية ويرقص، لكن طلب الثمن ينقص بالنصف ثم، بعدما رفضت، بالثلث باسم الأخوة المغربية-البوركينابية. تشاورت مع المالك في الهاتف. قدمت الطالب وسميت بلاده اللي يمثلها كسفير في المغرب، فأنكر معرفتو ببلاد تحمل إسم بوركينا فالصو، وزعق في أذني: يمشي هذا السفير يفتش على إقامة في حيّ شعبي... وأقفل الخط.

ابتسمت أسماء، ضربت يدا بيد وعلقت: العنصرية وما تدير! المالك أعرفُه. حتى بسهم الكراء المطلوب ما كان يقول لنا غير لا... فيه شيء آخر؟

- نعيمة تغير حالها. تغيبت مرتين، ومرات تخرج قبل الوقت. عذرها إما العادة الشهرية أو مشاكل عائلية... أما المنظفة فعملها لا باس...

- شوفي، نعيمة اصبري عليها. مش هذا وقت بدّلْ غيّرْ، قولي الله يكون في عون الجميع... إيه، السفير الهنغاري حددي لي الموعد معو في السفارة، غدا وسط النهار... وكيف حال الجيران؟

- كل واحد ودارُه، يسدها عليه. الاحترام والتوقير. في الدرج ما نشارك غير صباح الخير ومساء الخير وشوية كلام عن حارس العمارة الأعزب اللي بات وما اصبح وخلفو حارس العمارة المجاورة، يقوم بتنظيف العمارتين... أما صراخ الزوجة في الطابق الرابع اللي يضربها رجلها، الجميع تعوّد عليه...

- سيري الآن قابلي شغلك، أراني عما قريبْ رايحه لموعد مع صديقات...

- لكن إذا مرة اخرى جاء زيد بباقة ورد، أش أعمل؟

- اضربيه بها أو وكْليها لِه... يا الله سيري.

أومأت عفاف بالامتثال للأمرين لكن، وهي على عتبة الباب، سمعت آمرتها تقول: لا... خوذي منو الباقة وحطّيها هنا على الطاولة.

-١٠-

في زنقة بيت لحم، بعد أن تأكد زيد من غياب المرسـيدس وصاحبتها، استرعى نظره لأول مرة في زنقة مقابلة وقوف فتاة على مرقاة، تنظف بالماء الراغي واجهة زجاجية لمتجر ألبسـة نسـائية. رقَّ قلبـه لحالها وأشـفق، فتقدم نحوها هرولةً، سـيما وقد رأى شـابا يتحرش بها، فطرده بتهديدات جدية، ثم عرض عليها المسـاعدة، وهو يغالب تعلق عينيـه بأطرافها الحميمية. تـرددت لحظـة ثم نزلت وسـلمت لـه أدوات التنظيـف. وبينا هو يكد في الغسـل والتنشـيف برزت له ربة المتجر، زحزحت المرقاة حتى كاد يسقط أرضا، سبّته وهددته باستقدام البوليس إن هـو عـاود التحرش بالبنـت ولم يغبر. وقبـل أن يهرول فارا تلفـظ بكلمـات مرتبكة وجيزة: أنـا نيتي صافية. مـا بغيت غير فعل الخير...

سـر يـا أمحـزون وادخـل سـوق راسـك، وإلا تجيبهـا في عظامـك: بهذا خاطـب صاحب النيـة الصافية نفسـه ووعدها بالتعقل والحيطة والحذر.

حيـن عـاد إلـى قطاعه وجـد فـي انتظـاره عـروب صديقَه القديـم. تعانقا بحـرارة، تبادلا بعـض أخبارهما وكـرر الوافد عتابـه لصاحبـه علـى لزوقـه بزنقـة وصـرف يومـه فـي جمـع

دريهمات يسلمها من أراد كصدقة لا مقابل خدمة. نصحه أن يحذو حذوه ويطلب البركة من الحركة. كل شهر أو أكثر هو في شغل، سواء تيسر في الرباط أو الدار البيضاء وأي مدينة أخرى. الأشغال الصغرى المدرة للرزق عنده كثيرة، متنوعة: مساعد بائع الغروس والورد، حارس غابة، زبّال، بائع متجول للخضر والفواكه، متاجر في البضائع المهربة والأقراص المقرصنة، مساعد الگوريلات على أبواب الملاهي الليلية... لو أن زيد أطلع صديقه على سر تعلقه بعمله في زنقة بيت لحم، أي المرسيدس وفوقها وبعدها بمولاتها ومولاته، لضحك عليه جهارا واتهمه بالصبيانية والسخف وقلة العقل.

لم يبق لخروج الموظفين سوى ساعة. دعا عروب زيد إلى التجول في الشوارع والجلوس في مقهى للتفريج عن النفس. استمهله المدعو قليلا حتى يأخذ من أصحاب السيارات التي غسلها تعويضات عن عمله، وقدّرها في أربعين درهم أو أقل. ناوله عروب مئة درهم عوضا عنها وقال آمرا: يا الله بنا. تحرك وافتح عينيك على الدنيا وناسها.

أمام حديقة حسان العمومية، استوقفت شابة الصديقين، مدّت إلى فميهما آلة تسجيل سائلةً: ممكن آخذ من وقتكم شوية؟

أجاب عروب: [مصطنعا اللهجة المصرية]: شوية! لا خذيه كلو يا ممزيل.

الشـابة: متشـكرة آوي... هـي بـس أسـئلة صغيّـرة عايـزة أطرحهـا علـى حضرتكـم واسـجل الإجابات... أنـا صحافية أعمـل مراسـلة لمجلة أم الدنيـا القاهرية. المجلـة ذي كلفتني بإجراء استطلاع ميداني عن شباب المغرب الحبيب.

عروب: يا أهلا بحضرتك في وطنك الثاني.

الصحافية: تسلم لشبابك.

عروب: وانتِ كمان.

الصحافيـة: مرسـي... طـب فـي البدايـة: الاسـم والسـن والعمل والحالة المدنية؟ تسمح أسجل؟

عـروب: السـاحلي عـروب، ثلاثيـن سـنة، أعـزب، حـر. العمل؟ [مغنيا فريد الأطرش] خليها على الله.

زيد: [متابعا] على الله.

عروب: ومشّيها ويا الله..

زيد: أُو ياالله...

الصحافية: السؤال الأولاني... حضرتك بتطوّل لحيتك ليه؟

عـروب: (متـرددا ومداعبا لحيته بيده) أقـول لك إيه؟ اللي أشوفو هو التقشف وشدّ الحزام...

الصحافية: لو حضرتك توضح كلامك!

عـروب: اللحيـة توفـر علـيّ كُلفـة الحلاقـة مـن معجـون وجيليت وأفتير شـيف. لكن والله راهـا نقية على طول بفضل

الماء والصابون البلدي أو الرومي، وصاحبي هذا عندو بس مشروع لحية (يمرر يده عليها)، لكن حتكبر وتفيض والأسباب هي هي...

الصحافية: السؤال الثاني... الزواج عندكم وكمان عندنا يمر بأزمة؛ يا تُرى أسبابها في تقديركم هي إيه؟

عروب: الأسباب هى هىَ: ضعف الدخل، أزمة السكن، بطالة... وأيضا الحب صار حتى هو بطال [مخاطبا صاحبه وناعتا إياه] ما عدا هذا المزغوب اللي باغي يقفّرها. [تبدي الفتاة سوء فهمها للجملة الأخيرة]. ما عليش... فيه سؤال آخر؟

الصحافية: إي طبعا. صحيح فيه عزوف عن الأحزاب؟

عروب: الأحزاب! قصتهم طويلة. إنما ﴿وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون﴾، صدق الله العظيم، واحنا الشباب مش فرحين...

الصحافية: يعني عندكم فيه عزوف عن السياسة؟

عروب: [سائلا صاحبه] واش احنا عازفين على السياسة أو زاعفين؟ [يدير وجهه نحو الفتاة] سوري... جايز فيه العزوف اللي حضرتك تسألي عنو، لكن فيه عزوف أخطر من ذا...

الصحافية: ويكون إيه؟

عروب: عزوف السياسة عن الشباب.

الصحافيـة: يا ريت لو تشـرح مقولتك ذي... وصاحبك ذا ساكت ليه؟

عـروب: زيد وأنا في الهم سـوا... إنمـا كلامي لحضرتك لحـد الوقـتِ كلـو مجـرد رؤوس أقـلام. مـا نخشّ كلنـا على الحديقة وأقول لك فيها كل الحقيقه.

الصحافية: متأسفة... مش ممكن.

عروب: مش ممكن ليه؟

الصحافيـة [بلهجـة مغربية]: إيـوا بعّد وإلا نعيّـط للبوليس ياخذوك للبنيقة... الحديقة، الحقيقة! سر الله يعطيك اللقوة... وقبل ما يجي البوليس، الشاب القوي على الرصيف قدامنا هو زوجي بالشرع والكاغد. تحب اناديه يربّيك هو واصحابو؟

عروب: [دافعا أمامه صاحبه]: مروكيبا بنت البلاد! سر سر قبل ما تنْتفنا... ما عدا إذا بغيت اخْلي دار بوها هي وجماعتها؟ [يبتعـدان قليلا] كل هـذا الوقت وأنا اطبـخ حليبي على الخوا الخاوي! على والو!... أعزب، حر، حتى هذ الكذبة ما نفعت! لو سمعتني المسكينة مرتي، محال تسامحني!

زيـد: [وقـد انتابته نوبة ضحك حادة]: انريخْ اوسـكبيخْ... الحقيقة في الحديقة أو في البنيقة. [تنتقل عدوى الضحك إلى صديقه].

عروب: ما لك مع الصحافية صرطت لسانك؟

زيد: أخويا زينها سكّتني، وأنتَ تعرف قلبي رهيف ودَغْيا اربّي الكبده...

عروب: ابق هكذا حتى تمرض بالقلب أو بالكبده... إيه! إذا كنت باغي تبرد جنونك، راه صاحب الكريسه المعلومه ترفّه واشرى سيارة نقل هوندا. في النهار ينقّل السلعة، وفي الليل تلقاه في نفس الـگاره، ياخذك ويروح بك على جنب البحر في گاره أخرى تسمى البيزودروم... هانا بلّغت. لكن خذ لك العازل الواقي وإلا تخرج على راسك... ودابا سر بنا من عند المصرية المزورة إلى المطعم اللبناني. الشوارمة على حسابي هذي الليلة، ومن بعد أنا طالع لطنجة...

-١١-

صحّ خبر عروب!

قبيـل منتصـف الليـل، أدى زيـد لصاحـب سـيارة النقـل ضِعـف ثمن أيام «الكريسـه» يشـمل واقيا واحـدا. كما العادة، وجْـهُ المومس مغطـى بمنديل وظلمة الليـل. تخيّل المضاجعُ وجه فاتنته الست المديـرة ثم غيّبه بالاعتذار والاستغفار، ثم نـزل بتصـوره إلى وجـه منظفة واجهـة المتجر، ثـم عرج على جسـم الصحافية، فأمنى تـوا، مقصرا رغما عنه مدة متعته؛ أراد الاستئناف، تحفـزه رائحـة البحر ورقـة الجو وأنسـامه، لكن المـرأة أزاحته عنها مشـتكية لقوادها، فأمرها بالاستجابة هذه المرة لزبون قديمٍ وفـيّ، يؤدي السـلف في وقته والمتأخرات. انصاعـت المأمـورة على مضـض، وتلهت بقضـم فاكهة أو ما شابه وثفل فُضلاتها وسبِّ حرفتها والرجال أجمعين.

حيـن عـاد زيد إلـى بيته، يخامره شـيء من الانتشـاء وكثير من الاحسـاس بالخزي، وجد أمه في انتظاره، قلقة لم يغمض لها جفن. بشـق الأنفس هدّأ روعها وآمنها من خوفها عليه من أولاد الحـرام والزنـى؛ ثـم بعـد أن قاسـمها بعـض الطعام قام لإزالة الجنابة والتوضؤ وأداء ما عليه من صلوات.

احتمال زواجه لم يعد يفكر فيه، وأمه يئست من حثها عليه. الـزواج ،كما كان يجيبها بصيغ متنوعة، مفادها أنه كلمة خفيفة النطق، ثقيلة الوزن، خصوصا في هذا الزمان الفاسـدِ الصعب. الزوجـة الحـلال أمانة في العنـق لا يقوم بها إلا مـن له القدرة والاسـتطاعة. أما أن يتعسـف عليهـا ويرهقها بالـولادة وقصَرِ اليد وضعف الدخل فلا وألف لا. وريثما تنجلي بوادر الشرط وتتأكد، فلا بديل عن تكوير الأيام كما شاء لها الوقت، وذرذرةِ ملـح التوهمـات وأحـلام اليقظة عليهـا، اتقاءً لغلبـة اليأس أو الخبلِ وزهق العقل.



لمـا أصبح زيد في زنقة عملـه، ناداه هاتف ذو رقم مقنع أن يحضر في بهو محطة القطار القريبة منه. اسـتجاب فورا فإذا به أمام الشـاب مُهدي باقة الورد. تسـلّم منـه أخرى مع مئة درهم وبطاقـات تعبئـة هاتفـه. جدد وعـد الكتمان الـذي قطعه على نفسـه في المرة السـابقة، ثم عاد إلى زنقته وصعـد إلى الوكالة حيث وضع الباقة على المبسط وولّى مدبرا وهو يلهج بكلمة: ما على مرسول الورد إلا الإيصال...

كلمـة أعادتهـا عفـاف علـى مسـمع السـت المديـرة ما إن حلت بمكتبها منبسـطةَ القسـمات، طليقةَ الوجه. أخذت تشم أريـج الباقـة وتنقـب بنظرها داخلهـا. مرة أخـرى لا أثر مطلقا لهويـة باعثهـا. أطلعـت نائبتهـا علـى وسـيلة قد تكـون ناجعة

لفك هذا اللغز، تكمن في إحضار زيد وإغرائه بمكافأة مالية إن هو كشف عن أوصاف من تريد معرفته، وإذا رفض تطبق عليه الخطة باء التي فضلت التكتم عليها. أنبأتها عفاف عن المستجد في الأمر وهو، كما نقلته نعيمة، أن الحارس يقبل بالامتثال أمام طالبته شريطة أن يكون مُعصَّب العينين وعليهما نظارة سوداء كالأعمى، حتى لا يرى جمال جليسته فلا يدوخ بنوره أو يغمى عليه. أطلقت أسماء ضحكة ملتبسة، وأمرت مستسلمة: كلفي نعيمة تجيء معه والشرط مقبول... أش تواتيك يا مولاة الهموم، قالت الجلوس مع واحد مجنون...

في انتظار تنفيذ أمرها قضت الست لحظات بين انكباب على الباقة وآخر على سجل عقود ورسائل إلكترونية يتخللها تصفحها لأعداد جديدة لمجلات نسائية؛ ثم نُقر على بابها ودخلت عفاف مستأذنة وزيد خلفها على النحو الذي اشترطه، واضعا يده على كتفها ورأسه مشرئب إلى السقف، لا وجهة له سواه. أُجلس على كرسي، وظل على حاله لا يبدي جزعا ولا ينطق ببنت شفة.

قالت أسماء وهي تغمز غمزات وتلوّح بيديها:

– خذي يا عفاف هذي الموبيلات. جاوبي على واحد فقط واقعدي قرب الباب المغلق... مرحبا بالسي زيد... ما نطوّل في الكلام... هذا الورد من يكون صاحبُه. ابْغي كل المعلومات تخصُّه...

- سيدتي المديرة، تحياتي واحترامي. أنا ما عندي معرفة باللي يبعثني بالورد. حلّفني على مصحف مصغر ما اعطي وصفو. وأنا مومن أخاف الله، والمومن إذا عاهد وفى...

- وسخْرتك يعطيك عليها شي حلاوة؟

- سوا اعطى أو لا، الله يوسّع عليه...

- وإذا اعطيتك أكثر منُّه، تقل لي أوصافو؟

- يستحيل عليّ انقض القسم اللي أديت...

- اعطيك باش تدير الكفارة وتطعم ستين مسكين...

- مرة اخرى ألالة غير اعذريني حتى أريح ضميري. هذي كلمتي اللي ما أخونها ولو بمال قارون.

أومأت أسماء لنائبتها فرنّ الموبايل وتناولته منها: أهلا حضرة الكوميسر... مرحبا وألف مرحبا... طلبك أمر... ما يكون غير اللي يعجبك. من بعد اناديك في طلب بسيط... فهمتني... العصا لمن عصى... تشكراتي سعادة الكوميسر...

حتى هذه المكالمة الوهمية وما توحي به من تهديد لم ترعب زيد وتزحزحْه عن موقفه. فظل أمام وعد المديرة ووعيدها يقول: لا أخاف إلا الله وحده، ولا تعاد غير الصلاة على النبي... إذّاك أشارت إلى عفاف بالاقتراب وبثت في أذنها الخطة باء. شمرت المأمورة على ساعديها، أوقفت

المعانـد المتجاسـر وقادتـه خـارج المكتـب وهـو يـردد: يـا حفيظ يا سـتار! اللهم لطفك يا ربّ! أوفدت العون في سـخرة وحررت المنظفـة. أحضرت نعيمة ونعمى إلـى قاعة الانتظار حيث أقعدت المقبوض عليه. وبعد أن غلّقت الباب والنوافذ، خيرتـه بين الكشـف عن هوية مرسـل الورد بالتي هي أحسـن وبين أن يقول الحقيقة تحـت التعنيف والضرب. فرد المحاط بالثلاثـي المعبـأ المسـتنفر: التعذيب أهـون عليّ مـن الحنث ونقض قَسم قطعتُه على نفسـي... عندئذ صاحت عفاف: نبدأ بالفلقـة! فتعاونـت النسـوة على تمديـده ظهريا وربـط رجليه بأحزمـة ورفعِهمـا، متناوباتٍ علـى جَلْدِ أخمـص قدميه بعصا جلـدا يشـتد أو يخف، وهـو لا يتألم ولا يصرخ، وإنما يشـدو أو يدعو ملامسـا لحيتـه: جرحُ الأحبـةِ عندي غيـرُ ذي ألمِ... ربِّ سـامحهنّ لأنهـنّ مأمـورات طائعـات، وسـامح الأمورة الآمرة، وأنزل عليها شـآبيب عفـوك ورحمتك، فلولاها لكنت رفعت شـكاية إلى القضـاء بتهمة الحبس التعسـفي والاعتداء الجسدي...

مـا إن سـمعت أسـماء كلام زيـد مـن خلـف البـاب حتى اقتحمـت القاعـة وأمرت بفك عقال الشـاب وإطلاق سـراحه مـع الاعتذار له. وكذلـك كان. انتعل المسـرّح حذاءه، وقصد بـاب الخـروج مترنحـا، مغنيـا توشـيحا عشـقيا يُسـمع لحنـه وحتى كلماته:

وقَفتُ ببابكَ يا ذا الغنى فقيرا وأنتَ بحالي عليمْ

فحاشا وكلاّ يخيبُ الذي أتى بانكسارٍ لبابِ كريمْ

صاحت المديرة قبل أن تغلق عليها مكتبها: ملف زيد طويناه. ما أسمع واحدة تتكلم عنّو. وإذا مرة اخْرى جاب الورد يرجعْ به. مفهوم كلامي؟

منـذ أكثر من شـهر، ظـل أمر المديـرة سـاريَ المفعول، لا حديـث عـن زيد بيـن الثلاثي إلا همسـا، يتذكرن كلامـه وهُنَّ يعنّفنـه، وكذلك نكته ومقاطعـه الغنائية، فتبعثهنَّ الذكرى على العمل الجديِّ المنتج.

وذات صباح، أتى بويا عمر يخبر أنه سـمع باعتقال زيد من طرف الشرطة، وكلام بعض الناس أنه متهم بكسر عدّاد موقف السيارات وتعطيله.

هلعـاتٍ، مولـولاتٍ، باكيـات، أبلغـت عفاف والآنسـتان رئيسـتهن النبـأ المشـؤوم، وترجينهـا أن تفعـل شـيئا لتحريـر شـاب مسـكين لا يهز دجاجة علـى بيضها، فكيـف يحطم آلة مـن فـولاذ وحديد! ونبهـت نعمى إلى أن حبسـه، لا قدّر الله، سـيضعف نشـاطهن ويضر بإنتاجية الوكالة. تقوّى حماسـهن الدفاعـي بقـدوم أم المعتقـل العجـوز قلقـةً لاهثة، تسـأل عن ابنهـا المختفـي وتقسـم أن ليس لها إلا هـو بعد اللـه لرعايتها والتكفل بها.

تعـاون الثلاثـي علـى تهدئـة روعهـا وإجلاسـها فـي قاعة الانتظار حيث أتينها بقنينة ماء ووعدنها بقرب رؤيتها له سـالما معافـى، لكنهـا ألحت على معرفة سـبب تغيبه عـن البيت ليلة

أمـس، وهذا ما لم يفعله من قبل إلا بإخبارها، وأعلنت أنها لن تغادر مكانها حتى يأتي ولدها وتعود معه جنبا لجنب.

أقبلـت أسـماء، انحنت على العجـوز تطمئنهـا وتعدها أن ابنها سـيلحق بها بُعيد صلاة العشـاء. هتفت الأم وقد استردت أنفاسها:

- الله يبشرك بالخير يا بنتي. ليلة كامله ما كحلت بالنعاس. جيت لهذي الحومة، قالوا لي ما ينفعك غير تشوفي مع صاحبة الوكالـة. وباين ليَّ هي انـتِ. الزين والهمة وكلامك حلو ينزل عليّ بحال الما الدافي... أنا ذاهبة الآن ووعدك يساوي عندي أكثر من الذهب الصافي.

همسـت المديرة في أذن نائبتها: حتى أمو تتكلم بالقوافي، وقالت:

- كوني هانية ألحاجة...

- حاجـة! مـن فمك للسـما. فايلـي عليّ حتـى يجيب الله التيسير وحجة لكعبة سيدنا محمد الأمين. وشنو سميتك؟

رافقت أسـماء العجوز، وهي تكشف عن اسمها وتأمر بويا عمـر باصطحـاب الحاجة في طاكسـي إلى منزلهـا، فخرجت وهي تغدق على المحسنة إليها أدعية حارة تلو أخرى...

أمـرت الرئيسـة الموظفات باسـتئناف عملهـن، ووعدتهن ببـذل مـا فـي وسـعها لتحريـر المعتقـل. وفعلا سـارعت إلى مهاتفة وليِّ نعمتها الحاج النصري وأخبرته بالواقعة، طالبةً منه

التدخل لصالح الحارس المسمى الزايد أمحزون البريء في اعتقادها من الجنحة المنسوبة إليه. وما هي إلا ساعات حتى برز الشاب كعفريت أمام مبسط الوكالة وبيده باقة ورد، فأثار دهشة النسوة وزغاريدهن وحمدن له السلامة؛ لكنْ عفاف نصحته بالتخلص من الباقة، فقال إنها هديته المتواضعة إلى السيدة المديرة، منقذته من تهمة ظالمة وسجن كان سيطول لولا شفاعتها الكريمة...

فجأة أقبلت أسماء، وكانت سمعت كلام الشاب، فهنأته على إطلاق سراحه. سلمها الباقة وقال، خافضَ الطرف: نجيتيني مولاتي من وحلة، الله يحفظك وينجيك من كل شر. خيرك عمري ما انساه... ثم انحنى يقبل يدها بحرارة قبل أن يهرع إلى الباب ويذهب تاركا الجماعة في حالة تأثر ووجوم؛ الآنستان تبكيان والست الرئيسة تعود إلى مكتبها وهي تمسح دمع زيد على يدها.

-١٣-

صباحَ عودة الحارس زيد إلى عمله، كانت الست المديرة في زيارة لبعض الضيعات المعروضة للبيع في عمالة الصخيرات-تمارة. عفاف تعلم أن رئيستها ستتغيب اليوم كله، لذا أذنت للآنستين بإعداد كوكتيل احتفاءً بإطلاق سراح زيد بعد ثبوت براءته. تطوعت نعمى للتسوّق وإخبار المعنيِّ بالأمر، مطمْئنة إياه أن المعلِّمة مسافرة. بين غيبتها ورجوعها قضى الشاب وقتا يصوّب نظره إلى فتاة متجر الألبسة النسائية، وهي تقوم بعملها المعتاد وتلتفت خلسة إلى رامقها ومحييها ومرسل بوسات إليها عبر الهواء مباشرةً. لم يجرؤ على الاقتراب منها مخافةَ أن يسقط في ورطة أخرى قد تكون هذه المرة مع مشغلتها الوعرة غير مأمونة العواقب والمجرى؛ لكنه ظل يهمهم مع نفسه: هذه المسكينة القصيرة على قدّ يدي ودخلي، والزواج بها، والله أعلم، لعله مواتٍ لي وأنسب... ولم يعد إلى رشده إلا بعد أن لمح نعمى تشير له بالصعود حالا. وفعلا دخل وأغلق بويا عمر الباب دونه موجها له تحية عسكرية، مقسما ألا يشي به هذي المرة للست المديرة، ثم أقبل عليه الثلاثي بتقبيله على الرأس والجبهة، وبسيْل من التهاني مصحوبة بزغاريد خفيضة لاجتناب فضول الجيران؛

وبعدها اقتدنه إلى طاولة عُدّت في قاعة الانتظار وزُينت بشتى أنواع الحلويات والمشروبات. سأل مذهولا:

- حـاي حاي حـاي! أش واقع؟ اياك ما واحـدة تزوجت، أو واحـدة ناويـة تخطبنـي وأنـا مـا عنـدي لهـا بيـت ولا نفقة ولا صداق؟

أمام إمعان النسـوة في المماطلة والتغامز، نظر زيد إلى بويا عمر مستفسرا، لم يتلق منه سوى تحية عسكرية جادة، فإذا بهن يتناوبـن ضاحكات فـي الإعلان أنهن نظّمن له هـذا الكوكتيل الحلال للإحتفال به وتهنئته بمناسبة سلامته من أيدي البوليس واسـترجاع حريته كاملة غير منقوصة. ودعونه لافتتاح الإقبال علـى ما يحلـو ويطيب وما يروي العطشـان. لبّى الدعوة طائعا وقد تبدد شـيئا مّا دهشه، وتبعه الجميع في الازدراد والشرب. وبين الفينة والأخرى تسـأله واحدة عن اعتقاله وظروفه أو عن معاملة البوليس له، فيجيب: الفم المليان ما يقدر على الكلام. عقبـت عفاف: قالوها اسـيادنا من قبـل... بلع زيد مـا في فمه وصحـح ناعتا صـدره: لا، اللي قالها هو عبد ربـه، إيوا خليني آكل علـى خاطري الشـي اللي بيني وبينُه أيـام وليالي. وما دام فمـي فرغ، حتـى أنا عندي سـؤال... لا مشِ دابـا... بعدين... خلوني اتمتع بهذي الزردة العصرية، سيما وأنا ما داير ريجيم.

اسـتمر زيـد في ما كان فيـه، حتى إذا رفع يديـه عن الطاولة وختـم بعـبّ كأس عصير عن آخره، حمد الله وشـكر للنسـوة

دعوتهن، استعدادا للانصراف. ذكرته نعمى: وسؤالك؟ بغينا سؤالك ولفُّه، الله يجيب لِك شي بنت الحلال، في أشبيش، خطبة ذيالك. وهتفت مع زميلتيها: أشبيش! أشبيش!...

عبّر المدعو عن قبول طلبهن شريطة أن تكون بعربية وسطى مفهومة. احتجت عفاف على الشرط لكون مستواهن في معرفة لغة البلاد أكبر مما يتصور. فقال بعد الاعتذار ونهيِ العون عن أداء تحاياه العسكرية:

أيْتمَا دَ اسْتما، أزولُ سلام ربّي فلاّون...

لاحظ الخطيب على وجوه المنصتات علامات الاستغراب، فقال:

السيدة عفاف المحترمة،

الآنستان الطيبتان نعمى ونعيمة،

بويا عمر الموقّر،

تحيةَ المسك والعنبر،

وبعد، جاء في الصحيحين: إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، الحديث. فإن كانت نيتكنَّ من تنظيم هذا الكوكتيل الحلال الاحتفاءَ بي حرا طليقا بعد يومين قضيتهما في ضيافة مخفر الشرطة، فإني أُجزل لكُنَّ الشكرَ الصادقَ الحار، وأجرُكنَّ، بحول الله وقوته، ثابتٌ في هذه الدار وفي الأخرى؛ أما إن كانت نيتكنّ الاستهزاءَ بي والضحك على ذقني...

قاطعتـه عفـاف: لا لا، معـاذ اللـه! وصاحـت الآنسـتان: حاشا حاشا!

ثم اسـتمر: فإني إذن أوكل أمركنَّ إليه تعالى، يحاسبكنَّ إن شاء ويعفو عنكنَّ إن شاء. وهو سبحانه يعلم ما تضمرهُ الأنفسُ والصدور، ولا تخفى عليه خافية...

حلوياتكنّ أحلـى من الفلقة ومن ضرباتكنّ اللينة الخفيفة، وشرابكنّ بين فمي وبطني نزل عليَّ سائلا عذبا زلالا.

عـن التهمـة التـي أُلصقت بـي ظلمـا وعدوانـا، أعيد على مسـامعكنّ ما رويتُه في مخفر الشـرطة: فعلا، بدايةَ كل صباح كنـت أنطـح العـداد الآلـي في زنقـة عملـي، وأركلـه ركلات توجع قدمـيّ، وأدعو على ناصبيه المتسـببين في إفقار حراس السـيارات والسـعي إلـى شـطبهم مـن الوجـود. لكنْ مـا بين التهديـد وتنفيذه عقبة صعبة لا قدرة لـي عليها ولا طاقة، والله شاهد على ما أقول ومن يعرفني في الزنقة وما جاورها...

هـذا هـذا ولا كلام لـي أزيده... علـيّ الآن بالذهـاب أدبر رزقي. والسلام...

صفقـت الجماعة واسـعا لخطبـة زيد، تفانى بويـا عمر في تحياته العسـكرية، صاحـت عفاف: أعباد الله، هـذا الولد راه قاري؛ سـألته نعيمة عن مسـتواه الدراسـي، فأجاب: باكالوريا ناقـص اثنين؛ وفجأة طالب بالصمت، بعد أن رنّ جرس الباب وتبعتـه رنات هواتـف، فرفع أنفه مشـتما الهواء ثـم أعلن: لا،

مش السيدة المديرة... وعلى ذكر سيدة المقام وبهجة الأيام، واش بقى لها نصيبها من هذا الكوكتيل الحلال، أو قولي يا لالة عفاف راها ما تعرف خبر من أهل هذي الدار...

انقطع جرس الباب. أنهت النائبة ردودها على الهواتف. أراد زيد الإنصراف، سلمته نعمى كيسا مليئا بما تبقى من الحلويات والمرطبات وقالت: هذا نصيب أمك... وطمأنت العون على نيل نصيبه؛ وفيما المنصرف على عتبة الخروج، سألته نعيمة: شاب مثلك متعلم وقاري وتعرف معنى بيت لحم، علاش ما وجدت لك خدمة أحسن من خدمتك؟ فأجاب منصرفا: وما حبُّ الديارِ شغلنَ قلبي / ولكن حبُّ من سكنَ الديارا... تبعته السائلة طالبة التفسير والإيضاح، فردّ عليها وهو ينزل الدرج: أُرْ الحُبْ لـمْكان أيْ يشغل لقلبنُو/ أتِ حُبْ وِلي يْسْكِنْ لمكان... قالت له: أش هذْ الشّرابيا؟ أجاب: نوكومنت، والزيادة من راس الأحمق... أما الست النائبة فأخذت تعلن نهاية الحفل وتأمر بمحو آثاره والآنستين بالانكباب على عملهن والعونَ بسخرتين، ثم نادت من مكتبها على رئيستها تنبئها بحسن الأحوال وإنهاء كشوفات مالية وأخرى تمخضت عن إبرام عقود أو فسخها، علاوة على ارتفاع نسبيّ في رقم أعمال الوكالة.

مددت أسـماء غيبتهـا عن الوكالـة يوما آخر. فـي صبيحته اصطحبـت معها فـي سـيارتها الثانويـة صديقتيهـا، مجلببتين مثلها إلى بادية الصخيرات جنوب الرباط، والغاية أن تتفاوض مـع مالك خمسـة هكتـارات نصحهـا هاتفيا الحـاج النصري بشـرائها لكون التوسع السـكني سيطالها في مسـتقبل منظور. وبعد مسـاومة عسيرة مع المالك، وبفضل مساعدة الصديقتين وكلماتهما العسـلية الإغرائية، تـم الاتفاق على الثمن فالتوقيع علـى العقد في مكتب عدل محلف، كما يجري به الشـرع في المدن الصغرى والبوادي.

أما الغاية الأخرى، فهي قضاء أوقات اسـتراحة واستجمام - والصيف يلامس نهايته - في ضيعة صغيرة يخدمها زوجان، لهما سـت بنات، تزوجت منهـن الكبيرتان، وظلت الأخريات بعد فراغهن من المدرسة تساعدن الأم في البيت والمطبخ.

عند الوصـول، هبت الأسـرة بقضها وقضيضها لاسـتقبال الضيفـات بالتهليـل والترحـاب والزغاريـد. أحاطـت الأم، إسـمها خدوج ولقبها أم خالد، وكذلك بناتها بأسماء، يعانقنها ويقبلنها بكثير من العطف والتحنان، والأب (أبو خالد) يشملها

ورفيقتيها بنظرات ود يشوبها حزنٌ واكتئاب شديدان. فتحت الضيفة صندوق سيارتها، فتعاونت الفتيات على إخراج ما فيه من هدايا كثيرة متنوعة، وتفحّصنها فرحاتٍ شاكرات، والأم لا تفتر عن الدعاء للسيدة السخية الكريمة.

دعت أسماء راضية ونجلاء إلى بيك-نيك تحت ظل شجرة وارفة غناء نعتتها، فسارعت المضيفة إلى فرش الظل بالحصائر والزرابي، والبنات يتسابقن في الإتيان بالصحون والأباريق والكؤوس والِجرار المليئة بشتى أنواع المأكل والمشرب. تفتحت شهية الصديقات للوجبات المعروضة من ملوي وبغرير وقديد وسمن وعسل وأجبان وألبان طرية طبيعية، تشجعهنّ خدوج وإشاراتُ الزوجِ عن بعد، وكذلك هبّاتُ الهواء النقيّةِ المنعشة؛ كما تفتحت شهيتهنّ للكلام الصادق في مدح البوادي وعاداتها المطبخية وفنونها العريقة في الرقص والغناء والأهازيج. صاحت راضية وهي تتنفس الهواء ملء صدرها وتقتات وتشرب: كل شيء هنا طبيعي وصحيّ!... وبعد الشبع والارتواء سألت الرفيقات أمّ خالد عن وصفات إعداد هذي الأكلة وتلك، فشفت غليلهن ثم دعتهن إلى الاسترخاء والغفوة، وكذلك كان؛ وحتى قطيع الغنم والأبقار والحيوانات الأليفة سكن وأخذ قسطه من القيلولة.

حيـن فتحـت أسـماء عينيهـا رأت صديقتيهـا تنامـان نوما هادئـا لا لبـس فيـه. أمهلتهمـا وقتا إضافيـا أمضته فـي ملاعبة البنـت الصغرى ودغدغتهـا، ثم أخذت تنحنـح وتغني: أفيقوا يـا النعّاسـة، راه الليل قريب؛ ولـم تحقق اسـتيقاظهما إلا بعد أن ناوشـت بالحجارة كلبين فنبحا كثيرا؛ اسـتوت راضية وهي تسـأل: أيـن أنا؟ وتبعتها نجـلاء مؤكدة أنها لم تعـرف منذ مدة نوما أصفى من نومها هنا وأحلى...

أتـت أم خالـد وبناتهـا بالشـاي والقهـوة وحـلاوي مـن صنعهن، فشربن واقتتن مسرعات، استعدادا للعودة إلى الرباط فـي ضوء بقية النهار. بـادرت الأم وبناتها إلى شـحن صندوق السيارة بسلل البيض والخضر والفواكه والأجبان، إلا الدجاج اعتذرت السـتات عـن أخذه. اختلت الضيفـة بمضيفتها بعض الوقـت ثـم توجهت إلـى الـزوج بـكلام، وأخيـرا كان الوداع بالعناق والتقبيل، وأسماء توصي البنات بالدراسة، وهنَّ والأم يترجينهـا أن لا تطيل الغيبة هي واللتان معها، فيما الرجل، وقد بـدا أحـزن من غراب، يسـلم بإشـارات بطيئة من يـده ويخطو متثاقلا هاشّا على قطيعه. وكانت آخر كلمة هي من راضية إلى الأم: أشوف عجلين وبقرتين، فين الثور؟ أجابت المستفسرة: الثـور ما فيـه فايدة، إلا واحـدة، من حيث نحتاجُـه يولَّد البقرة ناخذُه من عند الجيران بالفلوس أو بلاش... فأطلقت السـائلة قهقهة صاخبة، ما فتئت أن انتقلت عدواها إلى صديقتيها...

أثناء العـودة، كانت راضية ونجلاء في حالة حبور وافتتان، يكـرران ضاحكتيـن جـواب أم خالـد «الثور ما فيـه فايدة، إلا واحدة»؛ ثم ينشـدان مع اسـمهان المنبعـث صوتُها من قرص محبب لدى أسماء:

دَخلـتِ مـرة فـي جنينـة   أشـمّ ريحـةِ الزهـور

ومنّـي نفسـي العليلـة   واسـمعْ نشـيدِ الطيـور...

شكرتا للقابضة على المِقْوَد هذا البيك-نيك الرائعَ الممتع. اقترحت راضية أن تكون حوله جلسة خاصة للكلام في بعض مظاهـره وصفاته، أيدتهـا نجلاء واقترحت لهـا مطعم لامارينا على ضفة أبي رقراق وقت العشاء، ومن دون أن يغيرن لباسهن التقليدي. وافقت أسـماء قائلة: وعلاش لاّ؟ صوتي ما يعاكس صوتين، وفرحة اليوم لا نؤخرها لبعدين...

حول طاولة منزوية في فضاء للمدخنين ذي أضواء خفيضة وجو رومانسـي رقيق، جلست الصديقات، فرحاتٍ منتشيات. أجـرت كل واحـدة مكالمـات هاتفيـة قصـد التفرغ لمـا يردن الحديث فيه؛ وبعد أن اخترن وجباتهن، سارعت نجلاء للتعبير عن ابتهاجها بهذا البيك-نيك العروبي المعتبر، الذي لم تعش مثيله من قبل. لكنّ أسـئلة محيرة راودتها خلاله ما زالت عالقة بذهنهـا وتطلب أجوبـة، منها: تتلقب المـرأة المضيفة أم خالد وزوجهـا لـه أيضا نفس اللقـب، فمن يكون خالد هـذا؟ ومنها هـذا الزوج الـذي لم تر رجلا أحـزن منه إلا في بعـض المآتم

والأتـراح الصادمة المفجعة. وختمت بأنها تكتفي بهذا القدر، وهو الهام الأهم.

مدت أسماء كفها لراضية وقالت:

- الأجوبـة الشـافية عند هـذي العرافة الماهـرة. خلّيها في الأول تكمل نشوة تدخينها وشربها، وبعدها تقول لك...

تجردت المسـؤولة للكلام، منبهة أنها حدسـت أشـياء ولا حاجة الآن لأن تنظر في كف أو فنجان قهوة، وأوضحت:

- فـي بلدان مشـرقية أقمـت فيها مـدّة زي نجـلاء، يتلقب الأزواج بأسماء ذريتهم، ومن ثم أبو كذا وأم كيت. وهذا دليل على أنّو الأسرة اللي كنا عندها عربية الأرومة والأصل...

هتفت أسماء مصادقة:

- صـح! اسـم الأسـرة ريـاح من قبائـل بني هـلال، هذا ما أخبروني به من قبل.

استأنفت راضية استطلاعها:

- وخالد قد يكون الابن الأصغر، وُلد بعد سيل من الإناث ثمرة مرجوة وقرة عين الأب وحتى الأم.

سألت نجلاء متشوقة وقد فرغت من الأكل:

- ومن بعد يا راضية، من بعد؟

- اتركينـي يـا حبيبتـي أقتـات شـوية، مثـل ما فعلـتِ أنت والست أسماء اللي تعلم في القصة كل شيء...

ساد صمت بين الثلاثي، لا يمازجه سوى طنين أدوات الأكل وأصداء زبائن المطعم وموسيقى ناعمةٍ خافتة. وبعد أن أفرغت راضية كأس نبيذها السابع، مبررة شهيتها الخمرية بكونها تشرب أيضا نصيب صديقتيها المكتفيتين بالماء المعدني وعصير الفواكه. عاودت نجلاء إصرارها على سؤالها، فأشعلت المطلوبة سيجارة وطفقت تتأمل دخانها الرقيقَ الحلزونيَ الصعود. قالت:

- الصبيّ خالد، اللي يرجّح عندي أنّو مات، هو سبب حزن أبيه المفجوع. أش رأيك يا ستي أسماء؟ شوفي: أحسن لك تجاوبيني بنعم أو لا... الضيعة ضيعتك والزوجان في خدمتك؟

- نعم...

- هداياك لأسرة رياح شيء مقبول، لكن انفرادك بأم خالد كان لدفع مال لها؟

قاطعت نجلاء السائلة غاضبة:

- هذا استنطاق بوليسي يا راضية! باسطا، كفاية!

- لا (ردت أسماء)، خلّيها تكمل تاويلها...

- اسمعيني إذن وافهمي مرادي... كل واحدة منا تعرف بعض أسرار الأخرى مش كلها. وأنا حرة وأنت حرة ونجلاء مثلنا، وعلى رأي المثل: صدور الأحرار قبور الأسرار... كرمك مع أسرة رياح، جزاك الله، يشبه دفع ديّة. احكي الآن

عـن موت الولد خالد والمتسـبب فيه من دون عمـد أو نية في القتل. احْكي اللي ما يظهر في خطوط كفك... احْكي...

كفّت أسـماء عـن الأكل. احمرت عيناها من حـر التأثر بل دمعتا، فنهت نجلاء الآمرة الملحاحة عن اسـتفزازها وتعنتها، قالت بقصد أن تلقم فمها الحجر:

- لـو خدمـتِ يـا راضية فـي مصالـح البوليس السـري أو المخابـرات، لنجحـتِ فـي الخدمـة وسـطع نجمـك داخـل الحدود وخارجها...

- حرام عليك يا حبيبتي! على شان أسماء أسامحك وأنسى كلامك السـخيف... وإذا فضلتْ الرايسة، نقف عند هذا الحد ونغلق الملف بالمرة...

مدت أسـماء كفها إلى راضية، كناية عـن رغبتها في متابعة القصة إلى نهايتها، لكنها فوجئت بصاحبتها تقول:

- لا كف ولا فنجان. العيون نوافذ النفوس. بصيّ في عينيَّ أخبـرك باللـي أراه... مـش أنتِ صاحبـة الفعلـة. الرجل اللي كان معك في السـيارة، ويجوز يكـون زوجك الأول، هو اللي دهـس الطفل خالـد بقوة على جانـب طريق مـا كان فيه وقتها ناس ولا سـيارات، وتابع انطلاقتو حتى لا يقع بين أيدي قبيلة الطفل أو الشـرطة، فتثبت إدانتُه بالسـياقة في حالة من السـكر والسـرعة مفرطة... ويوم قررتِ تبليغ البوليس عنو جاءك خبر

موتو في حادثة سير مروعة، فطويت الصفحة وما فيها، وحسنا فعلتِ... هذا كل ما في جعبتي، والله أعلم... والآن نغير الموضوع ونستحلي هذا الجو الرومانسي وهذي الموسيقى المنسابة في وجداننا بالدفء والرقّة...

في لحظات إصاخة السمع للمقاطع الموسيقية، خالج أسماء إحساس أن لراضية موهبة العرافة أو على الأقل حاسة سادسة تساعدها على قوة الرؤية في الوقائع ونسج ماضيها بحاضرها والتنبؤ - ربما - بالآتي كُلاًّ أو بعضا... أما راضية فكانت تتردد في الجهر بسر من شأنه لو فعلت أن يجهز على تلك الموهبة المنسوبة إليها ويقوضها تماما، لكنها آثرت تأجيل ذلك إلى فرصة أوضح وأنسب...

رنَّ هاتف أسماء، تذرعت بسوء التقاط الصوت، هرعت إلى الخارج، كان المنادي الحاج النصري. رحبت به أيما ترحيب وأجابته متحمسة بكلمات تفيد أنها ستنتظر على أحرَّ من الجمر موعد لقائهما منتصف هذي الليلة. في التو تلفتت لعفاف، أخبرتها بالأمر وترجتها أن تقوم بما عليها، ثم رجعت إلى صديقتيها بوجه منشرح بشوش تخبرهما أن حالة زوجها الصحية تسوء. علقت نجلاء أن في وفاة المريض خلاصا له ولها، وأنبأتها راضية أنها ستستقدم السائق، واستعجلتها بلهجة ملتبسة في اللحاق ببيتها حالا لتعاين زوجا ربما يُحتضر، وقد يسْلم الروح قبل أن تبادله كلمات أخيرة...

كان أمـام أسـماء سـاعتان قبـل الموعـد. أمضـت وقتا في سـيارتها تعيد مشـاهدة الرباط ليـلا، بمآثرها البـارزة المضاءة وشـوارعها وسـاحاتها التي يظـل بعضها يحفـل بدبيب الحياة وشتى أنواع التجارات حتى الهزيع المتوسط من الليل... ولما لم يبق للموعد سـوى سـاعة، قصـدت الوكالة حيث سـلمت لعفـاف مفتاح سـيارتها وودعتها شـاكرة، ثم حسـنت هندامها وجددت أمام المرآة ماكياجها وتعطرها...

-١٥-

ليلةُ استقبال أسماء لحاميها ووليِّ نعمتها وعابدها بعد الله، الحاج مروان النصري، كانت كسابقاتها في ما يسميانه «عشنا العشقي»، وهو في مكتب الست عبارة عن شُقيقة محجوبة بخزانة متحركة خلف ستائر زرقاء كثيفة، لا يعلم بوجودها أحد سوى عفاف القيّمة عليها حصريا. وهذا العش السرّي مجهز بكل الضروريات الرفيعةِ المرموقة، وأبرز ما فيه سرير فاخر تعلو مقدمته مرآة حائطية كبيرة، تعكس الأضواءَ الخفيضة وبعض الأثاث ولوحاتٍ زيتية يُصور بعضها إناثا حسناوات متسترات.

كان الحاج من قبل يرتاد العشَّ العشقيَّ الآمنَ مرة كل شهر أو مرتين، يأتيه متخفيا بسلهام قاتم يغطي قُبُّهُ جبهتَه ورأسَه كاملين، مثله مثل خارج من حمّام بلديّ عمومي. وحين كثرت أعماله وأسفاره وغلب عليه التعب منذ الشهور الأواخر، قلّت زياراته وتباعدت، لكن الست ظلت، كما من قبل، تستقبله في الأحضان بوجه بشوشٍ بسّام وجسمٍ فاتنٍ ريان، لا تماحكه في شيء ولا تعاتبه، بل تدنو منه علىً الأريكة وتسقيه من المرطبات ما يلذ وينعش ؛ لا مقبلات ولا مأكل، بل قبلات حارة ومداعبات وملامسات شهوانية ممتعة، حتى إذا هاج

بهما الشوق تمددا على السرير الفاخر؛ فمرة جماع ومراتٍ اكتفاءٌ بذلك متبوعا بعمليات دلك يتلقاها الحاج من معشوقته وهو في أوج الهناءة والاسترخاء.

في لقاء هذي الليلة، بدا الرجل مهموما على غير عادته أو أكثر من اللازم، ومترددا في البوح لأسماء بسر أو مفاتحتها في شيء ينوء به صدره ويعكر صفو خاطره. اغتنمت الست استواءه على كرسي عالٍ متحرك وقعودها بين رجليه الممدودتين، تقلّم أظافره وتبردها، فاستفسرته في الأمر على نحو ليّنٍ غيرِ مباشر. لم يبطئ - وهو يداعب شعرها - في مناجاتها بصوت متهدج، معربا عن اطمئنانه وهدوئه حيال الشيخوخة التي يتورط فيها ويغوص سنةً بعد أخرى بل شهرا بعد شهر، كما حيال الموت الذي كل نفس ذائقته، ولو أنه يتمناه خفيفا لطيفا أو على حين غرة، بلا مرض عضال يطول أمده ويُعيي الفراش أو آلام تسكِّنها مؤقتا جرعات المورفين...

رفعت أسماء عينيها الدامعتين إليه وسألته عما يقلقه إذن.

ليس تآكل أملاكه ورأس ماله (أجاب)، بل خيبة أمله في بنته التي فشلت في دراستها وتزوجت بعاطل كسول في مراكش تنفق عليه من مال أبيها؛ وأفدح من ذلك هجرة ابنه البكر إلى كندا حيت تزوج وتجنّس، وكان تعويله عليه كبيرا في تنمية ثروته وتجديد طرق استثمارها. وباح بلهجة مريرة: ما فيش أقسى على قلب أب ولا أضعط من ذرية يصدر عنها العقوق أو العجب العجاب!

بـدا لأسـماء أن تواسـيه بدعوته إلـى عقد الأمل علـى ابنه الأصغر، لكنها امتنعت لكونه لم يذكره بعد.

استرسل الرجل في التعبير عن همومه، فتحدث عن زوجته العجـوز التي لم يعد لهـا جهد ولا قوة إلا للذهـاب مرتين في السـنة إلـى العمـرة طلبـا للطمأنينة والراحـة أو عسـاها تتوفى وتدفـن في الديار المقدسـة. أما أخواته الثـلاث فكلهن يطلبن رعايته ومسـاعدته، فلا يمتنع ولا يبخل. وذكر بعض الشـركاء الذين غشّوه أو سطوا على نُصبه في عمليات تجارية وعقارية، واغتنـوا بنهب مقالع الرمال والصيـد في أعالي البحار، فأوكل أمرهـم إلـى اللـه ﴿وهـو المولى ونعـم الوكيـل﴾، ومنهم من أفلسوا وكسدت تجارتهم، وبئس المصير!

خطر للسـت استفسـاره عن زوجته وأخواته إن كنّ تعلمن بعلاقتهمـا، لكنهـا أحجمـت. وكأنـه قـرأ سـؤالها فـي عينيها الرطبتيـن اللامعتيـن، فذكـر أن لا أحد عدا عفاف يعرف شـيئا عمـا بينهمـا، لكن الله أعلم. وكان هـذا مدخلا لإبلاغها بقرار اتخـذه حمايـةً لهـا مـن غوائـل الزمـان ومطامع الصقـور من الورثة، قال:

- حبيبتـي أسـماء، ذكـرت لك بعـض هموميـ، وغرضي إشـعارك بهرمي وتعبـي. ذقت من هذي الدنيـا مرها وحلوها، والآن خـلاص، صـرت أنفـض يـديّ منهـا وأحسـب كل يوم جديـد أتنفس فيـه زيادة من فضـل الله... زوجتي أيام شـبابها كانـت سـندي وعين متعتي، وبعدما شـاخت ظهـرتِ أنتِ في

حياتي هبة ربانية وجدت فيها جمال الصورة وحسن الخلق. لو كنتِ أرملة لعرضت عليك الزواج حتى تكوني من بين الورثة الشرعيين، لكن ما دام زوجك في عنقك، الأحسن أبيعك الوكالة وفيلا مؤثثة في حي السويسي، ونتخلص من احتمال القيل والقال وشر ما خلق من الورثة. ابني الأكبر ينتظر خبر موتي ليحضر جنازتي ويرسّم حصته من الإرث ثم يعود إلى كندا على جناح السرعة؛ وكذلك الأمر عند أخيه وأخته.

كانت الست أثناء اعترافات الحاج تشهق بالبكاء وتدعو له بالصحة وطول العمر، وحين سمعت عرضه الأخير ساءلتهُ فزعة:

- ومنين مولاي آتي بثمن الشراء!

- من لطفك يا أسماء، من حنانك عليّ. محاسنك ما لها ثمن! يكفي توقّعي العقود والبقية بيني وبيم الموثق، وكيفية الأداء أطلعك عليها في حينها.

استقامت الست وصاحبت وليّ نعمتها إلى الأريكة. جلسا جنبا لجنب. وضع الحاج حقيبته على المائدة، أخرج منها نسخ عقود مبسملا، قرأ بعض بنود العقدين الأصليين ثم نعت لجليسته خانات التوقيع، فاستجابت وهي تبكي من شدة الانفعال والفرح وتردد: هذا كثير عليّ، يا حبيبي! وتغدق على المحسن إليها أدعية تلو أخرى، وهو يقول متحننا:

- آمين! من فمك إلى السماء... آمين... ما في الحقيبة من مال وزعيه بين حسابين أو أكثر، واتركي تسجيل هكتارات

الصخيرات وتحفيظها في اسمك... المثل يقول: رُبَّ أخ لم تلده أمك، وأنا أقول: ربّ وريث مستحِق لم يخرج من صلبك، وانـتِ يا قرة عيني هذا الوريث... خير النـاس من نفع الناس، وأنتِ خير من عرفت، لكِ ما أعطيت، ويحق لك أكثر...

عجزت أسماء عن الكلام، فضمت جليسها إليها وأخذت تقبل رأسه وجبهته وحنكيه وشفتيه ويديه، وهو يتملاها مبتسما، مبتهجا لفرحها العارم. أسرَّ في أذنها أن الفيلا يحرسها رجل أمين وكلبان بوليسيان. سلم لها مفاتيحها لكي تزورها وأوصاها أن تتأنى في الإيواء إليها ريثما تتم إجراءات التمليك وتحدث مستجدات. أبدت من جهتها علامات السمع والرضى ثم استأذنته في سؤال فأذن، ترددت قليلا وقالت:

- ابنك الأصغر، ما كلمتني عنّو؟

- الكلام فيه (أجاب) يلزمُه جلسة خاصة، لكن ما دام خلقتِ الفرصة وفيه شوية وقت أذكرك بما قلتُ من قبل: ما فيش أقسى على قلب أب ولا أضغط من ذرية يصدر عنها العقوق أو العجب العجاب... وهذا الابن يجمع ما بين السيئتين. والثانية، والعياذ بالله، أفدح من الأولى. بسببها اصابتني من قبل أزمة قلبية عاينت فيها الموت:

- وهذي السيئة، إيش هي، يبعد الشر؟

- وأريدك أنت في إزالتها عنُّو...

- طلبك أمر، يا سيد الرجال...

تردد قليلا وقال وقد احمرت عيناه وترمد وجهه:

- أريدك ترجِّليه... تردّيه رجلْ.

- وهو غير هذا؟

- أنت فطنة ولبيبة، وفهمتني مزيان... جمال سنُّه يقرب من خمس وثلاثين سنة، لا خطيبة ولا حتى صاحبة. ولما يسمع مني أو من أمُّه بعض الكلام عن الزواج يجفل ويتقزز. ملّكتُه فيلا صغيرة ووفرت لو حاجياتو وراتبو وزيادة. يكره الشغل ويدعي أنو يكمل الدراسة بالمراسلة وأشيا أخرى ما فيش حاجة لذكرها... هذي بطاقة فيها عنوانُه وهاتفُه... أنتِ ما يرضيك يشاع عني العجب العجاب خرج من صلبي! أرجوك تفعلي ما في جهدك. توفقتِ أجركِ عند الله؛ فشلتِ أكون أنا حاولت ومنو يئست...

نظر الحاج في ساعته. انتفض واقفا. ضم أسماء إليه، وبين قبلة وأخرى ترجاها همسا: رجّليه رجّليه! ثم طمأنها على انصرافه سالما إلى سيارته في مرأب محروس، وودعها بشوق وحرارة.

كانت الساعةُ الثانيةَ ليلا. خبأت أسماء الحقيبة في مكان آمن. قضت وقتا في الاغتسال والتنظيف، ولما ارتدت منامتها وتمددت على السرير، حال شريط جلستها مع الحاج النصري دون أن تذوق للنوم طعما، وظلت كذلك حتى مطلع الصبح.

عندئذ أخذت تتأهب لمغادرة العشّ العشقي واللحاق بمكتبها قبل قدوم الموظفين.

أول المقبلين عليها هي عفاف بصحن فطور وفنجان قهوة اكسبريسو وعصير ليمون خالص. لم تسألها عن شيء، والست اكتفت بإطلاعها على حكاية جمال واستشارتها في الأمر، فاندهشت لكون نائبتها هونته واستسهلته، قالت:

- لو كنت مثلك جميلة وجذابة لأرْضيت الحاج وحاولت إرجاع الشاب إلى الطريق المستقيم، ولو أن المحاولة مصيرها معروف...

قوست أسماء حاجبيها استغرابا، فاستأنفت جليستها كلامها:

- نعم، مصيرها الفشل. حتى أمهر الأطباء ما يقدر فعل شيء. إنما المحاولة ضرورية عشان خاطر الحاج... هاتي بطاقة الشاب المنحرف، وأنا آتيك بكل المعلومات المفيدة عنو، وبعدها قومي بما عليك، والله يستر وييسر.

في الخارج، أخذ ضجيج السيارات والمارة يغشى الشارع والأزقة المتفرعة عنه، يعلوه في أوقات معلومة هدير القطارات الواصلة إلى المحطة وسط المدينة أو المنطلقة منها. زيد في هذه المعمعة اليومية المتصاعدة يذرع كعادته قطاعه جيئة وذهابا، لكن خطواته لا تخلو من نرفزة واستنفار، وإذا توقف لحظات فلكي يلحظ قلِقا غياب سيارة الست المديرة، أو ليبعث إشارات تحية وتودد لفتاة الواجهة الزجاجية في الزنقة المقابلة. وهو في هذه الحالة لم يقو على تهدئة غليانه الداخلي، فنفخ صدره واستجمع همته وجراءته وقصد ربة المخزن النسائي وخاطبها على عتبته: نيتي أمولاتي صافية وسعيي شريف، طلبي أن أخطب هذي البنت وأتزوجها على سنة الله ورسوله... فما كان من المرأة إلا أن تناولت مكنسة ولاحقته مهددة وهي ترغد وتزبد قائلة: واش قالوا لك أنا قوادة يا ولد الكلبة!... لم يجد زيد بدا من الهرب مجريا بعض المراوغات والتمويهات، أفضت به إلى العمارة حيث وكالة المرابحة، فصعد إلى طابقها الأخير للإختفاء واسترداد أنفاسه. وحين اطمأن إلى وضعه بدا له أن ينزل ويعرج على الوكالة، مغتنما غياب مديرتها ومتعللا بشيء يريد قوله للنسوة.

بعـد تـردد قرع البـاب. اسـتقبله بويـا عمر بتحية عسـكرية وصـاح باسـمه مرتين. أقبلـت عليه نعمـى ونعيمـة مرحبتين. لحقت بهما عفاف وسألته عن سبب الزيارة، أجاب بعد أن مدَّ يديه على المبسط:

- السبب، يا حبايبي، خبر وطلب...

قاطعته عفاف:

- حبايبي! ... إلزم حدّك يا الزايد...

لكن الفتاتين ظلتا علـى حالهما من الفرح بوجوده. علقت نعمى مبتسمة:

- الست عفاف تمزح معك، ثم تذكّر يوم ضربناك ما غنيت أنـتَ على لسـان المرحومة أم كلثوم: جـرحُ الأحبةِ عندي غيرُ ذِي ألـمِ...

أبدت نعيمة إشارات تأييد وتشجيع، فتابع الزائر كلامه:

- الخبـر أن الوالدة فرحت فرحة كبيرة بحلويات الكوكتيل اللـي حملتهـا لبيتنا، ودعـت لكل واحـدة بالنجـاح والفلاح. اكلتْ منها شوية والبقية اهدتها لبنت مسكينة في يوم عرسها.

وتأوهت الستات مشفقات:

- مسكينة! وفي يوم عرسها!... إذن كلنا لنا أجر...

- أمـا الطلب يـا لاالياتي، باغـي لالة عفـاف، ومعها نعيمة ونعمى، تخطب لي للزواج مسـكينة اخـرى، وجدتها على قد يدي وجيبي، تعمل في مخزن نسواني قريب من هنا.

أجابت عفاف لختم اللقاء:

- شـوف يا الناطق بالميزان والمعنـى، إذا احيانا الله وبقينا غدا، نعاود الكلام في هذي الخطبة...

- مـا قلتِ عيب يا زينـة الهدرة... يصبح ويفتح، واللي نيتُه حسنة لا بدّ يفلح.

صاح بويا عمر مؤديا التحية العسكرية: هذي كاينة! ثم عاد إلى قعوده وغفوته.

ترجـت نعيمة ونعمـى زيد أن يحكي نكتـة ويغنيَ زجلا أو ما شايه.

استجاب المطلوب مطاوعا:

- هـذي فاسـية فـي حمّام، سـوّلت عروبية جالسـة جنبها: نسـيت يـا خِيتـي المخلـي ذْ الصابون. سـلْفني صابونـك الله يجازيك. جاوبتها العروبية: يا لالة يلعنْ دين مِّي ما عندي.

انفجـر الثلاثي ضحكا وسـألت نعمى عن تعليق الفاسـية، أجـاب الحاكي: قالت لِها: نوضي دركـي عليّ وجهك يا اللي ما عندك ملّة ولا صابون...

وأردف زيد:

- أما الغنا غير شـوية من كلام ناس الغيوان[1]... إذا غنيتُ يوْصل للجيران ويفيّق النعسان.

اضطربت عفاف للكلمة الأخيرة، وقالت آمرة:

- قـل بعضو بـلا تلحين ولا غنـا، راحنا هنا عندنا الشـغل والخدمة.

- مـا قلـتِ عيب يا زينـة الهدرة! هـا مقطع صغير يناسـب المقام، ومن بعدو السلام السلام:

أنا كيفْ نْسيرْ... في ليلي نغنِّي
نتفكَّرْ أَلْخيْر واللّي كْرَمْني
يـبانـو آحْـبابـي بـيـنْ عينيّا
من نغمَة لْ نغمة... نْعيشْ وُنْغَنّي
وُنـجْـمـعْ هْبالي بينْ عَيْنيّا
نْـــرمـــي لْـــحـــزانْ...
نَـطْـفِـي لْهيبْ الـجَـرْحَـة...
نْهيمْ فْ وادْ الفرحة ونْغَنّي...

توقف المنشـد فجأة، رفع أنفه عاليا يشـتم ملء خيشـوميه، ثـم جـاز البـاب مسـرعا. حاولـت عفـاف إعـادة الوضـع إلى نصابـه والهيبة إلى الوكالة، لكنها عجـزت بفعل انتقال عدوى

(١) فرقة غنائية مغربية.

ضحـكات زميلتيها إليهـا، فواحدة عددت أصنافـا من الأثاث لاختيـار هديـة للعريسـين، والثانيـة أطلقت زغاريد اسـتعدادا لدورها في العـرس كنـگـافة، وكلتاهما أوصت عفاف بإجراء المسـاعي الحميـدة لدي مشـغلة البنـت المسـكينة؛ وفي هذا الجو المرحِ الضّاج كانت الآنسـتان ترقنان وتستنسخان عقودا ووثائـق، والنائبـة ترد على مكالمات وتجـري أخرى. وبعدها أعلنـت نعيمة أنها أنهـت عملها لهذا اليوم (والسـاعة الواحدة زولا)، واسـتأذنت فـي الانصراف لقضاء أغراض مسـتعجلة، فاسـتجابت لهـا عفـاف فـورا وأفـادت صاحبتهـا مـن ذلـك، فخرجتا شـاكرتين هاتفتين: مسكين تزوج مسـكينة وارتاحت المدينة... عقبى لنا...

بعيد وقت وجيز تلقى بويا عمر من رئيسته إشارة المغادرة، وبعدها أقفلت باب الوكالة دونه وسـارعت إلى مكتب السـت أسماء حيث أزاحت الستائر وحركت الحائط المكتبي وفتحت بـاب الغرفـة السـرية، فألفـت رئيسـتها تغـط فـي نـوم عميق. انصرفت إلى المطبخ لتهيئ لها وجبة غداء خفيفة. ولما عادت بها إليها رأتها تتثاءب وتنسـل من فراشـها قائلـة صباح الخير، فردت المخاطبة: بل مسـاء الخير. السـاعة الواحدة والنصف، وهذي وجبة الغداء يا مولاتي!

بعد رجوع الست من مخدع النظافة طاهرةً نضرة، جالست أنيسـتها الوفيـة وحدثتهـا، وهي تقتـات، عما رأته فـي منامها: فيلا ذات صالون فسـيح وغرف ومسـبح وقاعة رياضة وصونا

وحمام بلدي، تستقبل فيها ضيوفا مرموقين وصديقات عزيزات على رأسهن عفاف، وهذه الفيلا أمست ملكها إضافة إلى ضيعة شاسعة نصفها مزرعة ونصفها حدائق ذات أشجار تين وزيتون وفواكهَ كثيرةٍ وورودٍ متنوعة شتى، وكلها مفتوحة لحصاد الأحبة وقطوفهم...

هنأتها جليستها بهذا الحلم العظيمِ الجميل، وتمنت أن يتحقق لها بفضل الله واستحقاقها له، ثم استسمحتها في العودة بها إلى الأرض، فأنبأتها بتنفيذ طلبها في بيع سهوم مناجم ولاسامير وشراء أخرى في حدود الأقصى من أليانس والضحى. أرادت الاسترسال في إبلاغها بما جد في ملفات عقارية ظلت عالقة، لكنها أحجمت عن ذلك إذ رأتها ساهية، لاهية عما سوى رؤياها المنامية والانصراف إلى مدارج حلم اليقظة؛ وكم دهشت لما سمعتها بصوت حازمٍ صافٍ تخبرها بقرارها الاستمرار في مبيتها بغرفتها هاته، لا تغادرها إلا إلى مكتبها وأمكنتها المفضلة في المدينة! وعللت قرارها بكونها ترغب في متابعة حلمها الشيق إلى آخر حلقاته. وحين أخطرتها عفاف فزعةً متلعثمة أن الحاج المختار شدد في مكالمته الهاتفية الأخيرة على أن حالة زوجها الصحية من سيئ إلى أسوأ، رأتها محمرةَ العينين والوجنتين تصرخ في وجهها:

- أنا تعبت من بيت الزوجية، بيت الهم والغم، تعبت من ابن عاق وزوج مريض يهرب منو عزرائيل وربما يقبض روحي قبلو... أكيد فهمتِ: مصاريف الدياليز والأدوية وحاجيات

الابن والشغالة والممرض وحتى الفقيه المختار، كلها على نفقتي. فهمتِ هذا؟

- طبعا فهمت يا خيّرة: فهمت من أول يوم.

ضمت عفاف إليها صديقتها المتألمة الجاهشة بالبكاء، وحاولت مواساتها والتخفيف عنها، فسمعتها تئن وتشكو:

- تعبت يا حبيبتي تعبت! والله حال الشاب زيد أحسن من حالي، فقير لكن دايما نشط ومبشور وفرحان!

- فرج الله قريبْ يا أجمل وأكرم مخلوقة عرفتها، وربنا ما يمكن يهملك أو ينساك... مزيد من الصبر وحلمك يتحقق والخلاص يأتي، لا بد يأتي...

هدأت أسماء ومسحت دمعها وقالت:

- شكرا حبيبتي، كلامك يحسّن مزاجي ويقوّيني... كل شيء متوفر في هذا العش، حتى الموسيقى والأفلام. عندي أشياء يلزمني أفكر فيها وقرارات أتخذها... كوفْر السيارة فيه عولة من البادية. خذي اللي حبيتي واعطي البقية لزيد... الآن عودي لدارك. رقم هاتفك هو وحدو أجاوب عليه أو أكلمك فيه... سيري وما تخافي عليّ...

-١٧-

يومي السبت والأحد تلقت أسماء بالموبايل نداءات كثيرة لم تجب عنها، حتى من راضية ونجلاء. أما عفاف فردت عليها تطمئنها على حالها، وترجتها أن تمسك عن الاتصال بها إلا إذا طرأ ما يلزم الإخبار به، كوفاة أحد من الأقارب والصحاب، أو حادثة مروعة خلفت قتلى وجرحى ممن تعرفهم...

مذ هذي الليلة فصاعدا، ترغب الست بكل حواسها وجوانحها في استحلاء عزلتها المختارة وإيقاف عقارب الزمن وسيله وهياجه.

الوقت معها باتت تريده وقتها الجواني ومِلْكها الخصوصي، تفعل به وفيه ما تشاء وترضى، بعيدا عن أي ضغطٍ أو جريٍ وأي ملفاتٍ أو مواعيد، وهلم جرا.

الوقتُ تريده وقتا للتطهّر من رواسب الأكدار والأحزان، ومن عواقب الأخطاء والخطايا الفادحة (كزواجها مثلا)، ومن ذكرى مضاجعات رديئة أو توهمية...

الوقتُ تريده للالتقاء بالذات ومجالستها مفردةً مجردة، حرةً طليقة، تأكل ما قل متى جاعت؛ تضرب عن الهواجس

والوساوس؛ تفكر كثيرا في من تهوى وتناديه: يا عشيق أختي الميتة... يا الغائب الحاضر (كم تناديه!)، وتنام ملء جفنيها وتستيقظ لاهجة بأحلامها، وتتخيل أخرى صاحيةً على وقع موسيقاها ونبضاتِ قلبها...

الوقتُ تريده وقتا للسعي المتشوق الحثيث إلى الوعي المتقدِ العارم، والترقياتِ الرائقةِ الشائقة. ولن يردعها عن ذلك رادع، ولن يصرفها عنه صارف...



رن الموبايل. إنها عفاف تصبّح وتستأذن في تقديم الفطور. مكنتها أسماء من الدخول، بادلتها العناق وجلست حذاءها تقتات وتحكي لها كيف أمضت الويك-آند بين أوقات التأمل والاسترخاء والنوم واليقظة، أوقات وصفت الخلوة فيها بالخصبةِ والناعمة، أقرت أنها لم تعش مثيلا لها من قبل، وستبقى مستظلة بها كل آخر أسبوع حتى تصفوَ حياتها ويتخلصَ نابلها من حابلها.

أثنت عفاف على اختيار رئيستها، وطمأنتها على سير الوكالة من حسن إلى أحسن، لكنها نبهتها أنها مطلوبة من صديقتيها نجلاء وراضية ومن الحاج المختار المعلن عن نفاد الذخيرة. وهنا أعلنت أسماء أن من بين قراراتها خلال خلوتها إيقافَ الإنفاق على زوج ينبذها ويستعدي ابنها عليها. صاحت: أنا بالتمرة لفمو وهو بالعود لعيني! خلاص، انتهى زمن الغفلة والغباوة. رجل براتب التقاعد يلزمو ينفق على

راسـو... أمـا الصديقات، بعديـن أكلم نجـلاء... وجمال ابن الحاج النصري، آش فعلتِ في شانو؟

- آش فعلـت يـا مولاتي! الشـاب، ويلزمني أقول الشـابة، عرفـت أشـياء عنو. سـاكن في فيلا بحي حسـان مـع صاحبو. ينام الصباح كلو ويسـهر الليل. تعرضت لِه ملثمة بالأمس وهو غادي يركب سيارتو، طلبت منو صدقة لوجه الله. عيرني بكلام نسـواني وإشـارات من قاع الخابية. وختم التعبير وقال: درقي علـيّ وجهك. يخ! التسـول كثر في هذ الزمـان وصار حرفة يا لطيف! إيوا سـيري بحالك وإلا انَّادي على البوليس... هربت يا حبيبتي، قبل ما يصير الكسـكس محمصّـة... أنا في رأيي ما يمكن لك تغيري الشعرة في هذ الشابة، فبالاحرى ترجليها... انسـيْ الموضـوع وادخلـي مكتبك قبل مـا تجي البنـات. هذا يوم الاثنين...

فـي مكتبها، بعـد الاغتسـال وتحسـين هندامها، احتسـت أسـماء قهوتهـا متأملة شـهادة عفاف عن جمـال وموقفها منه. للتلهـي عـن ذلـك، انكبت على سـجلات ومراسـلات ظلت عالقـة، وسّـطتها بمكالمـات هاتفيـة، بعضها ذو طابـع مهني، وبعضهـا لطلـب مواعيد فـي نـادي «الصحة أولا» ثـم لطمأنة صديقتيها على حالها والتعبير عن شوقها إلى لقائهما.

نقرٌ على الباب واستئذان النائبة في الدخول متبوعة بنعمى ونعيمـة محييتين بكلمـات تقدير وامتنان بالغة. ظنت الرايسـة أن الآنسـتين جاءتـا تلتمسـان زيـادة فـي الأجر أو حظـوة ما،

فـإذا بهمـا تتناوبان علـى مطالبة السـيدة المديرة بقبـول تقوية طاقم الوكالة وتعزيزه كما وكيفا بالشـاب المتعلم الخدوم زيد أفرحون، وذلك بتعيينه مرشدا عقاريا ومكلفا ببعض العلاقات الخارجيـة. وهذا المنصب في تبريرهن من شـأنه أن ينقذه من التسـول المقنـع ويصون كرامتـه. وطلبُ التوظيـف هذا الذي قرأت نصَّه عفاف، وأكدت أن الجميع بما فيهم بويا عمر وقعوا عليه، إنما غايته ومرماه إضفاء طابع المرح والتفاؤل على عمل الوكالة، ومن ثم ترقية نشاطها وإنتاجيتها.

استلمت أسـماء نـص الطلـب، ألقت عليـه نظـرة أعقبتها بأخـرى مستفسـرة صـوب عفـاف، فتلقـت منهـا إشـارة تأييد وموافقة. سـألت عـن رأي المرشـح في الأمـر، أجابت نعمى أنـه لم يُعلم به حتى تقبل به حضـرة المديرة، فتكون له مفاجأة سـارة. أطرقت السـت مفكرة ثـم أعطت موافقتها واشـترطت أن تُخضـع بنفسـها زيـد لاختبـار شـفوي، وإذا نجـح أطلعتـه على شـروط أخرى. وحيـن طلبت إحضاره أُبلغـت أنه تغيّب عـن الزنقة الخميس والجمعة الماضيين، ولم يُكشـف لها عن السـبب (الذي هو غياب سـيارتها عن موقفها المعتاد واختفاء البنت المسـكينة التي نوى الزواج بهـا)؛ لكنها أُعلمت أن بويا عمـر يعرف أين يجده وكيف يحضره أمامهـا. ردت آمرة: إذن يصبـح ويفتـح. كل واحدة ترجع إلى عملهـا... وفعلا خرجن في الحال، فرحاتٍ مبشورات.

صباح الغد شاهد بويا عمر، وهو يعود من سخرة، زيد في زنقة موازية يسعف متشردا ساقطا على الأرض يتخبطه الصرع، مرتطمَ الوجه بزجاجة كحول مكسرة بين يديه، ويبادر المسعف إلى وضع قطعة حديدية بين فكيّ فمه، فيتحكم في حركاته الجنونية ويرشه بالماء لتهدئته. هبَّ العون لمساعدة زيد على إنهاض الرجل وتضميد جراحه. وبعد أن تركاه يذهب إلى حال سبيله، عاد الرجلان إلى زنقة بيت لحم حيث أنبأ بويا عمر زيد بترشيحه للعمل في الوكالة، وطلب منه مرافقته إليها حالا. ظل الشاب واجما لا يبدي حراكا ولا فرحا، ثم اكتفى بكلمات تفيد أنه يحتاج إلى مهلة للتفكير. ردد العون هذي الكلمات على الثلاثي النسوي، فكان ذهولهن عظيما، ما لبثت عفاف أن سعت إلى تبديده آمرة بطي صفحة زيد تماما وصاحت: إيوا زدني! حضرتُه يطلب مهلة للتفكير. الفقر والتفرعين! كل واحدة تكمل شغلها قبل ما ترجع المديرة...

في هذه الأثناء كان زيد في مشادة كلامية عنيفة مع فتاة قوية البنية، تكبره طولا وعرضا وعمقا، هو يخبرها أنه حارس السيارات الرسمي في هذه الزنقة، وهي تستدل ببدلتها الجديدة الفلورية وبحقها في تعويض حارس ذي بدلة زرقاء قديمة ما يحرس حاجة، له سوابق مع الشرطة وأرباب سيارات وصاحبة متجر. أراد طردها فدعته إلى فض نزاعهما لا على مرآى الناس وربما البوليس بل في سطح عمارة خال، وبعده تعود الحراسة إلى الغالب، وتحدثه مهددة: إذا انتَ رجل

اتبعني، وبيني وبينك عشـرة مترو... رفعا للتحدي ودفاعا عن رجولته، مثُل زيد في السـطح أمام منافسـته بعد أن تسلل مثلها إليـه عبـر طابقين وبين أبـواب مغلقة. أعلنـت أن الوقت ضيق لا يسـمح سـوى بجولة واحدة سـريعة، الغلبة فيها لمن يخبط الخصم أرضا ويمنعه من الحراك؛ ثم بسملت وعدّدت: اثري، تو، وان، گوو، مشينا...

مسـتهينا بأنوثـة الغريمـة وبدانتهـا، بـادر زيـد إلـى توجيه لكمـات إلـى بطنهـا وجِهـة قلبهـا، وبالغ فـي ذلك وهـو يقفز ويرقص حولها متجنبا أيّ احتكاك جسـدي بها، لكن سـرعان مـا فشـلت خطته ووهـن عزمه لمـا انقضّـت عليه كلبـؤة على فريسـتها، فأسـقطته أرضا على ظهره وثبتته من تحتها لتيئيسـه بثقلها من أي حركة أو فلت. وما إن أحسـت أنها شـددت عليه الخنـاق حتى أمسـى يتنفس بصعوبة، أمرته مقابل تسـريحه أن يقـول لهـا: الزنقة زنقتك مـشِ زنقتي، ولا حارسـة إلا أنتِ... بصوت ضعيف متهدج نفذ أمرها، فرفعت رأسه إليها وعاجلته بضربة رأسـية قويـة على أنفـه أرعفته، ثم نهضـت وقالت قبل الانصراف: هذي هديتي حتى ما تنسـاني... وظل هو منطرحا يسترد أنفاسه ويداري أوجاعه ويمسح نزيفه بمنديله وكُمّيه.

لمـا غـادر السـطح والعمـارة دائخا متعثـرا، لم يـر بدا من الاسـتعانة بمن يسميهم في الوكالة حبايبـي لتلقي إسعافاتهن. وبعـد أن تمكن من تعمية المارة على حالـه وقف مرتبكا على

مدخـل الوكالـة، فهرعـت إليـه الآنسـتان هلعتيـن مذعورتين وتبعتهما النائبة وسؤالهن: مِن اللي فعل بك هذا الشر؟ أجاب وهـو يسـتغفر اللـه في نفسـه: جماعة مـن الصعاليـك هجموا عليّ، سـرقوا فلوسي وهاتفي وهربوا... رفعت عفاف عقيرتها بالدعـاء علـى المعتديـن فيما الآنسـتان تـرددان آميـن: اللهم ذمرهم وشتت شملهم، اللهم كما أسالوا دم هذا المؤمن اليتيم فافرغ عروقهم من دمها حتى تجف، اللهم سلط عليهم الجذام والسل و السيدا والسرطان، وحسبنا الله ونعم الوكيل...

وبعدهـا مدّدن الجريح على زربية قاعة الانتظار، وتنافسـن فـي إيقاف رعفـه بقطَع قطنٍ مبللـة بعطورهن ثـم ضمدن أنفه ونظّفن وجهه ولحيته ورأسـه، فيما هو يجزل لهن آيات الشكر والامتنان. وحين فرغن تركنه يستريح وعدن إلى شغلهن. وما هـي إلا دقائق حتى اسـتأذن في الذهاب، فأقبلـت عليه عفاف بثلاثـة أكيـاس أخرجتها من الثلاجـة وقالت له إنهـا مليئة بزاد مـن البادية تهديـه إليه السـيدة المديرة. نطق بالشـكر متلعثما، وعبـر عن رغبته في العمل بالوكالة منذ غد إن كان حقا مطلوبا لذلـك. أكـدت النائبـة العرض وقبلـت الموعد ثم شـيّعته إلى الباب حيث برز بويا عمر، وقد عاد من سـخرة، فنظر إلى وجه زيد سـائلا عما أصابه. ردّت عفاف أنه تعثر في الدرج لا غير، فشـرع يحكي قصة إغاثة هذا المسكين المصاب لسكير قبضته «لريـاح» في أول الصباح، وفصّل القول فيها بعد أن أغلق دون المنصرفِ الباب...

-١٨-

حين تتغيب الست المديرة عن الوكالة، تخبر عفاف طالبيها أنها في مهمة أو سفر بيزنس، لعلمها أن الثلاثاء وأحيانا الخميس تمضيهما عادةً مع صديقتيها المفضلتين بين نادي الرياضة والاستجمام ومطاعم داخل المدينة أو على الكورنيش. في هذه المرة تلقت أسماء باكرا دعوة من راضية لقضاء اليوم مع نجلاء على شاطئ الصخيرات في إقامتها الصيفية. لبّت الدعوة شاكرةً وقصدت في سيارتها الخاصة الإقامة التي زارتها من قبل. استقبلتها الصديقتان بالعناق والتقبيل وأبلغتاها أنهما كانتا على وشك إجراء حملة بحث عن متغيبة. تسلّمت المضيفة من أسماء باقة ورد ولوحة شوكولاتا وشكرتها على هديتها العطرةِ الحلوة. أخبرت أن زوجها سافر إلى باريس للمشاركة في مؤتمر مهندسين معماريين، وأنها عدلت عن دعوة صديقاتها الأخريات حفاظا على تناغم الطباع وصفاء الجو؛ ومثلت بواحدة ثرثارة، تتكلم ولا تنصت، إذا انقطع سيل لغوها، أبدت علامات الربو وانحباس الأنفاس؛ ثم بأخرى متشاعرة، تتبرج بألمع لباسها وأغلى حِليّها، متعطرةً، مبرقعةَ الوجه بماكياجٍ دسمٍ ثقيل، فتفرض على الجمع سماع كلماتها المقطعة بالفرنسية، وسرعان ما ينفض عنها من حولها،

تاركينها وحدها، مغمضة العينين، تغوص في هذيانها بإشارات يدوية وحركات ردفية. وحين تفتح عينيها تقصد المنسحبات تسألهن رأيهن في شعرها، فتجيب بعضهن ساخرات: فريد من نوعوا! ما فيش مثلو! وترد عليهن متهادية مختالة: مرسي... مرسي...

الجلسة الأولى في صالون فسيح كان حول مائدة مليئة بالحلاوي والمشروبات وشتى أنواع المقبلات، هيأتها خادمتان قالت راضية إنهما من الفيليبين، ولا تتواصلان معهما إلا بالإنجليزية، وعللت تفضيلهما في الخدمة بمشيئة بعلها الذي لا يقبل النقض في هذا الشأن بالذات. واستطردت أنها تعرف أزواجا ذوي زوجات ضعيفات أو زائغات يعتمدون هذا التفضيل لأن لهم فيه مآرب أخرى. ابتسمت الضيفتان واعتذرت المضيفة عن هذا الاستطراد، ثم دعتهما إلى حمّام بحري قبل تكاثر المصطافين.

في مكان منعزل اختاره حارس الفيلا ورتب فيه كل المستلزمات، جلست الصديقات مسرورات، طليْن أجسامهن بالدهون الواقية، تمددن تارة تحت أشعة الشمس الدافئة وتارة تحت المظلة، تشربن قنينات ماء أو مرطبات، وتتبادلن أخبارا متنوعة وحكايات. كان قصب السبق لراضية التي بدأت بسرد نكت وطرائف عن أعضاء في الحكومة المغربية نصف الملتحية، المكتفية في تشكيلتها بامرأة واحدة، مصداقا - كما علّقَ بعض الظرفاء - للآية الكريمة ﴿وإن خفتم أن لا تعدلوا

فواحـدة﴾، واعتبـرت الأمر ليـس مجرد خطأ بـل خطيئة؛ كما أوردت ما جاء على لسان رئيس تلك الحكومة أن في محاربته للفســاد يجد ضــده العفاربت والتماسـيح، فنصحه معارضوه: كـن إذن معهـم تمسـاح الاصـلاح وعفريتـه. تضاحكـت الصديقات بعض الوقت وعدّلن هيئتهن حسـب مدار الشمس في فلك السماء.

ثـم عرجت راضيـة على حالة امـرأة ممن ألغـت دعوتهن اليوم، سـكرت حتـى الثمالـة ذات ليلـة حافلـة، فصاحت في الجمـع: سـيداتي سـادتي، حلـوا إذا قدرتم مشـكلتي: الحياة الدنيا دميمة بائسة، والآخرة لا أومن بها، فماذا أفعل؟ إذا قلتم لي الله عند راس الغريب، فأنا غريبة والله مش عند راسي!... باللـه عليكم أجيبونـي: ماذا أفعل؟ فما كان مـن زوجها إلا أن جذبهـا خلفـه نحو الخارج مـرددا بين الضيـوف: اعذروها... سـامحوها... لا حـرج على الصبـي والأحمق والسـكران... فـي الغـد وقتَ صحوتهـا، ذكّرها الـزوج وهو كاتـب ونحّات بفضيحة إعلان كفرها بالآخرة أمام الملأ، مهددا إياها بالطلاق الثـلاث، فأنكرت تماما تهمته؛ ولمـا ردد كلامها بنصه وفصه، اعترفـت أنها إنما كررت جملا واردة في روايته ليلى والذئب، فأقـر بـه محكيا عـن شـخصية مفترضـة، وحاكـي الكفر ليس بكافـر. عقبت عليـه وهي ترشـف كأسـها الأول: وأنا حكيتُ ما حكيت أنت، إذن نحن معا لسـنا من الكفار... تأسـى الزوج

بكون من سمعوها في الحفل قد لا يبالون بمثل هذه السياقات والتسـويغات، وترجـى أن تغشـى جهالتهم الرعنـاء فضولهم وتنسفه نسفا. ومن يومها حرّم عليها قراءة كتاباته، وتوافقا على الاستمرار في التساكن تحت سقف واحد، لكن كل في فضائه الخاص وعلى شاكلته، تجنبا للمشاحنات والمشادات والقيل والقال ولأبغض الحلال إلى الله.

وختمـت راضية قصة المرأة العربيدة أن رجلها أمسـى عند انفجـار أي أزمـة زوجيـة واشـتدادها يهدد بالطـلاق ثم يرجئه تجنبـا لأي اضطـراب نفسـي يعوقه عن إنجاز كتـاب أو نحت وما شابه، ثم يتراجع عنه لكي يبقى عند حسن ابنتهما المراهقة ونظرا لارتباطه المصلحي مع امرأته ماليا وعقاريا. وكان يحلو للزوجة سـواء فـي حالة صحوها أو في عز سـكراتها أن تجهر لصديقاتهـا المقربـات بانتهـاء الماتـش الزوجي إلـى التعادل الصفـري أي، كمـا تبـثُّ فـي أذن كل واحـدة، إلـى التراضـي الـذي قوامه التغاضـي عن علاقتها مـع السـائق وعلاقة البعل مع الخادمة.

ولْوَلـت المنصتتـان استياءً ونفـورا، وتنادتـا إلـى تطهيـر آذانهما مما سـمعتا، فتسـابقتا إلى ماء البحـر المالح متبوعتين بالراوية. وهنا أكدت أسـماء لصديقتيها ما يعرفانه عن مهارتها الخارقـة فـي السـباحة: فها هي تمخـر الأمواج مخـرا، تركبها وجهـا وظهـرا، تغيـب فيها طويـلا، مثيـرةً رعبهمـا وخوفهما

عليها؛ وكالجنية تبرز بينهما ضاحكة مؤمِّنة، فيتلاعبن بالماء ويتلاطمن به كثيرا. ولـمّا تعبن خرجن للإستراحة وأخذ قسط من سخونة الشمس الساعية إلى كبد السماء. همست راضية وهي تشعل سيجارة: رمزك الفلكي أسماء لا بد يكون سكمة؟ أجابت نجلاء: حتى أنا سمكة، لكني أخاف من البحر وحتى المسبح. لا، أسماء سيرينا، بطلة في العوم، تروض المياه حتى تصبح منها وإليها، كما أنّك يا راضية بطلة في الفروسية، إذا ركبتِ فرسا وركض صرتِ سيِّدتو وآمرتو وهو لك عبد محبّ ومطيع...

وبينا هن يتناجين، انتصب أمامهن مصطاف وسيم، قوي الصدر والعضلات، حيّا بأدب، طلب شعالة لسيجارته وسأل عن الساعة؛ استجابت له أسماء، لكنه أخذ يركِّب جملا بالفرنسية في مغازلتهن وتشوقه إلى محادثهن. تجردت له نجلاء بالنهر الصارخ قائلة: إذا حلّ الثقيلُ بأرض قومٍ/ فما على أهلها إلا الرحيلُ. قوّس الرجل حاجبيه تعبيرا عن عدم الفهم. سألته راضية إن كان مغربيا قال نعم، وهل يتكلم لغة البلاد فأجاب: شوية... كومسي-كومسا، فصاحت ساخطة: الست تقول لك إذهب... ديگاج! فما كان منه إلا أن هرول فزعا من حيث أتى، مفتعلا متابعة عدْوه، سيما وقد رأى الحارس وكلبه البوليسي يقصدان مكان السّتّات. عندئذ دعت المضيفة صديقتيها إلى حمام الدار فتناولِ وجبة غداء في السطح المطل على البحر.

الطاولـة المعـدّة تزخـر بشـتى أنـواع المأكل والمشـرب. الخادمتـان تتناوبـان علـى سـحب كـؤوس وصحـون فارغـة وتعويضهـا بأخرى، وربة الإقامـة تأمرهما بكذا وكيت؛ وفجأة خاطبت إحداهما:

- Kate, remind me of your last anecdote

- I want to marry your daughter...

أوقفتها بإشارة وقالت:

- نكتتهـا: هذا شـاب تقدم لخطبة فتاة من أبيها. سـألو هذا هـل رأيـت أمهـا. جاوبـو الخاطب: نعـم، لكني أفضـل عليها ابنتك...

نـدت عـن الضيفتيـن ابتسـامة خفيفـة، وبعـدذاك حاولت راضية إقناع أسماء بشرب كأس نبيذ على غرار ما فعلت نجلاء فلـم تفلح، وعاودت الكرة بدعوى أن من لم يذق خمر الدنيا، كما يقول بعض العارفين، قد لا يدرك أن خمر أنهار الجنة هي الأرفع والأرقى. وبدا لنجلاء - التي لها نصيب من الثقافة قلما تُظهـره - أن تسـرد بعض رباعيات الخيـام أو أبياتِ أبي نواس المناسـبة، لكنها أحجمت حينما رأت أسماء تتجرع كأس نبيذ بتأنٍّ وتؤدة. وما إن أكملتها حتى قالت راضية ضاحكة: الأولى لإرضائـي، والثانية عشـان خاطر نجلاء، والثالثـة في صحتنا، والرابعة أنا اللي أمنعك منها، لكن في المقابل أشـنف سمعك

وسمعنا كلنا بأغنية كليوباتره، ينشدها محمد عبد الوهاب. هذي تليكومَند، آمرها فتطيع...

وفعلا، غمرت الأغنية المكان، وأخذت راضية بآلتها تعيد مقطعها الأخير وتصاحبه بصوتها الرخيم، مستبدلة فيه كلمة «أسمرَ الجبهةِ» بـ«أبيضَ الجبهةِ»، وهو: يا ضفاف النيلِ، باللهِ ويا خُضْرَ الروّابي/ هل رأيتنَّ على النهرِ فتىً غضَّ الإهابِ/ أسمرَ الجبهةِ كالخمرةِ في النورِ المذابِ/ سابحا في زورقٍ من صنعِ أحلامِ الشبابِ/ إن يكنْ مرَّ وحيّا من بعيدٍ أو قريبٍ/ فصفيهِ وأعيدي وصفهُ فهو حبيبي...

هتفت نجلاء وهي تقبّل أسماء: الكلام لك يا جارة!...

حينئذ انطلق لسان الشاربة وانذلق، فأخبرت أن حكايتها مع عشيق أختها المتوفاة ما زالت تراوح مكانها، ولم يعد يهمها لون جبهته ولا صفاته الأخرى، ثم روت نتفا عن زيد أفرحون، وبعدها أطلعت جليستيها، بشيء من الإسهاب وكثير من التأثر على رؤياها المنامية التي حكتها من قبل لعفاف، فسارعت نجلاء، التي تعرف لمعا من سر قصة صديقتها مع الحاج النصري، إلى تأويل الرؤيا تأويلا حسنا كبشرى خير لا شك سيتحقق، وسايرتها راضية في ذلك بكلمات طيبة ومتمنيات حارة، أتبعتها بسؤال عن أم خالد فأجابت أسماء بوجه منقبض أن المرأة حبلى وزوجها يحرم عليها تناول أقراص منع الحمل إلى أن تلد له ابنا باسم خالد، ولم تنفع معه تهديداتها له بفسخ عقد استغلال أرضها. وحتى لا تستحوذ على الكلام تجنبت

الست الإعلان عن القرار الذي اتخذته في شأن زوجها واستفتاء الصديقتين فيه، كما تكتمت على مكان مبيتها الجديد.

في نهاية الغداء، دعت راضية ضيفتيها إلى الصالون لشرب الشاي أو القهوة ولمفاتحتهما، كما أعلنت، في أمر جدٍّ هامّ. علقتا: «الله يسمعنا الخير»... «الخير كل الخير» أجابت الداعية. ولما استوى مجلسهن شرعت تعرض الموضوع وتفسره، بادئة بمسلّمة مفادها أن حياة كل إنسان تخلّف وراءها حكاية من نسج أيامه وأفعاله، حكاية غالبا ما تكون عادية ومكرورة، فتُطوى ولا تُروى، أو قد تكون استثنائية أو ذات لحظات قوية مميزة، منها الخفي السري، الممتنع عن أي فضوليّ أو نقّاب؛ ومنها ما قد يرغب صاحبها أن يعرفها الغير لكونها جدّ ممتعة أو محمّلة بدلالات شيقةٍ عميقة.

شعرت راضية أنَّ عليها أنْ تُفصح وتوّضّح، فأدلت بمثالها هي، شاهدَتْه نجلاء عيانا ولم تعرف عنه أسماء إلا النزر اليسير، والمتعلق بزوجها الأول الذي كان، قبل موته، يذهب كل يوم أحد - إلا استثناءً - إلى الصيد البحري بصنارة مهنية ولوازمها، مرتديا لباسا مواتيا من رأسه إلى قدميه، ويرجع إلى المنزل مساءً بسلة ضخمة زاخرة بشتى أنواع السمك، ثم يستحم مغنيا تارة وأخرى حامدا الله على نعمه ووفرة الصيد من أحد بحاره. وأقسمت الحاكية أنها لم تعلم بسر شغف زوجها الجنوني بالصيد إلا بمناسبة جنازته، إذ هالها أن سبع

نسـاء لا تعرفهن مطلقا أتين خلال المراسيم يعزينها، وأخذت مـن الأخيرات أرقام هواتفهن بدعـوى رغبتها في البقاء معهن علـى صلة. وبعيد ذكرى اليـوم الثالث أجرت معهن مكالمات لاستفسـارهن عن طبيعة علاقتهـن بالمرحـوم؛ فواحدة تقول إنهـا مجـرد زمالـة، وأخرى تدعي أنهـا علاقة بيزنـس، إلا من ثالثـة اعترفت بكل عفوية وطلاقـة أنها كانت صاحبته، يزورها ساعاتٍ يوم كَلِّ أحد ويكرمها مقابل تمتيعه، كما كان يفعل مع أخريات بالتناوب أيام الآحاد.

أشـارت راضيـة أن الراحـل إلـى جهنـم، الـذي اسـتغباها وخانها طوال سـنتين وزيادة، معاشـرا العاهـرات وعائدا إليها متسـوّقا السمك، قد أمهله الله ولـم يهمله، إذ لقيَ حتفه وحيدا فـي حادثة مروعة، سـقط جرّاءها بسـيارته في هاوية سـحيقة، فتمزق جسـمه وتناثر أشـلاءَ وقطعا، جُمعـت بقياها في كيس بالمجرفة والملقاط.

وأخيـرا وقفـت الحاكية عند حجـر الزاويـة، أي الغاية من سـردها ذاك، وهـي أنها، فضلا عما ورثته عـن الهالك مع ابنها منه (العامل في القطاع البنكي بنيويورك)، فقد تعرفت بواسطة هذا الابن على وكيل سـينمائي يشـتغل مـع هوليود، حدث أن روت لـه قصة زوجها الصيـاد مبنية للمجهـول، فاهتم بها أيما اهتمام، وعرض عليها ثلاثين ألف دولار، مقابل تلخيصها في بضع صفحات، وتنازلها له بعقد عن استغلالها حصريا كفكرة محورية أو نواة خصبة لفيلم يختار له كاتبَ سـيناريو ومخرجا

ثم يعرضه على منتجين. رفض طلبها برفع تعويضها إلى الضعف، فمكّنته في اليوم التالي السّينوبسيس ووقّعت على العقد متسلمة شيك المبلغ، وترجته أن لا يخبر ابنها بأي شيء فقبل.

مسك الختام كما صاغته راضية لجليستيها الذاهلتين: الحياة حكايات، أروعها قابلٌ للإخراج والإنتاج، منها حكايتها المذكورة؛ وأيضا حكاية نجلاء مع رجلها الأول الذي دهس سيارتها قصد التعرف عليها، ثم تزوّجها ثم طلقّها؛ وأيضا حكاية أسماء مع زوجها المريض الذي طال احتضاره، وأهم منها حكاية عشقها لعشيق أختها الميتة؛ هذا علاوة على حكاية امرأة السّكْر والتراضي السالفة الذكر، وحكاية أم خالد وزوجها، وغيرها يوجد... أضافت المخاطِبة ملحوظتين: الأولى أن دورها وساطة خير بلا جزاء ولا اقتطاع، تكتبُ الملخصات بالإنجليزية وترسلها إلى الوكيل الهوليودي الذي يقرر مبلغ التعويضات عن المختارة منها؛ والثانية اقتراح تعديلات وحتى زيادات مشوقة، قصد تقوية الفكرة الأساس وإمدادها بحظوظ القبول، على أن تكون السرية في كل شيء قاعدة مصانة وشعار التعامل.

طلبت صاحبة العرض رأي صديقتيها فيه، مقرةً أنه يتطلب مهلة للتفكير والتأمل، لكن أسماء بادرت إلى التنويه به ونسَبته إلى داهية لها أيضا موهبة العرافة، وأضافت مازحة أن المشروع إذا ما كُتب له النجاح والانتعاش قد يلزمه فتحُ

وكالة للحكايات الشيقة العجيبة ومقرا ورسما تجاريا وخلق مناصب شغل وأداء ضريبة على الأرباح وغير ذلك، كما حال وكالتها وين وين. أدركت راضية مُزحة صاحبتها المتضمنة إشارة إلى صعوبة تلقي التعويضات بالعملة الصعبة، فذكّرت بسرية المشروع وطابعه التجريبي ورمزت إلى معرفتها بقنوات التحويلات الآمنة...

وقفت أسماء معلنة اتفاقها المبدئي، شريطة أن تحصل من راضية بملخص حكايتها بالعربية أو الفرنسية، مضيفةً إلى الإتفاق الشفوي الحقَّ في إبداء رأيها حول ما قد يلحق بالحكايات من تعديلات أو زيادات، فأيدتها نجلاء وتبنت شرطها ومطلبها، ثم كان الفراق والوعد على التلاقي في أجل منظور.

-١٩-

ليلـة اقتراب دخول زيد في خدمـة الوكالة، أبلغ أمه الخبر، فادعت أنها حلمت بذلك، وكادت تطلق زغاريد لو لم يترجَّها أن تكتم الأمر حتى يطمئن إلى تحققه ومجراه، ثم التمس منها أن تُخرج من الثلاجة بعض عولة الرايسـة الكريمة وتعدّها في صحون على غُريفة سطح المنزل مع الشاي والقهوة.

الغريفة من ركائز خشـبية وسـعف النخيـل وألواح صفيح، وهي قائمة على حيطان البيت السفلي المبني من الآجر والتراب المعجون. إنها لا تتحمل ثقل أكثر ممن دعاهم صاحبها لوجبة عشـاء خفيفة، وانتقاهم في دوار الكـورة لكونهم من العاملين القلائل من أجل مصالح الناس، وكان يجتمع معهم سابقا في أعلى صخرة قبالة البحر للتشاور والصيد، وكلهم مقربون إليه: بشر ورشيد وحمّاد موظف بالبريد وعنتر رئيس «جمعية محاربة الهشاشة والتهميش». سأله بعضهم، وقد جلسوا حول الوليمة، عـن مناسـبة هـذي العزومة، فأجابهـم: هذا القمر اللـي ينورنا مناسـبة! هذا البحر المسـالم الطايـع المنوَّر مناسـبة! والكلام فـي أحـوال حوماتنـا وناسـها مناسـبة! ردد الجميـع: صح...

لكـن القمـر عندهم لا يـؤكل، ومـاء البحر لا يُشـرب، فلا مناص إذن، كما في اجتماعات سـالفة، مـن حصر الكلام في مـا قد يفيد السـاكنة ويعود عليهـا ببعض النفـع. وعليه، ذهب النقاش بهم، أثناء هذه الجلسـة، إلى مسـائل باتت ملحة، منها تكثيف الضغوط على المجلس البلدي حتى يسـتأنف أشـغال مد قنـوات صرف الماء المسـتعمل والحار إلـى البحر؛ ومنها ترغيب الأسـر في مسـاعدتهم علـى مقاومـة انحرافات بعض الشـباب والهـدر المدرسـي؛ ومنهـا تنظيـم دوريـات محاربة مروّجي المخدرات والعنف؛ هذا مع متابعة المطالبة بالشـغل الكريـم وبحـق الناس في السـكن اللائـق والتظاهـر من أجل ذلـك أمـام مؤسسـات الجهـات المسـؤولة وشـركات العقار والبنـاء، رافعيـن شـعارات مناسـبة، فـي مقدمتهـا شـعار زيد الـذي رددتـه مرارا من قبـل جمـوع المعطلين أمـام البرلمان: بالوعود اتخْمتونا وعلى الـگصّ ارْميتونا... واتفق الجمع قبل الافتـراق على إيلاء الأولوية للعمل المحلي الملموس عوضا عن المطالب العامة الفضفاضة أو المغالية اللامدروسة، وهي حتـى اليوم من أسـباب وهـنِ حركـة ٢٠ فبراير بعـد أن كانت حدثـا وضّاءً ومدّا واعـدا. لكنهم أجمعوا على أنهـا كالنار في الهشـيم قد تعود إلى الاندلاع إذا تبدى أن حكومة الأصوليين، وقد وُضع إيمانها على المحك، تعد ولا تفي، والأحوال معها تستفحل وتسـوء... وختم عنتر بخبر سيئ، مفاده أن صديقهم المنحـرف عروب قد تحوّل إلى متاجر في المخدرات ومجرم

يوجـد في حالـة فرار، ونهى بقـوة عن إخفائـه أو إعانته، إذا ما أتـى يومـا يلتمس ذلـك؛ إلا إن زيـد طالب المخبـر بالتقصي فـي مصير أسـرة عروب لمد يد المسـاعدة إليهـا عند الحاجة، فأيـد الجميـع مطلبـه، ثم هبـوا بعصيهـم، وقد كانـت نوبتهم، إلى مجمعهم السـكني لإجراء دورات تفقدية في أحيائه، نيابةً عـن رجال الأمـن المتخلين عنها، بدعوى أن لا شـيء يتطلب تدخلهـم إلا سـيلان الدم. وقد نودي عليهم يوما لهذا السـبب فقدمـوا؛ ولمـا تبينوا أن سـكيرا إنمـا أرعف آخـر، ضربوا عن الدوار كله صفحا وأعرضوا.



فـي الصبـاح كان زيد فـي قاعة الانتظـار، مرتديـا بدلة أيام الأعيـاد، يترقب مجيء مديرة الوكالـة ويرتب في ذهنه جملا، محتسـيا فنجـان قهـوة أهدته إياه عفـاف. بعد لحظـات رافقته النائبة (تشـجعه الآنستان) إلى مكتب رئيسـتها. وهنا بعد أدائه التحيـة وخلعه الكاسـكيت تلقـى منهـا الإذن بالجلوس. لاح لأسـماء أن تستوضحه عن سـبب حلول فتاة محله في حراسة السـيارات قبل أن يتأكد من التحاقه رسميا بالعمل في الوكالة، لكنها أحجمت حتى لا تضايقه، سـيما وأنـه ظل يتجنب النظر إليها حيـاءً وانفعالا، وينقله بين قدميـه وعفاف. فحَصَتْ ملفه المحتـوي علـى رسـالة طلبه الشـغل وبطاقـة تعريفـه الوطنية وشهادته الدراسية. قالت مبتسمة: مستواك لا بأس به، باكالوريا

ناقص إثنين، كما كتبت... وناجت نفسها: وأنا باكالوريا زايد اثنين، ثم سألته عن سبب ورود اسم الزايد في دفتره المدني بدل زيد، أجاب وهو على الهيئة نفسها: الوالد يرحمُه الله لما استفسرتُه رد عليّ: الفقراء في هذا البلد زايدين، وأنا وأنت منهم. وجودهم بحال عدم وجودهم، لا من يشوف فيهم إلا وقت الانتخابات، ولا من يقلل من محنهم... زايدين يا ولدي، احنا زايدين... وهكذا فصلني عن الثانوية حتى ياخذ مني دخل عملي في حرف متنوعة. وبقى على هذى الحال حتى مات من شدة العوز والغم وفقدان الصحة.

أدلت عفاف بدلوها فقالت:

- الوالد الله يرحمُه، وأمك فيها الخير والبركة.

شكرها زيد وسأل إن كان لائقا للخدمة، فردت عليه المديرة فورا:

- هنيئا، أنت لائق. عفاف تفسر لك مهامك الجديدة. من الآن لا طاقية ولا كاسكيت. غدا تبدا، لكن من قبل تقصّ شعرك ولحيتك وتحسّن هندامك على حساب الوكالة. راتبك الشهري ثلاثة آلاف درهم يُدفع لك نصفُه الآن، وفي الأعياد تحصل على إكراميات... قومي يا ستي وافعلي ما عليك...

نهض زيد وقال مرتبكا، خفيضَ الطرف:

- هذا أجر كثير عليّ! أنا وأمي ندعو الله يا مولاتي يحفظك ويكون معك دايما ويزيدك نور على نور ويقوي خيرك...

خـرج زيد متعثرا، وقد اسـتطار قلبه فرحا. هنأته الآنسـتان وحياه بويا عمر. وقّع العقد وتسلم ظرفين. استفسر عفاف عن مهامـه الجديـدة، أجابته: بعدين. يصبح ويفتح. سـر دابا بشّـر أمك... يا الله سر.

علـى باب العمـارة لمح عن بعد الحارسـة خليفتَـه. بدا له أن يقصدهـا ويبادرها ببوسـة لكونها، من حيـث لا تدري، من المتسببات في ترقيته وتحسين وضعه، لكنه آثر أن يؤمَّ الجامع ليصلي ويشكر الله على فضله وإحسانه؛ وبعد ذاك قصد مقهى النقابـة الشـعبي ببـاب الأحـد في المدينـة القديمـة حيث أكل وارتـوى ودعا جماعة مـن الزبائن ممن يعرفهـم أو لا يعرفهم أن يفعلوا مثله على نفقته، ثم توجه إلى مخزن اشترى فيه ألبسة جديـدة فإلـى صالون الحلاقـة، وأخيرا حل بمنزلـه حيث أكد لأمـه خبر عمله الجديـد، فأطلقت زغاريـد مبحوحة وأمطرته هو ولالّة الرايسة بأدعية صادقة حارة.

فـي صباح الغد، الذي وافـق بالمصادفة ٢٠ فبراير ٢٠١٢، مثل زيد أمام الثلاثي، اللائي اضطررن إلى التحديق فيه بنظرات فاحصة للتيقن من أنه الشـاب زيد أمحزون، حارس السيارات سـابقا. فتناوبن على التعبير عن دهشـتهن، نعمـى تهتف: هذا زيد نيو لـوك، ونعيمة تتعجب: الأناقة واللياقة! سـبحان مبدل الأحـوال! وعفاف: الآن ظهرت على حقيقتك! اتبعني حضرة المرشد...

هنا فـي مكتبها، أطلعته على مهمته الجديدة: مرافقة طالبي زيـارة شـقق وفيلات للكـراء أو البيع، تقديمها لهـم على نحو يُحبّـب ويُغـري، وأيضـا إجـراء مسـاعٍ لـدى أبنـاك ووكالات عقارية أخرى وربما بعض المؤسسـاتّ العمومية أو الخاصة؛ ثـم نصّبتـه على كرسـيه أمام منضدتـه المحاذية لنافـذة مكتبها والقريبـة إلى منضدتي الآنسـتين؛ وقبـل أن تذهب إلى مكتب المديـرة متأبطـة ملفـات قالت: لـكل داخل دهشـة. افتح هذا السجل واطلع على العناوين النافعة والبطاقات التقنية.

ما إن غابت النائبة حتى همسـت نعيمة ونعمى إلى جارهما بكلمـات التهنئـة والترحيـب، ثـم سـألته الأولى عن مشـروع خطوبتـه للبنـت المسـكينة، منظفـة واجهـة المتجر النسـائي، أجـاب: باتـت ما اصبحـت، بحال قلـتِ الأرض بلعتهـا. الله يجيب ما هي أحسـن... واستفسرته الثانية إن كان يعرف الفتاة الغولة التي خلفته في الزنقة فأنكر، ثم ناشـدتاه أن يحكيَ لهما نكتـة وعاهدتـاه بكتـم الضحك، فرفـض طلبهما وقـال: زمن النكـت انتهـى والظروف تغيرت، مـن هذا اليـوم علاقتنا كلها جد ومعقول... وقوّس حاجبيه استغرابا وهو يسمعهما ترددان همسا: يا ويلي! والانتاجية؟

فـي هذه الأثناء اسـتفاق بويـا عمر من غفوتـه وأخذ يهذي بكلام متقطع سُـمعت نتفٌ منه: جدي حارب في ڤيتنام، وبويا في الـﮔـيرة الكبيرة وعلقتْ لِه فرنسـا الميداليات، وأنا قاومت الفرنسـيس في بلادي حتـى اعطبوني، وبقيت وحدي لا حنين

ولا رحيم. وها ليّام دارت عليَّ و وليت خُضرَة فوق طعام... لا بد أكلم الرايسة أو النايبة...

علقت نعمية: خضرة فوق طعام! بويا عمر سهّلت الخضرة، راها حتى هي ثمنها غلى في الاسْواق!... نهاها زيد وقال: الرجل مقاوم أباً عن جدّ، يلزمنا احترامُه. وأنا هنا بويا عمر مساعدك. ما أقوم إلا باللي صعب عليك، وما يكون إلا خاطرك... ردّ العجوز: الله يرضي عليك يا ولدي، وينقّي طريقك من الشوك، ويزوجك ببنت الحلال.

بعيد خروج الآنستان للغداء وذهاب العون في سخرة، استدعت عفاف زيد إلى مكتبها، سلمته هاتف موبايل معبأ يحوي قائمة أسماء وأرقام أولى، وأطلعته على برنامج زيارات ليوم غد، تشمل شقتين للكراء وفيلا للبيع؛ أمدته بجذاذاتها وأوصته بحفظ معلوماتها عن ظهر قلب، وتقديمها للزوار بأدب وكياسة. علمت منه أنه يرقن على الحاسوب ويتكلم الفرنسية عند الضرورة وحاصل على رخصة سياقة. هنأته على كل ذلك، ثم دعته إلى تمرين في فضاء الوكالة، وكأنها هي الزبونة، فسمعته يقدر مساحة المكتبين وقاعة الانتظار والمطبخ والحمام، وينطق بالكلمات المناسبة مبتسما مبشورا.

وبينا هو كذلك رنّ جرس الباب. استقبلت عفاف زائرا اعتذر عن المجيء من دون موعد، أخبر أنه يبحث لأمه العجوز عن شقة واطئة يكتريها لها، لا يساوم في ثمنها، ويدفع نصف عام مقدما، لأن الجنة، كما هتف، تحت أقدام الأمهات؛

وأضـاف أن الأم تنتظره في السـيارة لعجزها عن صعود الدرج ولا تشترط أي حيّ بعينه...

دخلـت النائبـة مكتبهـا مفكـرة ثم عـادت بمفتـاح وبطاقة لمنـزل يسـتجيب للطلـب بحـيّ المحيـط، فسـلمتهما لزيـد وقالت للرجل: يصاحبك المرشـد على أن تعيـده إلى الوكالة وتخبره بما قررت. أجاب: على راسـي وعيني. اسمي بوعلام الزبدي. بطاقة تعريفي في السـيارة: هل آتيك بها؟ أشـارت أن لا، فانصـرف شـاكرا صحبة زيد. حـرك الرجل سـيارته، وأمه البدينـة، مجلببةً ملثمة، تئن وتزفـر، والمرافق خلفهما يحجب وجهه عن الحارسة الجديدة التي اعترضت طريق السائق مادةً يدهـا، فوافاها مرتبـكا بحفنة نقود ثم انطلق نحـو الزنقة ورقم العمارة حسب نعت المرشد.

على طول الطريق ظلت العجوز تلعن بصوت منهك الهرمَ ومتاعبـه وتغـدق علـى ابنهـا أدعية تلـو أخرى. عنـد الوصول توسـل الرجل إلى مرافقه أن يعينه على إخراج أمه من السـيارة وسـبقهما إلى فتح باب الدار، وكذلـك كان. لكن ما إن أقبلت الأم متكئـة علـى ابنهـا حتـى تعرّمت فـي بيت النـوم وأخذت تطالـب بتدخين سـيجارتها المفضلة لكي تسـترجع أنفاسـها. سلم الرجل نقودا لزيد وترجاه أن يحضر لها علبة سجائر أنفا، فإن لم يجد فكازا سبّور عند دكان دخان يوجد في آخر الشارع قبالة سـينما الشـعب، وإلا اسـودّ مزاج أمه وأصابتها الشقيقة؛ فما كان من المرشد إلا أن هرول إلى العنوان المذكور. عندئذ

أقفل الرجل الباب وسحبت المرأة ملاءة من تحت جلبابها وفرشتها، فكان ما كان مما يجوز تصورُه، فيما المسخّر يسمع من صاحب الدكان المقصود ومن اثنين آخرين: سر الله يجيبك على خير! هذي ماركات ماتت من زمان...

شعر زيد بالخدعة، فجرى نحو الشقة على جناح غضبه وامتعاضه، وإذ تخطى الباب لم يجد أيّ أثر للخادع وأمه المزيفة ولا، حين خرج، للسيارة في الزنقة المجاورة، فأمَّ راجلا الوكالة حيث أخبر النائبة، مستغفرا الله في نفسه، أن أم الرجل المصابة بالربو لم تعجبها الدار الكثيرة الرطوبة. سلمها المفتاح والجذاذة واستأذنها في الذهاب إلى أقرب مطعم وأخذِ جذا ذات الأملاك المبرمجة ليوم غد.

في المطعم، بين الاقتيات والاطلاع على بعض الجرائد، أخذ يوبخ نفسه على سذاجتها وغفولها في أول خرجة له، وحذرها من أي ورطة أخرى قد تعصف بمنصبه الجديد وتعيده إلى نقطة الصفر؛ وتخيّل حارسَ العمارة شاهدا على خروج الرجل والمرأة منها، يجيبه عن سؤاله عنهما قائلا: الذكر كذا وكذا، أما الأنثى المتأبطة ملاءة فشابة شقراء فتخاء، الزين منها يفوح ويُشم...

لطيّ صفحة ما حدث انكب زيد على الجذاذات يحفظها عن ظهر قلب؛ ثم تلقى مكالمة من عفاف تحثه على الذهاب فورا إلى مقاطعة حيّه لإعداد وثائق أملتها عليه، كيما تصرح به كموظف في الوكالة، وتسجله في صندوق الضمان

الاجتماعي. لبّى الأمر شاكرا واجتاز زنقة عمله المنتهي، ملاحظا غياب سيارة السيدة المديرة ومارا أمام الحارسة خليفتِه، التي لا تأبه به أو ربما لا تتعرف عليه، نظرا للوجه المتغير وهندامه الجديد.

في هذا الوقت كانت الآنستان في مطعم على وشك إتمام وجبتهما وكلامهما الدافق المتنوع، أغلبه حول تغير حال المديرة ونظام عملها، إذ لاحظتا أنها صارت كثيرا ما تأتي الوكالة مبكرا وتظل فيها مع نائبتها بعد انصرافهما. هل بسبب وفرة الشغل أم لسبب خفي تصعب معرفته؟ أظهرت نعيمة عدم اهتمامها الآن بالموضوع لكونها تعد العدة، كما تعلم صديقتها، للرحيل إلى الدوحة لعقد قرانها بطيار قطري، ووعدتها أن تجد لها زوجا في تلك الديار أو قريبا منها، حيث سهوم المغاربيات صاعدة، والحمد لله. تظاهرت نعمى باطمئنانها للوعد، لكنها نصحتها بإعلام المديرة بالأمر شهرا قبل حدوثه على الأقل، فتلقت منها إشارة غامضة تعني الموافقة أو عدم الاكتراث.

بعد قضاء حاجياته في مجلس مقاطعة يعقوب المنصور، رجع زيد إلى حي سكناه، غيّر في بيته بدلته بزيه العادي ثم ذهب، كدأبه مرتين في الأسبوع، إلى مساعدة بعض الأطفال في فهم دروسهم، وتفقد مرضى معوزين يسعفهم بما استطاع، وتوّجَ مساعيه بالصلاة في المسجد ومحادثة الإمام ومصلين.

سيلحظ الأصدقاء في الحي والدوار علامات تحسن حال زيد المادي، لكن عليه، كما عاهد نفسه، أن لا يغتر أو يغير جلده ويتنكر لمبادئه وأحبته وأناسه. بهذا وتوابعه أخبر أمه، فوافقته الرأي ودعت دعاء الخير له ولوليّة نعمته وحمدت الله وشكرته كثيرا.

على فراش نومه، ليلةَ أول يوم من عمله الجديد، سبح زيد بفكره في استذكار يوم ذي تاريخ مماثل من السنة الماضية: يوم ٢٠ فبراير، فظل يهمس بما علِق بذاكرته من شعاراته، حتى إذا انتصف الليل أخذه النوم بعيدا بين رفرفاتِه وطيّاته.

-٢٠-

في اجتماع عفاف برئيستها على انفراد يومه الاثنين مساءً، سلمتها مراسلات وعقودا ثم أنبأتها مباشرة بخبر اعتبرته ساراً، وهو توفق زيد في مأموريته الأولى كمرشد عقاري، إذ كُللت بتهييئ عقدي كراء لشقتين وكتابة وعد ببيع فيلا على أن تتم الصفقة صباح غد. انشرحت أسارير أسماء واستفسرت عن سر نجاح زيد في أول خروج له، فأبلغتها النائبة أنه امتنع عن الكلام في الموضوع حتى يرى بأم عينيه كل العقود ممضاة من الأطراف المعنية ومدرجة ضمن الأعمال المقضية.

أما الخبر غير السار، كما وصفته عفاف، فهو قدوم الإبن حسان إلى الوكالة صباحَ اليوم نفسه سائلا عن المديرة، وكان سيقتحم مكتبها المقفل لو لم يمنعه بويا عمر بعصاه وراء درع شكلته هي والآنستان، فاضطر الدخيل إلى الإنسحاب بعد أن توعدهم بالعودة في يوم غد. انقبض وجه المنصتة وشحب، أوصت نائبتها بتمكين الإبن الضال من مقابلتها بعد استئذانها ورخصت لها بالانصراف، وبعدها تلهت عن قلقها وهواجسها بالاطلاع على السجل أمامها وإجراء مكالمات متتالية وتصفح جرائد ومجلات.

ليلة أخرى ستقضيها أسماء في عشها السري حيث وصلها بالموبايل صوت الحاج النصري سائلا عن أحوالها، مطمئنا إياها على صحته، ما عدا معاناته مع البروستات وما تستلزم من متابعة طبية. وفي هذه المرة استفسرها عما أجرته مع ابنه جمال فترجته أن يمهلها أياما حتى تتفرغ للأمر... وفي هذا الأمر فكرت طويلا على ضوء معلومات عفاف عنه وقطعِها بصعوبة بل استحالة قضائه، لكنها قررت أن تسعى وتحاول ترضيةً لوليّ نعمتها وإكراما؛ ثم عرجت بفكرها على حالة ابنها هل إذا أقبل غدا تلقاه بالملاطفة واللين أو بالإعراض والنفور؛ وارتأت أن سلوكه هو ما سيملي عليها موقفها. أخرجت من إحدى جواريرها ألبوم صوره رضيعا وطفلا، ألقت عليه نظرة عجلى كئيبة ثم أعادته إلى مكانه.

ليلة أخرى أمضت السّت هزيعها الأول في الانصات المتمعن لأقراص موسيقية تتصدرها «رباعيات الخيام» بصوت أم كلثوم و»من ليالي كيلوبترا» لمحمد عبد الوهاب، أقراص أهدتها إياها راضية مع متمنياتها الخالصة أن ترى الفتى «غضَّ الإرهابِ أبيضَ الجبهةِ» عائدا من غيبته المديدة.

لما أصبح، غادرت الوكالة مبكرا قبل مجيئ الموظفين، محاولةً منها لتبديد ما قد يخامر بعضهم من تساؤلات حول مكان مبيتها. قصدت موقف سيارتها لتفقدها وأداء ما عليها من مستحقات، ثم أمّت راجلةً مطعما هادئا تناولت فيه فطورها، وبعده تجولت في بعض الأرجاء القريبة، فيما الحياة

تعود رويدا رويدا إلى الشوارع والساحات والمتاجر والمباني. وقبل رجوعها إلى مقر عملها علمت هاتفيا من عفاف أن الطاقم، باستثناء نعيمة، إلتحق بالوكالة. عندئذ مشت الهوينى، تسترق النظر إلى وجوه أفراد متسكعين خارج المكان والزمان وداخل أمراضهم وأوهامهم، وإلى أخرى لأناس يدبون وراء أجورهم وقوتهم اليومي...

عند رجوعها، حيّت الست مستخدميها، فقام زيد يرد التحية بأحسن منها مصوبا نظره إلى السقف، ووقف مثله الجميع محيين. دخلت عفاف على رئيستها، قبلتها وهنأتها بابتسامة عريضة على براعة تمويهها في هذا الصباح، والتمست منها إعماله مستقبلا من حين لآخر. أنبأتها أن المصري الراغب في شراء الفيلا التي زارها مع عقيلته صحبة المرشد الأستاذ زيد، كما يقول، يحب التشرف بمقابلة الست المديرة للتعرف عليها والتكرم بخفض ثمن البيع بنسبة مواتية، وهذا ما ينهى عنه زيد بكل إصرار. فجأة استأذن بويا عمر في إدخال الزوج العربي، فهبت عفاف للترحيب بهما وقامت الست للسلام عليهما ودعوتهما لمجالستها على الأرائك. خيّرتهما النائبة بين الشاي والقهوة، أجاب الرجل الذي يبدو سبعينيا هو وزوجته: شاي مغربي من يدك يا هانم لا يُردّ، واستأنف مخاطبا جليستهما:

- والله يا ستي المديرة، احنا متشرفين بلقائك، ونشكرك على لطفك وحسن استقبالك. أقدم نفسي: حسني حسن

ريـاض، مصري ورجـل أعمال متقاعد، هذي زوجتي حسـناء الحسـيني، سـليلة الدوحة الحسـينية الشـريفة ووليدة المدينة المنورة حيث لنا إقامة، كما لنا أخرى، لا فخر، في دُبي، ونريد تكون لنا ثالثة هنا في رباط الفتح، عاصمة المغرب الحبيب...

- الشـرف (أجابت أسماء) حصل لِنا... البلد ذا بلدكم زيِّ ما بلدكم بلدنا. واحنا كلنا أمة واحدة...

أقبلت عفاف بصينية شـاي وجلسـت تعد للزوج كأسيهما وتحثهما على تناول حلويات مغربية. استجابت المرأة بعد أن خفضت نقابها، واسترسل في الكلام الرجل ذو الهندام الأنيق والشعر والشارب المصبوغين:

- عقيلتـي هاته، يحفظها الله، تفضـل يكون لنا، وأنا معها، موطئ قدم في هذا القطر الشقيق، لأنها تريد أن تخف قليلا من زيها التقليـدي وتنعم، وأنا معها، باعتـدال الجو ونقاوة الهواء وحـلاوة العيش في هذا البلد الأميـن، وكلها أوصاف نطق بها الأسـتاذ المرشـد وصدق. وعلى ذكر هذا الشـاب... إيه زيد! والله لولاه لكنت اشـتريت فيلا أخرى وبثمن أقل، لكن حسن أدبـه معنا راقـا، كما أنه سـلّى حرمي التي ضحكـت مثلما لم تضحك مـن قبل، حتـى كادت تغيب عن وعيها وهي تسـمعه يطلق على مكونات الفيلا من النعوت والأوصاف ما لا يصدر إلا عن خيال شاعر أو خطيب بليغ. وبين تزيين وآخر يحكي لنا

نكتــة مصرية أو فكاهة مغربيــة، فهتفت حرمي: إما هذي الفيلا أو بلاش! فأجبتها في الحال: فيلا يا حبيبتي غير هذي بلاش!

غلب على المرأة الضحك، فاعتذرت وقالت:

- الشــاب ذا مرحُه وخفة روحو، ما شــاء الله عليه، ما شــاء الله!

استدرك الرجل متوسلا:

- إنما قلت مع نفسي ربما في حضرة الست المديرة نحظى بتخفيض عشرة في المئة أو شوية أكثر...

قاطعته عفاف بلهجة جادة حازمة:

- لا يــا أفندي! الثمن مــدروس بدقة، وزيد عندُه زبون آخر عرض عليه أكثر، لكنو رفض عشانكم...

رنَّ موبايل النائبة، فردت على ما سمعته:

- لا يا ســيدي مش ممكن... ولو تزد عشــرين في المئة... احنــا مومنين، والمومن إذا عاهد وفــى... من فضلك ابق على الخط أسأل السيدة المديرة...

مالت على الزبون المصري وهمست:

- قلنا إيه يا أفندي؟

أجاب الرجل مرتبكا:

- يـا هانـم خـلاص! وأنا قلتِ حاجـة؟ هاتِ العقـد أوقعْ عليه...

استأنفت عفاف مكالمتها الهاتفية:

- يا سـيدي يصبح ويفتح. إما هذي الفيلا أو أخرى غيرها. الكلّ قسـمة ونصيب. نجدد الاتصال إن شـاء الله... وعليكم السلام.

استعجلت المرأة زوجها لتوقيع العقد ففعل، ودفع للمديرة شيك كفالة وتلقى منها وصلا على أن يتم ترسيم العقد غدا في مكتب الموثـق. وقف الرجـل وعقيلتُه معدلةً نقابها واسـتأذنا في الانصراف، فشيعتهما أسـماء ونائبتها إلى الباب، لكن قبل الخروج مدّ لزيد ظرفا مرفقا بالشـكر والامتنان. امتنع المرشد عن أخذه، فألح الواهب قائلا: إنما هي حلاوة مستحقة، حلاوة حلال... آه فهمت، أنت محرج أمام الست المديرة... هي ذي أمانة عند الست عفاف تسلِّمها لك بعدين... استودعكم الله.

ما إن انسـحب الزّوجان حتى بادرت أسـماء إلى تهنئة زيد علـى حسـن أدائه، فقـال وهو كعادتـه يخفض عينيه: لا شـكر سـيدتي على واجب؛ ثم عادت إلى مكتبها يستطير قلبها فرحا واستبشـارا. عندئذ اقتربت منه عفاف ومـدت إليه الأمانة: خذ هـذي الحـلاوة الحلال... فاشـترط أن تسـلمه بعضها وتوزع الباقـي بالعدل علـى الحبايب. فتحـت الظرف فإذا به خمسـة آلاف درهـم. أعلـن زيـد: احنا خمسـة، إذن لـكل واحد ألف

درهـم. صححت عفـاف: بل احنا أربعة. نعيمـة متغيبة، واللي غاب غاب حقُّه. لك حضرة المرشـد خمسان ولكل واحد من الثلاثة خمس... حين أخـذت نعمى نصيبها اندفعت نحو زيد وعاجلته بقبلة على خدّه شـاكرة ممتنة؛ أما بويا عمر فرفع يديه هاتفا: يا ما انت كريم يا ربّ! عشـرين ألف ريال هدية من هذا العبد السخي!... وأمطره بالأدعية وهو يحشو حصته في جيبه.

ردت عفاف على مكالمات وأجرت أخرى، وبعدها مثُلت أمام زيد متوددةً مستعطفة:

- الآن يا مرشـد اللي ما لُو مثيل، الآن الآن مش غدا، بجاه المصطفـى الأميـن ورضـى أمك عليـك، خبّرنـا باللي حصل بينك وبين المصري وزوجتو...

قاطعها زيد قائلا:

- حصل خير والحمد لله، كلّ الخير، وأنت شفتِ نتائجو.

- اقصـد كيف زينت الفيلا بكلامك حتى عشـقتها الزوجة وقبل الزوج كل شروطنا.

- قمـت بعملي لا غيـر. جوّلت الرجل وحرمـو في الدار. عرضـت المعلومـات اللـي فـي البطاقـة، والبقيـة زدتهـا مـن راسي...

- هذي البقية من راسك، يا زيد، هي اللي نحبّ نعرفها.

اقتربت نعمى من المتردد وهمست في أذنه: تكلم، المديرة ما تسمعك، بابها مسدود... حينئذ لبى الطلب بصوت خفيض، قال:

- الأمر بسيط... بعد تزويد الزبون بالمعلومات الضرورية، الانسان عينُه ميزانُه. لكل زبون كلام على قدّو ورغبتو. مع طالب شقة للكراء أو البيع، أمدح نصيبها من الهواء والشمس كيفما كان حجمُه، وأزين موقعها في العمارة وطابقها، مع التأكيد على أنّو الجيران من الناس المتحضرين، المتشبعين بالحديث الشريف: «الجار للجار رحمة»، فما يصدر عنهم إزعاج ولا ضجيج، حتى أنو الشقة تتمتع بمنتهى الهدوء والسكينة، كما لو هي في جنان أو جزيرة...

قاطعت نعمى المرشد واستعجلته في الحكي عن الفيلا وغرام المصري وحرمه بها، وأيدتها عفاف، فاستأنف قائلا:

- بعدما كشفت للأفندي والست عن مساحة الإقامة وقبتها ومقصوراتها وملاحقها، قلت: فيلا من هذا الطراز العالي متهيأ لي أنها مبنية بالحجر الصخري المصقول، كأنو حجر الأهرام، يقوّي الأساس والسواري والسقوف، ولا يتزحزح أو يتشقق ولو زلزلتِ الأرضُ زلزالها؛ وكل حائط يثنّيه آخر وبينهما ألواح القُرق أو اللياج. والحاصل من هذا أن الصيف في الفيلا مبرّد والشتاء دافي؛ وفي الحالتين يتم اقتصاد الطاقة وتخفّ الفواتير... قلت أشياء عن الحديقة الفسيحة

وغروسـها وأزهارهـا وأشـجارها، لمحت بعضهـا وتصورت أخرى، كالسـعتر والسوسـن والخزامى والنرجس والأقحوان والصفصاف والصنوبر... أما المسـبح فشبهتُه ببحيرة أو قطعة من النيل، مع فارق كبير: العوم فيه أنقى وأسلم، والعائم يشعر في مياهو المتجددة ليل نهار بانتعاش جسـمو وتقوية عضلاتو بحركات لينة ناعمة...

كانت نعمى وحتى عفاف خلال سرد زيد تطلقان ضحكات صاخبـة حينا وخافتة أحيانا، أما بويا عمر الخارج عن السـياق والاطار، فكان يكتفي بأداء قدر من تحاياه العسـكرية. طالبت المرأتـان المرشـد بالنكـت التـي حكاهـا للزوجيـن فزعم أنه نسيها إلا واحدة عن صعيديين اقترح أن يـُمغْربـها حتى تُفهم، فشجعتاه: إحكِ ومَغْرِبْ... قال: اثْنين من سوس ناعسين بالليل فـي دكانهم. دخـل عليهم لـص وهددهم: اعطوني فلوسـكم وإلا اذْبحكـم. صاح مُحنـد: أحماد تذكَّر سـلفتني البارح مايه درهم؟ جاوبو: أنعم، قالو محند: هاك خذ مني سـلفك دابا...

كممـت النائبة فمهـا وفم صاحبتها كتمـا للضحك... رفع زيد أنفه مشتما، واستأذن في الذهاب إلى المطعم.

لم يكمل المتملص وجبته حتى نوديّ عليه هاتفيا أن يسرع عائدا إلى مقر عمله. اسـتقبلته عفاف بوجه منقبضٍ كالح، ولم يكن في المكاتب سواها، ترجته أن يستعد للتدخل إذا ما بلغت مداها المشـادة الكلامية بين السيدة المديرة وابنها في مكتبها.

وفعلا كان صوت حسّان يعلو على صوت أمه وتُسمع منه نتف نابية مستعرة: هجرتِ بيت الزوجية وخرجتِ عن شرع الله... فين مبيتك كل هذي الليالي، ومع من؟... رجلك مريض وانتِ خايضة في اللهو والفساد وهتك الدين والأخلاق... فقدتِ عرضك وشرفك ومرّغت سمعتنا في الوحل والعار...

وهذي المرة ضجّ صوت الست غاضبا مهددا: اخرج من هنا ألْمسخوط، درق عليَّ وجهك. ما أنتَ ولدي ولا أنا أمك... أخرج قلت لك وإلا نطردك بالقوة...

حينئذ اقتحمت عفاف المكتب وخلفها زيد، فأمرته بلهجة حادة أن يزهق حالا من دون خصام ولا كلام. وقف حسان مستنفرا وصاح: أنا ما أخاف منك يا شريكة السوء ولا من الكلب اللي معك... فما كان من زيد إلا أن دنا من العاقّ الوقح مفشلا محاولاته اللكمية، وبمهارة عالية جذبه إليه وطوّق عنقه من الخلف بيد وبالأخرى لوى على يده، بحيث سلبه من أي مقاومة، ثم دفعه هكذا قرب الدرج، وبثّ في أذنه كلمات قبل أن يفك وثاقه الموجع ويطلق سراحه. وبعدها رجع إلى كرسيه وشغل وقته بين الاطلاع على بطاقات عقارية والنظر في بعض الجرائد، فيما ظلت عفاف رفقة الست المديرة، تواسيها وتكفكف دمعها، ولم تجد من وسيلة لصرفها عن نازلة ابنها الملعون والتفريج عنها سوى سرد حكاية زيد مع الزبون المصري وحرمه، وما أنفقه من بلاغة الوصف وبراعة التسويق لتحبيب الفيلا لهما، فتضاحكتا كثيرا حتى حلت

الفرحة محل الترحة، وغمر الحبور وجه أسماء وحركاتها، فاهتبلتها النائبة فرصة للتنويه بزيد والثناء عليه، قالت:

- يا حبيبتي، اللي عيّنتِه في منصب مرشد عقاري، والشهادة لله، نعمة نزلت علينا من السما. فاضل وكريم، وفي العمل فطن وشاطر. بالأمس بواسطتو تم كراء شقتين والاتفاق على بيع فيلا طال عرضها، كما في علمك. وبخصوص هذي الصفقة، بعدما اخبرتُه بكون مالك الفيلا المقيم خارج الوطن يوجد في ضائقة مالية ويطلب أقل من الثمن اللي حددناه، نصح باشتراط رفع مستحقات الوكالة على المالك بنسبة مهمة، وإلا لا بيع ولا شراء. ولهذا يلزم إمهال المصري حتى تتم موافقة المالك المكتوبة على المبلغ المذكور. وزيد كلما نصح قال: وللسيدة المديرة المحترمة واسع النظر وحسن التدبير... يا حبيبتي، أش قلتِ؟

أجابت المسؤولة وعلامات التعجب تغزو محياها:

- سبحان الله! زيد هذا كان حارس سيارات، وصار بقدرة قادر يفهم في المانجمنت والأعمال... وعلاش ما يكلمني وجهو لوجهي؟

- يا لالة، أنت عارفة السبب، وزيدي عليه لسانُو معك، حسب ما يقول، يعكل ويتمتم. خلّي لو الوقت حتى يتغير، ومن قبل نحسّن راتبو وظروف عملو اللي منها وسيلة نقل: دراجة نارية ومن بعد سيارة ما دام عندو رخصة السياقة...

- رخصة سياقة عندو!

- شفتها بعيني... إذن زيد صار صاحب مواهب واختصاصات: مرشد عقاري، مسوّق، سائق وحارسك الشخصي. ونعيمة اللي تتغيب بدون عذر خبرتني نعمى أنها ناوية الزواج بطيار قطري، ندعو لها بالخير والسعادة. واحنا ما فيش حاجة لتعويضها ما دام عندنا زيد أفرحون...

- إذن نادي على المصري وصبّريه شوية لكوني أنا عندي مانع قاهر، لكن أكدي لو أنو كل شيء يتم قبل نهاية الأسبوع بحول الله. وأنا من جهتي أدبّر أمر الزيادة مع المالك اليوم أو غدا... قولي: مكالمتك، والمصري قاعد هنا، كانت مع زيد؟

- إيه طبعا، والفكرة هي فكرتُه! حتى هو، تبارك الله، يقول اللي تقوليه: بيزنس إيز بيزنيس... أنا رايحه أدبر معو بعض الملفات واخبرُه يختار دراجة نارية، وأنتِ، يا مولاتي، الملفات اللي عندك تكفيك: مالك الفيلا وابنك حسان وما تنسي جمال أعني الشابة جمال...

فجأة سُمع خبط على باب الوكالة. هبت عفاف لفتحه وهي تقول: نعمى حررتها قبل قدوم حسان، وحتى بويا عمر!... تجهم وجه أسماء وانقبض ظنا منها أن الخابط قد يكون ابنها، لكن تناهى إلى أذنها صوت امرأة تبكي وتشكو، فظلت معتصمة بمكتبها تسترق السمع، ومن كلامها فهمت أنها امرأة الطابق الأخير، هربت من زوجها المعتدي عليها،

وتطلب قضاء ليلتها في الوكالة، وبعدها تعود غدا باكرا إلى أهلها في تطوان. نهتها عفاف، مؤيدَة من زيد، عن ذلك ونصحتها بالذهاب حالا إلى مخفر الشرطة المركزي لتسجل شكاية ضد زوجها وتلتمس من القيمين حمايتها وقدومهم بالليل حتى يعاينوا جنايته عليها؛ أما إيواؤها في محل تجاري أو فرارها إلى أهلها، كما أكد زيد، فسيؤدي بالزوج إلى رفع دعوى ضدها بتهمة مغادرة بيت الزوجية، فيصعب وضعها ويتعقد. ولإقناعها برجاحة هذا الرأي وطمأنتها، بادلتها عفاف رقم الموبايل ووعدتها، وهي تشيعها إلى الباب، بالبقاء معها على صلة.

برزت أسماء أمام المبسط، شكرت عفاف على عنايتها بالزوجة المقهورة متعهدةً بمحاولة مساعدتها، كما ثمنت نصيحة زيد إليها وأشّرت له بشراء دراجة سْكوتر على نفقة الوكالة، اعترافا له باستقامته وحسن خدماته. وبينا هو يهمهم بتشكراته، ودّعتهما على عجل بعد أن تلقت مكالمة من صديقتها نجلاء.

اللقاء بين الصديقتين في نادي موفينگ لم يكن من أجل الاستمتاع بسباحة ليلية فحسب، وإنما أيضا للتناجي بالكلام الحريِّ بالتخفيف مما ينوء به صدرهما من أكدار ومتاعب، وتعود حصتها الأوفر إلى الست المديرة، التي ما إن أرجعت أعصابها إلى نصابها بالقفزات والغطسات في الماء حتى أسرت إليها بما حدث لها مع ابنها العاق، من دون ذكر ما فعله

زيد لفض النزاع؛ وشكت لها أيضا طول أمد وضعها الزوجي المزري. فكرت في إطلاعها على لقائها الأخير بالحاج النصري حتى يكون مدخلا لمشاورتها في أمر ابنه جمال وما يطلبه منها وليُّ نعمتها في شأنه، لكنها أمسكت عن ذلك أو قل أحالته إلى أجل غير مسمى.

لم تجد نجلاء فائدة من إسماعها مجددا اسطوانة الصبر المشروخة، فاقترحت عليها أن تستفتي محاميا أو قاضيا في حالتها الزوجية على خلفية رغبتها في التطليق وتنازلها للزوج وابنها عن دارها وما فيها. كانت أسماء قد خامرها من قبل هذا الحل ثم أدرجته بين إرجاء وآخر، لكنها شكرت صاحبتها عليه ونوهت بجدته وأصالته، واعدةً بالعمل به في مستقبل منظور. اغتنمت الصاحبة الفرصة لسرد حالات نساء تعرفهن، يرهقهن زواج بئيس أو مرض مزمن؛ منهن اللائي لا زاد لهن ولا مآل إلا التقوقع أو الخبل؛ ومنهن اللائي لا يعصمهن الترف والثراء عن الشقاوة وضربات القدر، ومثلت على هذه الفئة بامرأة السكر والتراضي التي حكت عنها راضية المنشغلة هذي الأيام بإنقاذها من محاولات انتحارية متكررة. وخلصت الساردة، وقد لمعت عيناها بالدمع، إلى أنها كلما نظرت في حياتهن أو أغاثت بعضهن قدر الامكان إلا وتسنى لها أن تقيس سعد طالعها، تتصدره الصحة البدنية والعقلية التي ما زالت تنعم بفضائلها. وأهابت بها أن تحذو حذوها حتى تتنفس الصعداء وتخف؛ ثم أشارت أن ما يسعفها على نسيان ذكريات سيئة أو تحمّل مرض أمها بالأيزيمر وطول غياب ابنها الأوحد خارج

الوطن هو إدمانها على النهل من خزانة ورثتها عن أبيها وقراءة كتب أدبية تقتنيها؛ وعرضت على الممعنة في الانصات إليها أن تعيرها أجودها وأنسبها لطبعها.

شدت أسماء على يديّ من تنعتها «أعز صديقة»، معترِفة لها أن كلماتها تنزل عليها دفئا وسلاما، واقترحت أن تعلمها الغطس في الماء مقابل أن تتلقى منها شيئا من دروس الغطس في الصفحات. تضاربتا على الكفين إقرارا للاقتراح، ثم قامتا للبدء في تفعيله بالسباحة الحرة والاستحمام بالماء.

بعد مغادرة النادي، تعللت أسماء بوجوب قضاء مهمة مستعجلة، فودعت صديقتها على أمل تلاقٍ قريب، وتوجهت بسيارتها إلى صالون حِلاقة وتجميل، وهنا أمضت وقتا حتى حلول الليل متلقيةً شتى الخدمات؛ وقبل أن تنصرف جادت على القيّمات بحلاوات، ثم طلبت من إحداهن أن تجريَ لها بقطعة نقدية قرعة بيل أو فاص، فأعطت الوجه وكان ذلك ما راهنت عليه.

وجها لوجه يا جمال أقابلك هذي الليلة وليس غدا، واللي يحدث يحدث. إما أرجّلك وإما الإياس ونفض اليدين منك... بهذا ناجت أسماء نفسها، وكلها في ذلك عزم وحزم.

ركنت سيارتها في مكان آمن، توجهت بخطى ثابتة إلى باب الفيلا، قرعت جرسه ثلاث مرات فبدا خلفه، وقد انفتح، شاب لم تشكَّ الزائرة أنه ضالتها المنشودة: لامع الوجه

بالطـلاء، مكحول العينين، مزجج الحاجبين... نطقت باسـمه واسـتأذنت فـي الدخـول، فـكان لها ذلـك. جلسـت وقدمت نفسـها باسـم مسـتعار فيما هو، وقد قعد قدامهـا، يخيّرها بين النبيذ والويسـكي. امتنعت وفضّلت كأس مـاء. قوّس حاجبيه استغرابا مثلما تفعل أنثى متأصلة وسأل:

- امرأة من صنفك وما تشربي؟!

- إيش هو صنفي يا سِيدي؟

- صنـف العاهرات، بائعات الهـوى والمتعة، ولو أنك من نوع لوكس.

افتعلت أسماء شيئا من الغنج والدلال وقالت:

- إذن قرّب مني وخذ ما تشاء يا جمال...

- آه اسـمي عنـدك! حتى أنت بعثك أبي بـاش ترجليني... ما نضيّع الوقت. هذا سروالي انَّزْلو حتى تنظري كيف خُلقت. شـوفيني وحققـي، وبعديـن خبّـري بّابّـا بالخنثى اللي شـفتِ وخـرج مـن صلبـو. ودابا اخرجـي وإلا عيطت علـى صاحبي النايم وأسمح لو يمخضك ويعبث بك قدام عينيّ.

ما إن تبينت أسـماء طابع الجدية والحدة في تهديد الشـاب حتى هرعت فزعة إلى الباب ثم إلى سـيارتها وانطلقت ناشـدة السـتر والسـلامة... صدقتِ يا عفاف صدقتِ: هذا المخنث، حتى أمهر الأطباء ما يقدر على ترجيلو!

في عشـها السـري استلقت الهاربة على سـريرها، شاكرة الله أن نجاها من ورطة، وأقسـمت ألا تعاود فعلها مرة أخرى. وحيـن هدأت، بـادرت إلى مهاتفـة صاحب الفيـلا المذكورة أعـلاه، وهو مغربي مقيـم بين جنيف وروما، تعْلم عن الحاج النصـري أنـه راكـم ثروة هائلـة بطـرق غامضة، ولمـا تمكنت مـن الاتصال بـه، وكان في شـيكاغو، عرضت عليـه معطيات احتمـال بيع ملكه لمشـترٍ قل نظيـره، وتعبت كثيـرا في إيجاده وإقناعـه بقبول الثمـن الذي حدّدتـه في عشـرة ملايين درهم، أي يفـوق بمليـونٍ ونصـف السـعر المرجـوَ مـن مخاطبهـا، وختمـت أن الصفقة لن تتم إلا بتنازلـه لها عن ثلثي هذا الفرق وتخويلهـا الحـق فـي تخصيـص الباقـي لمسـتحقات الوكالة والتوثيـق والضريبة على الأرباح ومسـتلزمات أخـرى. وأثناء عرضهـا كان الرجل يكرر متحمسـا قبول شـروطها وتذكيرها أنـه وكلها بوثيقة وأنابها عنه في كل شـيء؛ لكنها طالبته بوثيقة أخـرى يقر فيها بما اشـترطته ويرسـلها غـدا بالبريد الأسـرع، فوعدهـا بذلـك علـى أن تـودِع مـن بعـد نصيبـه فـي حسـابه البنكي الخاص.

-٢١-

بإذن من السّت الرئيسة تغيب زيد عن الوكالة يوما كاملا خصصه لشراء سكوتر وتوفير لوازمه ووثائقه. وفي عصر اليوم التالي ركن دراجته قبالة عمارة عمله، وبينا هو يقفل محركها ويتخلص من خوذته، تقدمت نحوه حارسة سيارات الزنقة، وأخذت تحملق في وجهه متعجبة ثم استفسرته:

- واش أنت العساس اللي كنتْ كرفستك من قبل واخْليت دار بوك؟!

- هو أنا يا بنت الكلب...

- خويا كنتِ طلّعت ليّ الدّم، ودابا زد سَبّْني واضربني إذا بغيت، راه (مغنيةً) بلا عداوة ما تكون محبة يا حبيبي/ وخلاصْ عليك من هذْ الغضبة يا طبيبي... أو هايْ هاي هاي، الموتور والكاسك واللباس الزين! ما نْتقدو... إذا اكْرمتني ودورت مع اختك، موتورك أمانة في عنقي... خْذْ بطاقتي صوّرها وردها ليَ غدا... سر لخْدمتك وسامحني أخويا.

سلمها زيد ورقة من خمسين درهما، أخذ لها صورة فوتوغرافية بهاتفه وهي فاغرة الفم ثم صعد إلى مقر عمله حيث استقبلته عفاف ونعمى بالتهاني على دراجته التي

رأتها من الشرفة، وتمنتا له من بعدها الحصول على سيارة. شكرهما وسألهما عن بويا عمر، فعلم من النائبة أنه أخذ قسطه من عطلته السنوية، وعن نعيمة فقالت: تزوجت، طارت مع طيار. ولما استوى على كرسيه، اطلع على ملف وبطاقات وسجل على هوامشهما كلمات في انتظار أن تذهب نعمى إلى حال سبيلها، وكذلك كان. عندئذ سارع إلى استفسار عفاف عن أمر المصري، فأخبرته أنه أقبل بالأمس يطلب مزيدا من التبريرات لتأجيل عقد الصفقة معه، فكان له ما أراد ولو أنه ختم قبل انصرافه: حأنتظر عشان عيون نعمى... لم يأبه زيد لهذا الكلام لكنه حذّر من أن الإكثار في التسويف والتماطل قد يفوّت على الوكالة صفقة ثمينة. طبطبت النائبة على كتفه وطمأنته على اهتمام الست المديرة بالأمر وحسن تدبيرها له، ثم أوقفته ووضعت على رأسه خوذته وقالت معجبة إنها تواتيه، وشبهته بضابط ممتاز في الوقاية المدنية. تشمّم من حوله وسألها عن المديرة فأجابت أنها في مهمة...

وقتها كانت الست صحبة الحاج النصري في زيارة للفيلا الموعودة التي أهداها إياها عن طريق بيع لا تشوبه قانونيا أي شائبة. علامات التأثر البالغ استأثرت بها وكادت تخرسها وهي تنتقل من الصالون ذي الأثاث الباذخ إلى الغرف المفروشة والمطبخ والحمام وقاعة الصونا والرياضة، فإلى الحديقة الفسيحة ذات المسبح الفسيح والغروس الفواحة والأشجار الوارفة الظليلة.

حين جلسا جنبا لجنب في غرفة حميمية أمام طاولة خفيضة مليئة بشتى أنواع المأكل والمشرب، بادر الحاج إلى تسليم جليسته مفاتيح الفيلا ووثائق ملكيتها المختومة. سألته، ودمع السرور يسبقها، كيف تعبر له بالكلمات عما يجيش في صدرها من مشاعر الاعتراف الصادق والامتنان العميق، فسألها بدوره كيف يشكرها على السعادة التي عاشها في رفقتها ووفائها له بالرغم من أنه بات عاجزا عنها. فاتحته في أمر ابنه جمال، وكانت على وشك إخباره بزيارتها له لو لم يدْعُها إلى نسيان موضوع امحى اليوم تماما من مشاغله وأولوياته. وأسماء تعلم أن ما يتصدر هاته هو وضعه الصحي المتدهور واختلال وظيفة البروستات عنده. لذا كانت ليلتهما حتى منتصفها على شاكلة لياليهما الأخيرة في عشهما العشقي: شهوانيةً ممتعة، ترفقها عمليات دلك يتلقاها الحاج من معشوقته وهو في أوج الهناءة والاسترخاء.

حين حل وقت الفراق، بعد أن وعد الحاج زوجته هاتفيا بعودته إليها، انفجرت أسماء بالبكاء مغالبةً إحساسا بأنها لربما لن ترى وليّ نعمتها بعد ليلتها هاته، فانهالت عليه بالعناق والتقبيل، كأنها تذخر من ذلك لأيام الذكرى والحنين. ولم تفكَّ طوقها حوله إلا حين استعجل ذهابه لتناول أدويته وأخذ قسط من النوم، ثم أثنى على أمين الفيلا ونصحها بالاحتفاظ به في خدمتها، كما أوصاها بتوظيف سائق يحظى بثقتها، وقبّلها قبلات شعر هو أيضا أنها قد تكون الأخيرة. ختاما توجه إلى

موقف سـيارته طالبا منها العـدول عن مرافقتـه وأن تنام قريرةَ العين، مطمئنة.

وحيدةً طافت بفضاءات الفيلا الداخلية سـائلةً نفسها: أكل هـذي الخيرات لـي؟ ثم أقفلـت كل الأبواب وقصـدت غرفة النـوم حيث تجردت من لباسـها وتهاوت على السـرير الوثير، تتجاذبها أحاسـيس الفرح الغامر والحزن اللّاسـع. وفي ظلها أخذها النوم متأرجحاً بين الهدوء والارتجاج.

صباحـا، أمضت السـت سـاعة فـي الحمـام تسـتلذ بالماء الدافـئ والتنظيف. وبعده ارتدت القميص المنشّـف وأخذت تفتـح المخـادع والخزانـات، فـإذا بإحداهـا ملأى بالفسـاتين وألبسـة أخرى، تعلوها بطاقة إهـداء إليها وموقّع عليها بحرفي ع.ن.؛ ارتـدت فسـتانا أزرق فكان على مقاسـها، سُـرّت بهذه الهبـات الكمالية وخرجت إلى الفيرانـدا بحقيبتها، فإذا بالقيّم يحييهـا بـأدب وينعـت لها طاولـة الفطور وناقوسـا تسـتعمله لإحضـاره، ثم انصرف معلنا اسـمه: محمـود. اقتاتت بما حلا لها وطاب. انتبهت إلى الساعة المشيرة إلى العاشرة، فسارعت إلى مهاتفة عفاف لاسـتخبارها عن المسـتجدات؛ علمت منها أن إرسـالية من شـيكاغو بالفيدكـس قد وقّعت على تسـلمها. كتمـت ابتهاجهـا بالخبر، وأبلغـت بالتحاقهـا قريبـا بالوكالة، وبعدهـا وصلتهـا مكالمـة مـن نجـلاء تترجاها قبـول دعوتها إلى حفل عشـاء في بيتها مسـاء غد، فوعدتها فـورا بالحضور،

وكأنها تريد بالمناسبة أن تحتفي أيضا بنفسها المشمولة بحسن الطالـع والهبات الهائلةِ المفرحة. تهيأت للخروج، أخذت من محمـود رقم هاتفه لإخبـاره بيوم عودتهـا وتعرفت على كلبي الحراسـة، ثم اسـتقلت سـيارتها متوجهةً إلى مقـر عملها فيما زخات مطرية تبشـر بهطول ماء من السماء ينفع الناس ويسقي الأرض العطشى.

في مكتبها فتحت الإرسـالية واطلعت على وثائقها، توهج وجههـا حبـورا واستبشـارا فـي اللحظـة التـي أقبلـت عفـاف مستفسـرة عن فحواها، أنبأتهـا بما اطلعت عليه وييسـر توثيق العقـد نهائيـا مع المصري فـي أقرب وقت. كلفتها باسـتدعائه ومحاولة إقناعه ومن غير إلحاح بتخفيض مبلغ البيع المصرح به حتى تخفَّ قليلا على الطرفين مستحقات الضريبة، على أن تكون نسـبته معقولة غيرَ مثيرة للشـبهات. أكـدت عفاف قبول مهمة اعتـادت على أدائها، وتنبأت باسـتجابة المصري لها إما عشـان عيونها أو، كما يقول، عشان عيون نعمى. ولـمّا سألتها المديرة عن زيد ارتأت المسـؤولة، تجنبا لتعكير صفو مزاجها وابتهاجها، أن تدعي أنه مصاب بزكام حاد امتنع إثره عن العمل حتـى لا يُعديَ أحـدا، وأضافت أنها عادته في بيتـه وتبينت أنه يتماثل للشـفاء. استفسـرتها عن هذا البيت كيف هو، فتنهدت عفـاف ووصفتـه بالبيت الصفيحـي غير اللائق، تغـزوه رطوبة البحر وتحوّله الشـمس إلى فرنٍ إذا حرّت. وعن أمه قالت إنها تعمل مؤنسة، كما يزعم زيد، عند فرنسية عجوز تعيش وحيدة مع قططها في شقة بعمارة عصرية مجاورة لدور الصفيح.

أحجمت النائبة عن مساءلة رئيستها أين قضت ليلة البارحة، كما أرجأت هاته إبلاغها بشرى تحقُّقِ حلمها الذي حدثتها عنه من قبل، ثم وعدتها بتحسين أحوال زيد وأمه، وأوصتها بتدبير ملف المصري حالا على أن تتم الصفقة في مكتب الموثق غدا بُعيد منتصف النهار. من هاتفها دعت إلى غداء صديق الوكالة، الموثق المحنك يونس بن عمار الذي كانت له معها صفقات مربحة. في المطعم أطلعته على شهادتي المالك: واحدة يتنازل لها بموجبها عن مليون درهم تقتطع من حصته كبائع، وثانية ينيبها فيها عنه للتصرف في نصف ذلك القدر لتغطية مستحقات الوكالة والموثقية وما يليها. قرأ الموثق الشهادتين بتمعن، فأقر بقانونية منطوقهما وخواتهما. ولما سأل جليسته عن المبلغ الذي سيصرح به، أمهلته فهاتفت نائبتها التي أبلغتها أن المشتري كان في نيته المطالبة بما تقترحه عليه وسيدفع بالسائل في الوكالة ما لن يُصَرح به إن شاء الله. ولـمّا تمت المكالمة أعلنت الست أن المصرح به سبعة ملايين ونصف من أصل عشرة، وأضافت متوردة الخدين، لامعة الابتسامة والعينين: والبونيس مضمون لك يا صديقي الأمين... حالئذ شرب الرجل كأس نبيذه على صحة جليسته ودوامِ معاملاتهما الشفافة المثمرة.



صباح الغد، بقدرة قادر، تم كل شيء بسرعة هائلة: المصري يحضر إلى الوكالة حاملا حقيبته، يصيح: صباح

الفلّ على الحلوين، يطيل النظر إلى نعمى، يسأل عن الاستاذ زيد ويقترح تشغيله إن كانت الوكالة استغنت عنه، وعفاف تقابله بابتسامة عريضة وتقول عن زيد إنه في مهمة ثم تجذبه بلطف نحو الباب للحاق بمقر الموثق حيث موعده مع الست المديرة.

في مكتب الموثق قُدّم للأفندي والنائبة الشاي والحلاوي. بعد سويعة أقبلت الست أسماء محيِّية، معتذرة عن تأخرها، قام الجميع لمصافحتها وتحيتها. عرض الموثق على الطرفين نسخة من عقد البيع وطلب منهما قراءة كل بنوده فالتوقيع عليه في حال المصادقة. تسلمت عفاف من المشتري حقيبةَ المبلغ غير المصرح به، وتأكدت بعينها الثاقبة من مقداره. إذذاك وقّع الطرفان العقد ودفع المشتري شيك مبلغ البيع المتفق عليه في اسم الموثق وآخر عن تعويضات التوثيق وحقوق التسجيل والتحفيظ، ثم أمرت المديرة نائبتها بتسليم مفاتيح الفيلا للأفندي حسني حسن رياض، وبارك له الجميع في ملكه الجديد، فشكرهم واسعا فيما عفاف تنهال عليه بمحفوظاتها من الأدعية المناسبة، ثم قاموا للإنصراف متصافحين، متواعدين على لقاء قريب لإتمام ترتيبات مصاحبة. انصرفت عفاف يتبعها الأفندي، وعللت أسماء بقاءها بانتظار زبون آخر.

أما زيد الغائب عن تلك الجلسة، فكان في مشفى عمومي، طريحَ سرير بين مرضى كثرٍ، تلف ضمادة رأسَه وعصابةُ

جبس يدَه اليسرى، وآثارُ رضوض على عينيه وحنكيه. كانت أمه جالسة جنبه، ترفع يديها متضرعة تدعو على المعتدين وموصلي ابنها الأوحد إلى «السبيطار»، وتدعو للبنت القاعدة أمامها على كرسي بالخير وأعز ما تتمناه لكونها حامت على قرة عينها وأنقذته من الهلاك. وكانت هذه البنت تواسيه وتلبي ما يطلبه أو يوصي به، كما تطمئنه على حاله وقرب عودته إلى عمله. وحدها عفاف هاتفها زيد لإعلامها بما حدث، متسترا عن هوية المعتدين، راجيا منها عدم إخبار السيدة المديرة بأي شيء.

وجاء في محضر الشرطة أن المسمى الزايد أمحزون تعرض لاعتداء مبرح من طرف ثلاثة مقنعين، قال إنه لا يعرفهم؛ وقالت حارسة السيارات المدعوة يطّو أمعيز، إنها تبعته لتذكيره بأخذ دراجته سكوتر، فشاهدت ثلاثة شبان يجذبونه إلى درب مظلم وينهالون عليه بالضرب واللكم، وكانوا سيقضون عليه لو لم تقاومهم وتجعلهم يفرون بصراخها واستغاثاتها، ثم إنها ائتمنت بقالا تعرفه على السكوتر وعادت إلى الجريح لتصحبه في تاكسي إلى المستشفى.

-٢٢-

غداة يوم عزَّ نظيره، زاخرٍ بالمسرة الجامحة، الناجمة عن مكسب عظيم وعمولات معتبرة، استيقظت أسماء من نومها الهادئ الهنيء في عشها العشقي، منصرفةَ الذهن إلى وليّ نعمتها بالاعتراف والامتنان، داعيةً الله له بطول العمر المقرون بالشفاء والصحة والعافية. وفجأة قفزت إلى ذاكرتها أشتات رؤيا منامية مدارها مداهمة ابنها حسان لغرفة جمال ومن معه، فطعنهما بسيف ومزقهما إربا إربا ثم لاذ بالفرار. لكنها حمدت الله على كون الرؤيا إن هي إلا أضغاث حلم ما فتئت أن طردته وضربت عنه صفحا، كيما تدوم فرحتها غامرةً عارمة، لا ينغصّها شيء ولا تشوبها شائبة.

يومه الأربعاء من هذا الفصل الربيعي، تريده أسماء مطبوعا بميسم خاص ومكللا بحضور مميز في حفل عشاء عند نجلاء. نهضت للإغتسال والنظافة، ثم جمعت بعض ألبستها وأغراضها الخاصة في حقيبتين، ولم يوقفها إلا نقر على بابها ودعوة عفاف لها بالخروج. استجابت الست وعانقتها بحرارة ثم جلست جنبها في المكتب أمام مائدة اختلطت فيها صحون الفطور والغداء. استنتجت أنها نامت كثيرا ورمقت الثالثةَ ظهرا في ساعتها. قالت:

- هـو نوم الراحة بعد التعب والجـري، وهذا القوت يحلو الآن ويطيب... أش فعلتِ هذا الصباح؟

- تسلمت شيكين من الموثق، واحد باسمك والثاني باسم الوكالة. خذي الوصلين، وغدا أحوّل إلى حسـاب المالك في بنكه المفضّل المبلغ المتفق عليه.

- واحدة مثلك عمري ما شفتها، تبارك الله عليك!

- يـا حبيبتـي، منـك تعلمـت كل شـيء... فـي الوكالـة ما فيـش غيرنا، خبريني أنا القريبـة منك: فين قضيتِ الليلة ما قبل هذي؟ أمارات الفرح بادية عليك وهذا يسعدني، لكن أش هو السبب؟ وإذا كان فيه مانع، انسي سؤالي.

- لا، معـك أنت ما فيـش مانع... تذكّري مـرة ادعيت أني حلمـت نفسـي ملكـت فيـلا وضيعـة. اليوم هـذا الحلـم اللي شـفتُ حتى وأنـا متيقظة صار حقيقـة. الحاج النصـري، يكثّر خيرو، اشـتريت منو فيلا بمالو... انتِ وحدك عفاف أقول لك هذا السر...

- عمري مرة فشيت أسرارك؟ عمري مرة خنتك أو تخليت عنك؟

- لا أبدا.

- إذن بارك الله في متاعك، واعطاك معه الصحة والعافية... اسمعيني أعبر لِك عن شعوري:

ثـم أطلقت زغاريـد وغنّت: «هنيـة ألالة، هنية فـي دارنا»، وأمطرتها بالقبلات الحارة الصادقة، وبكت من شـدّة الانفعال والتأثر. اسـتأذنت أسـماء فـي الذهاب إلى العـش قصد تهييئ نفسـها لحفل المسـاء. وحيـن خرجت إلى البهو وسـألت عن زيد، انبهرت عفـاف بجمالها الفتان وأناقتهـا الأخاذة، وقالت عـن زيـد إنـه عائد إلـى عمله عمـا قريـب. وعلى عتبـة الباب أوصتها أن تبقى معها على صلة.

أتـت السـت متقدمة علـى الموعد كمـا طلبـت صديقتها. تعانقـا وعبـرت كل واحـدة عـن إعجابهـا بجمـال الأخـرى وروعـة زيها وهندامها. جلسـتا تحت مظلة فـي الحديقة، فيما إعـداد الخدم لمأدبة الحفـل على قدم وسـاق. تحادثتا، وهما يرشـفان مرطبـات، في أخبـار أهمها انتحـار امـرأة التراضي، الـذي حـال دون حضور راضية حفـل هذي الليلـة، وحدا بها إلـى تقصـي آخر سـطر في قصـة المنتحـرة. قالـت المضيفة:

- صاحبتنا وافتني بموجز حكايتي، وحكايتك تصلك منها عما قريب، وتلح على عقد جلسة لإتمام مشروعنا.

- امـرأة عجيبـة (عقبت أسـماء)، فيها ما يجـذب وفيها ما يحير أو يخيف!

- لا، اطمئنـي حبيبتـي. الحيـاة عندهـا لعب ولهـو، وكلنا فيها، حسـب زعمهـا، نمر مرور السـحاب، وعلينـا أن نخلّف

أثـر عبورنـا ولو إلـى حين. لها أسـرار خافية عنـي، لكنها مش شريرة... دعينا من هذا وخبريني عنك.

- الوكالـة بخيـر، رقم الأعمال يتحسـن. وضعـي الزوجي قـار، لا جديد. متاعب مع ابني ادبرها بالهداوة... على العموم حالتي جيدة...

كانت أسـماء على وشـك أن تُسِـرَّ لصديقتها الوفية بتحقق حلمها اليقظ حين أقبل زوج نجلاء، وهو رجل مهذب، مهيب الجانب، أنيق الملبس، فانحنى يقبل يد أسماء، وقال مداعبا:

- هـذي شـهور ما شـفتك. فين السـت أسـماء؟ مشـغولة بأعمالهـا أو مسـافرة، تردّ علـيَّ نجلاء. وحتى أنـا كثير التنقل. أش نعمل؟ هي ذي الدنيا!

- أنتَ يا سـيدي سعد جنتلمان حقيقي والزوج الوفي لأعز صديقـة عندي. وأيّ رجل سـويّ يغبطك عليهـا. وأنتَ تغيب وأنا أغيب، وكل غيبة تزيدنا هيبة...

- الله الله على كلامك الحلو! يا نجلاء هاتني بوسـة حتى تكون لي حلاوة على حلاوة.

استجابت له الزوجة فرحةً مرحة، ثم قال قبل أن ينصرف:

- كل المدعويـن يـا مـدام أسـماء أزواج محترمين، إلا من واحـد تربطني به علاقات مصلحية فقط، له أموال يديرها ابنُه، أما هو فيسافر ويلبي كل الدعوات اللي فيها أكل وشراب، لكن

من دون زوجتو. يحسب نفسو دون جوان مع أنو ثقيل الظل وعندو العجينة في مخو. صعب أضعُه في طاولة غير طاولتنا، إذن أنتِ حبيبتي على يمينو وعجوز ثرثارة على يسارو، وأنا والمدام قدامكم. ومرة مرة نتناوب على مجالسة المدعوين في الطاولات الأخرى... أمشي الآن أطل على الباب.

نهضت الصديقتان في جولة تفقدية من رحاب الحديقة الحافلة بطاولات المأدبة وزوايا البارات إلى فضاء الصالون الوسيع المزدان بالأثاث الفاخر ونغمات بيانو حالمة يوقّعها عازف أعمى، أشادت نجلاء، وقد دنتا منه، بموهبته الأصيلة ومهارته المعتبرة، فرفع رأسه شاكرا، واشتم الهواء ملء أنفه سائلا عن إسم الواقفة جنبه، قالت أسماء بعد تردد: إلهام. ترجاها أن تدنو منه أكثر، وهمس لها بين نقرات خافتة: اسمك يا إلهام يلهمني وكذا عطرك. معزوفتي الآن أهديها لك... ثم توقف قليلا وتنفس عميقا قبل أن يعزف قطعة من أوبيرا كارمين لبيزت. وقتها كانت نجلاء مع زوجها تستقبل فوج الضيوف الأول، تسلم عليهم وترحب بهم أيما ترحيب، ثم وجهت بعض النساء نحو صديقتها وقدمتها إليهن: مدام سناء زوجة الحاج الادريسي الموجود الآن في العمرة... وتركتها إثر هذا التقديم تختلق بدورها ما تشاء حول مهنتها وانشغالاتها. نبرات البيانو كانت تقلل من زحم الكلام بينها وبينهن، مما جعلهن يتدافعن نحو الحديقة وباراتها. وتلك حيلة من حيل نجلاء اللعوبة الذكية، استعملتها مجددا مع

بعض النسـاء والرجال الوافدين تباعا، حتى إذا انقطع سـيلهم لحقـت بأسـماء وبثت فـي أذنهـا: ترين كيـف عصمتك! الآن الصالون ما بقى فيـه غير العجائز، ومنهم أمي المصابة بمرض آيزايـمر. سـيري سلمي عليها وما تدهشـي إذا ظنتك أنتِ هي أنا. أما ثقيل الظل اللي كلمنا زوجي عنو فراه يتنقل وأشباهو بين أركان البارات، وسعد يقيس نجاح السهرة بالإقبال على هذي الأركان، لكن اللي خرج عن طورو يكلف من يعزلُه أو يسلمُه لسـائق سيارتو... الآن تعاليْ افرجك على بعض المخلوقات.

فـي الفيرنـدا كان جمـع من الضيـوف يرقصون الـورك آند رول على إيقاعات أغنية ري تشـارلز الشـهيرة *What'd I Say* ويهتفـون معـه: إيـه... إيـه... أوه... أوه... وفيمـا الصديقتان تدليان بدلوهما في مشـهد أجسام سـرت فيها حميّا الموسيقى والكأس، إذا بنادل يهمس في أذن ربة الحفل كلمات مفادها أن سيدة اسـمها عفاف تطلب رئيستها في شأن عاجل... ارتبكت نجـلاء واندفعـت صحبـة أسـماء إلى الخـارج حيـث لقيتهما الطالبة بابتسـامة عريضة، وادعت أن الأمر هين، يستلزم غياب السـت المديرة عن الحفل بعض الوقت لفتح مكتبها وتسـليم نسـخة من عقد مهم إلى رجـل أعمال ينتظـر الآن في المطار. واقترحت أن تأخذ السـت معها في سـيارتها. حاولت أسـماء إخفـاء انقباض وجهها وائتمنت صديقتها على مفتاح سـيارتها بعد أن أخرجت منها حقيبتها.

بعيد الانطلاق بقليل أوقفت عفاف السيارة وقالت: رجلك يا حبيبتي يحتضر، وهاتفك ما يرُدّ. اجلسي خلفي، البسي هذا الجلباب، امسحي الماكياج، رشي وجهك بهذي القارورة من ماء الورد، ضعي هذا الحجاب على رأسك وسلميني هاتفك... وفيما السائقة تؤم منزل المحتضر، أجرت المنصوحة كل ذلك، وتدربت على الإمساك عن الكلام كيلا تترك شعورها بالانعتاق يتبدى أو افتعالها للحزن ينفضح. وحين ولجت غرفة النوم متبوعة بمرافقتها، وقف الفقيه المختار وزوجته وابنته للسلام عليهما، إلا ابنها الذي ظل على هيئته، مغمضَ العينين، مكبا على وجهه. انحنت صوبَ رأس المضطجع على شقه الأيمن وقبّلته ثم قعدت حذاء رجليه المدثرين كجسمه، وكذلك فعلت عفاف مرسلة دموعا وشهقات ما فتئت عدواها أن انتقلت إلى الدانية من الترمل والمرأتين الأخريين، فنهاهن الفقيه الجالس جنب رأس المحتضر، تاليا آيات قرآنية ونظره إليه مصوب. وفجأة توقف وأعلن الوفاة: هذا الرجل وافاه الأجل المحتوم، مات شاهدا مسلما ورحل عنا إلى دار البقاء، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

انحنى حسان مقبّلا الميت بين عينيه، حابسا دموعه، وكذلك فعلت النساء باكيات، حتى إذا غطّى الفقيه وجهه جذب الإبن إلى أمه فتعانقا لحظات، وحذت حذوها عفاف معزيةً مواسية، والمرأتان الأخريان ترددان: عزاؤنا واحد، الله يقوي محبتكم بالصبر... وأقبل بعض الجيران معزين،

عارضين عونهم وخدماتهم؛ ثم سهر جمع الأقارب الليلَ ما تبقى منه حول جثمان المتوفى، والفقيه وحسان يتناوبان على تلاوة آيات تلو أخرى. ولما أذن المؤذن لصلاة الفجر، قام الرجلان لأدائها في بيت مجاور. عندئذ سلمت أسماء مفاتيح مكتبها لعفاف لتجري مكالمات وتجلب منه ما لا يوجد في ظرفين، ثم صعدت إلى غرفتها لتغسل وجهها وترتدي جلبابا أبيض استعدادا لاستقبال المعزين. وحين عادت إلى الجمع أوصت الحاج المختار بالسهر على تهييئ مراسيم الجنازة كلها، على أن تتكفل هي بنفقاتها، فطمأنها وقال إن هذا واجب عليه عينا كجار وصديق حميم للمرحوم وأخٍ له في الدين، ثم دعاها والنساء الأخريات إلى الغرفة المجاورة، وشرع بمساعدة حسان وجارين في غسل الميت وتجميره وتبخيره وتطييبه، وبعد ذاك لفوه في ثلاث لفائف بيض، ونقلوه في محمل إلى وسط الدار تجاه القبلة، وغطوه ببردة خضراء خيطت عليها كلمة «لا إلاه إلا الله».

لما عادت عفاف، تسلمت أسماء الأمانة وعلمت منها أنها نعتْ لبعض معارفها وفاة زوجها، ثم تحينت فرصة مقابلة الفقيه، فأعطته الظرفين خفيةً، وسألته عن حسان فأنبأها أنه ذهب وبعض صحبه للحصول على مثوى للفقيد في مقبرة الشهداء وتيسير الدفن قبيل صلاة الظهر. وما إن انتصف الصباح حتى بدأ المعزون يتقاطرون تتصدرهم نجلاء وراضية ونعمى اللائي ظللن إلى جنب الأرملة يواسينها متحسرات

باكيات. محتميةً بهن قدمت لهن أقارب المرحوم الحاضرين، وجلست بينهن صامتة، وراضية تهمس في أذنها: احزني يا ستّي، احزني أكثر...

قبالة الجثمان شرع القراء في تلاوة سورة يس، وأتبعوها ببعض الأذكار وختموا برفع عقائرهم بالأدعية للعبد المتوفى، المتخلصِ من قيد الحياة الدنيا ومتاعها ومتاعبها، الملتحقِ بالرفيقِ الأعلى، ربِّ العالمين وخالق الأرض والسماوات وما بينهما... وحين عاد حسان ورفاقه الملتحون، صاح أحدهم: قرُبت الصلاة على الميت والتكبيرات الأربع يا عباد الله، فلا بكاء ولا نياحة، بل تهاليل وزغاريد لمن ندعو له بالرحمة والغفران، وبالجنة يدخلها عريسا بين الأتقياء والأخيار والصالحين. قولوا آمين وإنّا لله وإنا إليه راجعون... ردّد الجميع آمين وأطلقت نساء تتصدرهن راضية زغاريد لما أن رأين رجالا يتقدمهم الفقيه المختار والابن حسان يرفعون محمل الميت على أكتافهم متوجهين إلى الجامع ثم بعده إلى المقبرة. وظلت النساء في الدار، بعضهن تبكين وبعضهن يتناجين بالهمس والإشارات. أرسلت أسماء نعمى إلى الوكالة لتجيب على المكالمات وتنتظر قدوم عفاف الخائضة مع نساء أخريات في إعداد المأكل والمشرب، ثم أنبأت صديقتيها اللصيقتين بها بامرأتين قبالتهن من أقارب المرحوم توجهان إليها نظرات شزراءَ حادة. نصحتها راضية

أن تتجاهلهمـا ولا تعبـأ بهما، وعانقتها وبثـت في أذنها: هذي خاتمـة تنبأت لـكِ بها. صفحة إذن تُطوى بشـرط أن تُروى في حِكايـة حياتـك. طبعا الظرف غير مناسـب للـكلام فيها الآن، لكن ابقي حزينة حتى نهاية المراسيم، سيما وأنو ممنوع عليك الاحتفال بحلول السنة القادمة...

بعـد صلاة الجنازة وحمل المتوفى إلى مثواه الأخير، رجع الحـاج المختار وحسـان وصحبه وآخرون، جلسـوا في غرفة خاصة بهم، وقُدمت لهم كما للنسـاء فناجيـن القهوة والفطائر والسـمن والعسـل وبعدهـا وجبـة الغـداء، حسـبما جـرت به العادة والأعراف.

في أول أيام العدة تلقت أسماء في الوكالة تعازي زيد وبويا عمر وبعـض الجيران والمعارف. أما الحـاج النصري فاكتفى في ذلك بالهاتف، مطمئنا سائلته على حالته الصحية، ولو أنها استشعرت من ضعف صوته وتهدجه غير ذلك. وفعلا لم تمض أيـام حتى قـرأت نعيه في بعض الصحـف، وأكدته للمصدومة عفاف باكيةً، ونصحتها بالإمسـاك عـن تعزية أهله تجنبا لإثارة أيِّ شبهات، ثم بالإقدام بعد بضعة أيام على الانتقال إلى الفيلا لا تبرحهـا إلا يـوم الذكـرى الأربعينيـة لوفاة زوجهـا، على أن تظل هي صلة وصل بينها وبين الوكالة والخارج.

قبيل مساء يوم أحد من أواخر سنة ٢٠١٢ وخريفها، غيرت أسـماء بياض لباسـها بلون أسـود ثم قصدت إقامتها الجديدة

فـي سـيارتها العاديـة صحبـة نائبتهـا ومستشـارتها الوفية. في المرأب اسـتقبلهما القيّم محمود بالحفارة والترحاب ولـم يقل عـن الحاج النصـري إلا كلمات الترحم علـى روحه الطاهرة، طالبـا مـن المالكـة الجديدة إن كانـت تريد إبقاءه فـي الخدمة أم تسـريحه، أجابت بتودد وحنان: رجـل صادق بحالك حرام تغييـرُه، والمرحوم كان يعزك... شـكرها الرجل متأثرا، طالبته هيَ أن يكتفي بإنارة الحديقة والصالون ثم يذهب لأخذ قسطه من الراحة، وكذلك فعل.

افتتان عفاف بفضاءات الفيلا وحديقتها كان قويا، تعبر عنه بالكلمـات والإشـارات، ولا تفتـر عن ترديد: تبـارك الله! كل هـذي الخيرات مـن فضل اللـه، يعطيها لمن أحبهـم وقربهم، وأنتِ يا حبيبتي منهم...

دعـت أسـماء صديقتهـا للجلـوس حذاءهـا، شـاكرة لهـا أحاسيسـها النبيلة، ووجهُها يغمره اكتئاب شديد، ثم انفجرت بالبـكاء بين ذراعيْ جليسـتها، معللةً حالتهـا بحزنها على وفاة رجـل خيّـر كريم لم تـر ولن تـرى مثيله أبـدا؛ وقالت سـتبقى متشحة بالسواد إلى آخر يوم من أربعينيته، لا تغادر إقامتها ولا تقتات إلا بالنزر اليسير. عبرت لها عفاف عن تعاطفها وتفهمها وكـذا عن اسـتعدادها لتوزيـع وقتها بين الوكالـة والفيلا حيث تخدمهـا وتؤنسـها وتبيـت معها. ضمتها أسـماء إليهـا متحننة ممتنـة، سـائلة: كيـف أجازيك يا أعـزّ حبيبة، كيـف أجازيك؟

جاوبتها: بشي واحد... تقومي للنوم في الحال على أن أدبر أنا قبل نومي وضع الغرف وحاجيات المطبخ. وكذلك كان.

في الصباح كانت المرأتان في الفيرندا حول طاولة الفطور التي أعدها القيّم بإتقان، وظل، بعد أن حياهما، رهن إشارتهما على بعد بضعة أمتار. اكتفت عفاف بإبداء إعجابها بمهنية الرجل واستقامته. رأت من احمرار عينيْ جليستها أنها لم تنم جيدا وأوصتها بالاسترخاء والراحة، ثم استأذنتها في أخذ سيارتها لقضاء أغراض في منزلها والوكالة، متعهدة بالرجوع قبل حلول المساء. وفي طريقهما إلى المرأب ترجتها أسماء أن تختار من فساتينها في العش العشقي ما تشاء، هديةً متواضعة. شكرتها مسبقا واستأذنتها بترحيل أثاث الغرفة السرية في الوكالة إلى منزلها مؤقتا، ووعدتها أن تتخذ لهذا كل إجراءات الحيطة والتخفي، فأذنت لها ثم قفلت راجعة إلى غرفتها لتستعيض ما فاتها من نوم ليلةَ البارحة، التي هيمنت عليها روح المرحوم النصري وذكرياته.

يومـه الاثنين، أنبأت عفاف موظفـيْ الوكالة الحاضريْن أن السـيدة المديرة ستتغيب أياما بسـبب العِدة، وأمرتهما بالعمل الجدي كما لو أنها في مكتبها تنظر وتراقب. رنّ جرس الباب، تقدم رجل أجنبي حسن الهندام. خاطب النائبة بفرنسية لكناء، مفادهـا أنه إيطالي يريد شـقة متواضعة في حيّ شـعبي، لكونه مكلفا من قناة تلفزية في بلده لم يسـمها لإنجاز روبورتاج عن بعـض الأحيـاء الفقيرة، ويلزمـه عنوان قار حتـى يحصل على رخصة السـلطات المحلية. تدخل زيد طالبا منه بطاقة تعريف فقـال إنها في حوزة مسـاعده الذي ينتظره في طاكسـي بجوار العمـارة، وألح على زيارة الشـقة أولا قبل أي إجراء. سـمعت عفـاف مـن زيد كلمات مهموسـة لـم تعبأ بها وسـلمته مفتاحا واحدا يناسب الطلب في حي التقدم.

قبـل التوجه إلى العنوان المسـجل، أرْكَـب زيد خلفه على السكوتر الحارسة يطّو وقال لصاحب الطاكسي أن يتبعه. أثناء الطريـق كانت الفتـاة تطوّق نطاق سـائقها بيديها وتضع نصف وجهها على ظهره، باعثةً تنهيدات وزفرات مصحوبة بكلمات تعني أنها تحبه وتترجاه أن يتزوجها، من صنف: «أنا احْميك يا حبيبي وانت تسـترني و...»، فهددها بإنزالها لما سـمع كلمتها

الماجنـة الأخيـرة. إذداك ظلت على هيئتهـا تهمس بتمزيغت: انتـي ألحبيبْ جيـبْ لي غَ الخَـبْ، أما الحَبّ عليّ أنـا ألحْبيبه يَطُّو...

عنـد الوصول ائتمنهـا على السـكوتر وخوذته وأشـار إلى الطاكسـي بالوقـوف، فخـرج منه الإيطالي وشـاب وسـيم ذو شـعر طويل، لا تشـي ملامحه إلـى أيّ قوم ينتمـي وأيّ جنس يُردّ. صاحبهما إلى شقة في الطابق الثاني مكتفيا بكلمات تشيد بتدين سـكان العمارة والحي واستقامتهم وتقواهم، سيما وقد لفتت انتباهه حركات الشـاب وإشاراته المشبوهة غير السوية. وحين استفسره الرجل عن سهم الكراء بدا له أن يثلثه دفعا لأي مسـاومة في الموضـوع، وكذلك فعل محدثـا ارتباك الإيطالي وعجبه من ثمن لا يصح، كما أكد، إلا في الأحياء غير الشعبية. وقطعـا للـكلام افتعل زيد مكالمـة هاتفية أعلن علـى إثرها أن مالك الشقة وجد من يشتريها منه.

فـي طريق الإياب ظلت يطّو على هيئتهـا كما في الذهاب، حتى إذا وقف السـائق أمام الضوء الأحمر اقتربت منه شـرطية وطالبتـه بتقديـم أوراقه وبطاقـة تعريف التي خلفه. سـألته عن طبيعـة علاقتـه بها فأجـاب متلعثما: أختي... مـن الرضاعة... ضحكت السـائلة بـكل نواجذها وقالت سـاخرة: وهكذا راها شادة عليك كل هذ الشدة!... وأضافت: رخصتك تمنع عليك تركب شـي احـد من دون كاسـك. خذ أوراقك هـذ المرة من

حيث ضحكتني، واختك من الرضاعة تكمل طريقها على رجليها أو تاخذ طاكسي... سلم زيد ليطّو نقودا وتابع وجهته نحو الوكالة.

بدا المرشد العقاري أمام النائبة ونعمى كالح الوجه، متوترا. سألتاه عما حدث فحكى لهما سخرته البائخة ونفوره من الإيطالي ورفيقه وحيلتَه للتخلص منهما، فضحكتا خفتا مراعاة لحداد السيدة المديرة، لكنه أخفى قصته مع يطو والشرطية. ومن باب أن الشئ بالشئ يذكر، مع وجود الفارق، رأى زيد الفرصة سانحة لإطلاع المرأتين على أول خرجة له بعد تقلد منصبه الجديد، فروى ما جرى له مع رجل محتال وامرأة متنكرة في هيئة عجوز قدمها كأمه، أراد إسكانها في منزل واطئ بأي ثمن كان. ولما ذكر خروجه بترجٍّ ملحاح من الابن المزيف للبحث عن سجائر للأم المزورة لا وجود لها في السوق ثم عودته هرولةً إلى الدار وقد خلت من الزاني والزانية، حينئذ لم تقو عفاف عن حبس ضحكها، أما نعمى فأصيبت بنوبة ضحك حادة ألقتها أرضا وتحولت إلى احتباس تنفسي مصحوب بتصويتات وحشرجات شبيهة بنزعات الموت، فبادرت النائبة إلى رشها بالماء ثم إغاثتها بالهواء من الفم إلى الفم آمرة زيد أن يفعل مثلها، فتردد ثم استجاب؛ وكانت على وشك الاستنجاد هاتفيا بسيارة إسعاف لو لم تلحظ ميل نعمى إلى التنفس الطبيعي وصدرِها إلى الهدوء بعد

الاضطرام. ساعدتها على الوقوف فالجلوس والتنفس واسعا مع استنشاق قارورة عطر، ثم أمرت زيد بالانصراف حالا وإلا عاودت المسكينة أزمتُها... بعدئذ رجعت إلى مكتبها تنظر في ملفات، وتجيب على مكالمات أو تجري أخرى كان ختامها مع الست أسماء للإطمئنان عليها وإبلاغها أهم المستجدات المهنية.

أما زيد الدّهِش والمتأثر بما حصل لفمه من انطباق على فم نعمى، فما إن غادر باب العمارة حتى واجهته يطو متوددةً مستعطفة، تتوسل إليه أن يضربها حتى ينتقم لنفسه منها ويرضى بإنقاذها من العنوسة والبوار. أنبأها أنه متزوج ولا رغبة له في الكلام، واستغرب لكونها امرأة تتحرش برجل. طأطأت الفتاة رأسها وذهبت إلى حال سبيلها حزينةً مكتئبة، فيما هو يُودع دراجته النارية في مرأب قريب ثم يقصد المسجد لإزالة جنابة قهرية وأداء صلواته والاجتماع في الصحن مع من اعتاد لقاءهم للتداول في أحوال الدُّوار وحاجيات ساكنته. وانضاف إلى الجمع موظف في مجلس مقاطعة يعقوب المنصور، يقطن في تجزئة السكن العشوائي من الدوار، أخبرهم أن صقور المضاربين العقاريين يحومون حول الأحياء كلها بدءً بأرض دور الصفيح للإستيلاء عليها بأثمنة بخسة ووعودٍ كاذبة بإعادة إيواء الأهالي في السكن الاقتصادي. وأوصى الجمع بالتحرك والتعبئة. هتف زيد متبوعا بالآخرين: والله لن

يفلحوا ولو مرّت جرّافاتهم على أجسادنا وارتكبوا في الأهالي المجازر... وكان الهاتف صادقا في وعيده، معربا عن وفائه لأناس الدوار والتحامه بقضاياهم كيلا يدّعيَ أحدهم يوما أنه اغتنى و«قطع الواد ونشفت رجلاه»، كما يقول المثل...

-٢٤-

حيـن عـادت عفـاف إلـى الفيلا، ألفت السـت فـي غرفتها نائمة. ساعدها القيّم على نقل أكياس الزاد والعولة من صندوق السيارة إلـى المطبـخ، حيث أخـذت بمفردهـا بعد استئذان مسـاعدها تضع مواد الاستهلاك في الرفوف وتشحن الثلاجة باللحوم والأسـماك والأجبـان وغيرها. وبعدهـا انهمكت في غسل الأواني مجددا والزيادة في تنظيف المطبخ كله، حتى إذا لمحت أسـماء تقصدها تلقتها بالعناق والتقبيـل متقيةً نظراتها المعاتبـة بالقـول: اللي ما قمت به اليوم في بيتي أقوم به عندك. فيـن الفـرق؟ خليني انْهـي عملي وانـتِ ادخلـي الحمام وفي الفيرندا جلوسنا... عندي لِك كلام كثير...

بعيد ساعة جلسـت الصديقتان حول طاولة حافلة بالمأكل والمشـرب من إعداد القيّم المنصرف إلى مراقبة بستاني يسقي الحديقـة وغروسـها. أحسـت عفـاف أن السـت رقـدت حتى غـروب الشـمس بفعل منوّم خفف من سـهاد ليلتهـا، وارتأت أن تزيـح عنهـا قليـلا وشـاح الحـزن بسـرد بعـض الطرائـف المسـتملحة، فاكتفـت منها بقصة زيد مع الزائـر المحتال وأمه العجـوز المـزوَّرة، فنـدت عنهـا ابتسـامة ما فتئـت أن صارت ضحـكات طليقـة متلاحقـة، فترجتهـا السـاردة أن تتلهى بأيّ

شـيء، ثـم حكت لهـا - علّهـا تعتبر - مـا حصـل لنعمى بعد سماعها للقصة على لسان مرشد الوكالة العقاري...

انفرجـت أسـارير أسـماء. ألقـت نظرة فـي لائحـة مناديها بالموبايـل. لاحظـت اسـم راضيـة مرة واسـم نجلاء خمسـا، فجاوبتها في الحين متلقية منها تعازيها السـرية في وفاة الحاج النصري، مطمئنة إياها علـى حالها، واتفقت معها على مرافقة عفـاف لها عشـية غد إلـى عنوانهـا الجديد. حبذت جليسـتها الدعوة وأثنـت على خُلق المدعوة ووفائهـا. ومن دون فاصل أنبأتها خبر اعتداء حسّـان وعصابته على زيد قبل وفاة زوجها، إذ اضطـر إلـى قضـاء يومين فـي المستشـفى للعـلاج، وامتنع بإصرار عن رفع شكاية ضد المعتدين وحتى عن إعلام السيدة المديـرة بما جـرى. وعطفا على هـذا، نقلت إليهـا عن الحاج المختـار أن الابن العاق ألغى الذكـرى الأربعينية لوفاة زوجها بدعوى أنها بدعة، كما أفتى شيخ «فرقة الخرقة والتقوى» التي ينتمـي إليها، وعيّن لهـا كمقر دار أبيه المرحـوم، كما ادعى... فقاطعتهـا أسـماء صائحـةً غاضبـة: الـدار داري وحـدي وأنا حيّـة... لا حق لهذا المسـخوط فيها... غـدا أكلف من يطردو منها هو وعصابتو...

توفقت عفاف في تهدئة روع السـت وفورتها حين أعلمتها أن الحاج المختار عازم على تعبئة الجيران وإبلاغ السـلطات، إذا ما فشـلت مسـاعيه السـلمية لـدى الإبن الضال فـي إقناعه بوجوب الإفراغ. ووعدتها أن تخبرها يوما بيوم بالمستجدات.

رأت أسماء الفرصة مواتية لزف بشرى إلى صديقتها طالما راودتها فكرتها، قالت:

- تسكني داري حبيبتي... بالمجان.

- يكثّر خيرك، لكن...

- ما فيش لكن. وبعدين أبيعها لك.

- وثمنها أجيبو منين؟

- بمالي أبيعها لك. هكذا فعل معي المرحوم النصري في تمليكي هذي الفيلا.

- شوفت منك خير كثير! وهذا شي ما حلمت به نايمة أو فايقة...

- أنتِ تستحقي هذا وأكثر منو. اسكني في الأول، ومن بعد ندبّر التفاصيل.

ارتمت عفاف على ولية نعمتها تقبلها شاكرةً باكية.

استأنفت أسماء:

- إنما عندي طلب واحد.

- طلبك أمر يا حبيبتي.

- شوية حِمية وشوية رياضة وسباحة. ضروري تنقصي من وزنك... لو كان عندي مايو على قدك لرميتك الآن في المسبح.

- أقول شي وما تضحكي عليّ... ما عْرفش أعوم!

- يا ألله! سهلة... بعد أيام أعلمك خطوة خطوة.

- معك حق. يلزمني أخفّ. جبْت لك فساتينك وعلقتها في مخدعك. ولا واحد جا على قياسي!

- إذن هي في انتظارك حتى تخفّي... والآن أش رأيك آخذ زيد بصفة سائق مؤقت؟

- والله فكرة طيبة! أكلمُه في الأمر، ولو أنّي عارفة شروطو: بدون راتب، تجلسي خلفو ويحط نظارة سودا على عينيه...

- كلميه والشروط مقبولة...

- إيه نسيت! مكافأتُه على صفقة بيع فيلا للمصري اللي كنتِ حدثيني عنها، قال يقبل بالمبلغ لكن يُخصم منو بونيس لنعمى وبويا عمر.

- تصرفي يا عفاف، تصرفي...

- وآخر شي: هكتارات بوزنيقة، فيه مقاول يطلب شراءها...

- لا مش هذا وقت بيعها... فكرتي نساهم بها مع شركة متخصصة في السكن الاقتصادي ونفرض فيها أثمنة تناسب عموم الناس، وتكون أرباحنا أكبر بكثير من أرباح بيعها.

- والله فكرتك، مولاتي، هائلة وما فيش أذكى منها!

- قومـي الآن تفرجي علـى التليفزيون، وأنا ماشـية أغازل نومي...

على فراشـها ظلت الســت مطـولا على الخط مـع نجلاء، بادلتها التهاني والمتمنيات بمناسـبة حلول السـنة الجديدة، ثم أنبأتها بحياتها الهادئة في إقامتها الحديثة، وعلمت منها أشـياء كثيـرة، أهمهـا عزم راضية علـى الهجرة إلى أمريـكا وتنظيمها بالمناسـبة ليلة السـبت القادم لحفل عشـاء تحت شعار *Good bye party*، تدعـو إليه عليّة المعارف والصديقات المختارات ضمنهن السـيدة أسـماء. فـي الختام أكدت نجـلاء زيارتها لها عشية الغد، وشاورتها في اصطحاب راضية معها، فاستحسنت أسماء ذلك.

-٢٥-

منذ تملك زيد السكوتر، عوّد أمه العجوز على أخذها خلفه خلال نهار يوم السبت أو الأحد في جولة استطلاعية لشوارع المدينة ورحابها. في المرات الأولى كانت بيد تتشبث بظهره وبالأخرى تثبّت خوذتها وتغمض عينيها مرددةً: يا حافظ يا ستار!... أما بعدها فصارت ترخي يديها، تغمغم كلمات فرح وحبور، تغني أخرى، تدعو لابنها، قرة عينها، لما يمتعها به من نزهات تفرّج عنها وتشرح صدرها. وحين يكون الإياب إلى البيت تشعر بالخفة والحيوية، فتُقدم أحيانا على سرد جولاتها في بر المدينة وساحلها لبعض الجارات، اللائي يعبرن فورا عن رغبتهن في أن يكون لهن نصيب منها...

وذات صباح، وزيد على أهبة الالتحاق بعمله، ترجّته الأم أن يوصلها إلى مسجد السنة تقضي فيه يومها لا تبرحه إلا إلى الحديقة بجواره. لبّى لها الرجاء طائعا. وفي طريقه أوقف درّاجته وقصد البقال في زنقة الوكالة ليشتري لأمه بعض القوت، حينئذ اقتربت منها يطّو وقالت لها كلاما. أطلت نعمى من الشرفة ضاحكة ونادت على عفاف للتفرج على العجوز أم زيد ذات الخوذة. عند باب المسجد استرجع الإبن الخوذة من أمه وأخبرته أن البنت العساسة سألتها إن كان متزوجا فلم تجبها. أوصاها أن تنتظره بعد صلاة العصر وأن لا تبتعد.

عائدا إلى مقر عمله، ركن المشمول برضى والدته درّاجته في المرأب وتخطى باب العمارة، فيما يطّو تحاول إيقافه لإظهاره، متوددةً دامعةَ العينين، على خوذة دوكازيون اشترتها، فقال لها ملاطفا: الله يدخل عليك هذْ التاج بالزواج. أما أنا، مرة مرة اعْطيك اللي قدرت عليه، لكن بيني وبينك حجاب الله... أوال دَ نصْواب[١]...

حين دخل زيد الوكالة، لاحظ انتصاب حاجز من الخشب المقوى المنقوش يعزل مكتبه عن مكتب نعمى. سلم على عفاف وهنأها على هذا الإنجاز. جالسها كما طلبت في مكتبها وبررت له ذلك بكون البنت ادعت أنها لا تريد أن تصيبها نوبة ضحك أخرى قد تقتلها وتعصف بشبابها وأحلامها، ثم فاتحته في العرضين: البونيس على صفقة بيع الفيلا للمصري وطلب السيدة المديرة أن يكون سائقها، فكانت شروطه في الحالتين هي نفسها التي توقعتها، وأكد أن المكافأة لا بد أن تشمل بويا عمر وحتى نعمى. وعدته بذلك وسلمته شيكا استكثر قدره ورسائل مخطوطة ليرقنها. انصرف شاكرا واعتكف على العمل المناط به. ولما أنهاه اطلع في الأنترنيت على ما تيسر من أخبار البلاد وسيرورة الربيع العربي في تونس وليبيا ومصر واليمن وسوريا. وفي انتظار أن تكلفه النائبة بعمل آخر أجرى جولة في يوتوب وبعض المواقع الإلكترونية؛ وكلما انشغلت المرأتان بالمكالمات الهاتفية، أطلق لنفسه العنان في الهمس

(١) كلام صواب.

بأزجال وموشحات وأناشيد حماسية أثيرة لديه، وذلك حتى لا تصيبها في حافظته ثغراتٌ وخروم.

ساد صمتٌ غريب لا تشوبه إلا ضحكات نعمى الخافتة، صمتٌ ما لبث أن خرقته ولولات واستغاثات ضاجة عمّت أرجاء العمارة، لم يشكَّ أحد أنها لامرأة الطابق الأخير. أقدمت عفاف على إخطار البوليس هاتفيا وطلب قدومهم، وصعدت صحبة نعمى وزيد وبعض الجيران لمعاينة ما يجري، فوجدوا أنفسهم أمام باب موصد لا يُسمع خلفه إلا أنين المرأة وتوجعاتها. لم تنفع توسلاتهم للزوج في فتح بابه والكف عما يفعل.

قدم أفراد الشرطة والوقاية المدنية فأرغموا المعتدي على الظهور، وضبطوه في حالة سكر فادحة وامرأته مغمى عليها ينزف الدم من رأسها وأنفها. استقدموا سيارة إسعاف نقلتها إلى المستشفى، وحرروا محضر الواقعة آخذين أسماء وتوقيعات الشهود، الذين أكدوا على تكرار اعتداءات الرجل على زوجته، ثم انصرفوا مصطحبين معهم الجاني.

في هذه الأثناء كانت يطّو في باب الأحد جالسة أمام كاتب عمومي، تعبّر له عن حبها الشديد لشاب اسمه زيد وولعها به ليلَ نهار، على أن يرقن الكاتب بكلمات بليغة شيقة أحاسيسها الحارة الصادقة. ولمّا أتم دبج الرسالة ونمّقها قرأها عليها فأعجبت بها وتسلمتها مقابل تعويض زهيد، ثم وقعتها

بالمداد وقطرة من دمها وحوتْها في غلاف معطّرٍ، ثم انصرفت شـاكرة تتبعها كلمات الكاتب: سـيري الله يجيب لك التيسـير أو يشـفيك مـن هـذ الربطة الزغبيـة، وإذا طلع لـك هذا الحب بالصفر، ها حنا موجودين...

أمـا زيد فـكان يصحب أمه على السـكوتر إلـى منزلها بعد أن وجدهـا نائمـة علـى أرض الحديقـة المعشوشـبة، وحـول رأسـها حمامتان نقابتان. وبعدها هب إلى فضـاء مقهى النقابة الخارجي لانتظار بعض أصحابه قصد التشاور في شؤون دوّار الكورة ودواوير أخرى. وبينا هو يترقبهم محتسيا قهوته، مسندا ظهره إلى سـور الموحديـن القديم، متصدقا على المتسـولين ما اسـتطاع، إذا به يلمـح أحمق يطوف بالسـاحة صائحا طوط أطوط... طوط أطوط، كأنه يسـوق عربة وهمية. وفجأة توقف أمام زبائن المقهى مطلقا ضحكات هسـتيرية ما لبث ان قطعها جـراء إصابة قفاه بضربة مقلاع من أحد الأطفال المتسـكعين. لاحق الأحمق الطفل الذي ظل يراوغه بين الباعة المتجولين، ولما تمكـن منه هوى عليه باللطم والضـرب، فلم يخلصه منه إلا زيـد وبعض المارة الذين أمروه بـأن يزهق حالا ويغبر وإلا سلموه للبوليس...

حيـن أقبل جمـع الأصدقاء، وكانـوا أربعة يتقدمهم بشـر، تكلموا لماما في مواضيع شـتى تهم الدوار، وعرض كل واحد ما اسـتطاع فعله في المهمة الموكلة إليـه. أطلعهم أمهرهم في الانترنيت والشبكات الاجتماعية عن وضع البلاد الذي وصفه

بالشـائك والحرج، وشبّه مفاصله بألسنة نارية أسيء إطفاؤها.
وقبـل أن يحـددوا تاريـخ ومكان الإجتمـاع القـادم كلفوا زيد بصياغـة شـعارات مطلبيـة قـد يحتاجـون إليها فـي مظاهرات إنذارية محتملة الوقوع، كما ذكّروه مازحين بحسـن قيادته من قبـل مجموعة عميان وكأنه واحد منهـم، وأهابوا به للعب هذا الدور أيضا إذا اقتضت الضرورة ذلك...

-٢٦-

كان ماء المسبح المتموج ليِّناً مسالما يعكس زرقة سماءٍ صافية الأديم. قريبا منه طاولة حافلة بأواني المأكل والمشرب وحولها الصديقات الثلاث في جلسة حميمية يخدمهن الأمين محمود وعفاف الظاهرة المتوارية، فيما الكلبان يسهران عن بعد على حراستهن. تلقت أسماء في بدئها مجددا تهاني ضيفتيها على إقامتها الجميلة ومتمنياتهما لها بالصحة والسعادة.

هذي الجلسة وصفتها راضية بالأخيرة للحسم في ملف الحكايا قبل رحيلها المعلن إلى أمريكا، وعبّرت عن استعدادها لدفع مقدمين ماليين كعربون على جدية المشروع وجدارته. بعد إعراض المعنيتين بالأمر، أشارت إلى أن حسناء امرأة السكر والتراضي قد أضاف انتحارها إلى قصة حياتها زخما تراجيديا مثيرا، وقوى عنصر التشويق في نسيج السيناريو المتناسل المتحابك. سألتها أسماء عن سبب الانتحار أو ظروفه، أجابتها أن المسكينة انسدت أمامها كل السبل، بما فيها الإدمان على الكحول وحتى الحشيش، إذ عانت الأمرين من عقوق عشيقها السائق وصدوده، ثم مفاجأتها له مع زوجها عاريين على فراش الفحش اللواطي، فكانت هذي الفعلة هي

النقطة اللي أفاضت كأس مرارتها، ودمرّت تماما رغبتها في الحياة، ودفعتها في نوبة هستيرية حادة إلى كسر كل منحوتات زوجها وما وقعت عليه يداها من أواني المنزل وأثاثه.

تنافست المنصتتان في الاستلطاف والعياذ بالله، فيما راضية تستأذن في الذهاب إلى الحمام بعد أن أتمت شرب كأسها، فاغتنمتاها فرصة للتشكيك في صحة الخاتمة التي وضعتها الساردة لحكاية امرأة السكر والتراضي، وأسرّت أسماء لصاحبتها أنها لو لم تكن في حالة حداد على موت المرحوم الحاج النصري لارتمت في المسبح تذرعه عوما من أدناه إلى أقصاه، وذلك لترطيب عجبها براضية الآسرة المحيّرة.

حين عودتها بادرت نجلاء إلى تسآلها عن سر معرفتها بملابسات نهاية حسناء المفجعة، فجاوبتها بلهجة لا تخلو من الانزعاج والتحدي:

- يا حبيبتي من بحث وجدّ وجَد. وأنا من بعدما طلّقت مهنة الصحافة، اللي صار معظمها عندنا مجرد ارتزاق وسخافة، بقيت لمتعتي الخاصة فضولية ونقّابة. إذا انتهيت إلى واقع رديء أو زفت ما يستحق يُحكى غسلتُه بماء الحياة، وصبغته بألوان جذابة، ونفخت فيه من روحي حتى أرقِّيه إلى سدة الخيال الخلاق والتشكيل الخصب... نجلاء مش أنتِ اللي رويتِ لي مرة ما قالته العرب: أعذبُ الشعرِ أكذبُه!

جرعت المتكلمة كأس نبيذها وأردفت قائلة:

- صحّ! إنما فيه شي ما كذبت فيه. الست حسناء كانت تقول لي تحبّ تكتب موتها بقفزة كبرى في الفراغ، وتُكثر الكلام في محاسن الموت الاختياري وشجاعة من ينهي حياتو بنفسو، فتمجد في عالم السينما والغناء بأشهر النجمات المنتحرات كمرلين منرو وورومي شنايدر والأخرى الإنجليزية... ذكريني باسمها...

هتفت أسماء:

- أمي منهاوس...

- لكن أريد أورط زوجها الخنزير في موتها. كان معها في محطة التزحلق على الثلج بقمة جبل الأطلس الكبير. خصومة أخرى بالليل في الفندق، هددت خلالها بأخذ السيارة والنزول إلى مراكش وهي سكرانة. عوض منعها تحداها ورماها بالمفاتيح. وعند الصباح عثر عليها رجال الدرك هي والسيارة في قاع هوة على أسوأ حال... هذا الخبر عما قريب أسرّبه للصحافة ومواقع إلكترونية كثيرة وأترك التحقيق يعمل اللي عليه. التهمة: عدم إغاثة زوجة في حالة خطر من طرف زوج حقود، انتقاما من إقدامها على كسر منتوجاته النحتية... سوسبانس!... الآن نرجع لحكايتك يا أسماء. تخيّلي أرجوك حل لغز عشيق أختك المتوفاة...

قاطعتها المخاطبة:

- نسيتُه يا راضية، نسيتُه...

- لا حبيبتـي، مـش مـن حقك. تخيلـي لقاءك معـه وما قد يترتـب عليـه، حلقة لا بد لحكايتك منهـا، وإلا أنوب عنك في تصويرها...

- إذن نوبي عليَّ وخلصيني.

- سـمعت يا نجلاء، أنتِ شـاهدة على تفويضها... أسماء تفوّض لي أكتبها... ثم أنتِ فين وصلنا؟

- لا مشـاهد جديدة مـن غير اللي فـي الملخص. حكايتي تنتهـي بنهايـة زواجي الأول. أما زواجي الثانـي، الأحوال فيه، والحمد لله، هادئة ما فيش ما يهم الموفينـكا السينمائي... *RAS*.

- شـكرا حبيبتـي علـى صراحتـك وأتمنـى لـك كل الهناء والسعادة...

حاشـت راضية قنينة الشراب وملأت كأسها مسرعة، كأنها أثناء كلامها سـهت عن أداء فريضة، وبعـد تأمل ممزوج بتردد استأنفت حوارها قائلة:

- لكـن عنـدي قصـة جيـدة لا أذكـر فيـن قرأتهـا ويهمني إدراجها بعد تكثيفها في سـياق أوسـع وأمتع. هي ذي مسجلة في كراسـتي: عرفـتُ رجلاً وامـرأةً حدا بهما الحـبُّ إلى عقد قرانهمـا. ومـا هـو إلا عامان حتـى أعلنا أنهمـا، تجنبا لأبغض

الحلال وحفاظا على اتزان طفلتهما، أبرما عقدا ثانيا سمياه عقد الكلام الوظيفي، يتعهد بموجبه كلُّ طرف أن لا يحادث الآخر إلا عند الحاجة الماسّة والضرورة القصوى: كأن يشاهدا بيتهما مهددا بحريق، أو واحداً من الأهل في حالة مرضٍ خطير، وما إلى ذلك. وكلُّ خرقٍ لهذا الاتفاق يكون عدوانا أو انتهاكا لحرمة الآخر، وكلُّ كلام تمليه النزوات والعاطفة يكون حشواً وصداعاً، بل دنسا وفضلاتٍ في قراراتِ الانطواءِ على الذات وفكِّ الارتباط بالآخر... أحبُّ عند هذين الزوجين شجاعتهما في الجهر بما يكتمه أو يتلهى عنه أعداد لا بأس بهم من المتزوجين...

حدقت راضية في كأسها مفكرةً ثم حوّلت نظرها إلى جليستيها وقالت:

- إذا كان يخفى عليك نجلاء صاحب هذا الكلام العميق، وأنت المدمنة على القراءة، من الغد أسأل عنو من حولي وفي الأنترنيت، فإما أجدُه وأشتري فكرتو وإما اقتبسها لسيناريو وأنسبها لمجهول... الآن نغلق هذا الملف. يوم سفري إلى أمريكا أحمل معي ملخصات الحكايا يالإنجليزية، وإن شاء الله يكون خير...

سألتها أسماء بصوت مستغربٍ حنون:

- لك يا حبيبتي في بلدك معارف وأحبة، وأنا ونجلاء منهم. مواهبك وأنشطتك كثيرة ما شاء الله! الجلسات معك

كلهـا حلوة وممتعة. كل هـذا حاصل وتخْلي وطنـك وتخلِّينا من دونك، وفين راك رايحة! إلى قارة أخرى بعيدة، أمريكا...

- لا أسـماء! سـطوب، وإلا تنهـدت وبكيـت... الأمـر يلزمُـه كلام طويـل، لكن ملخصُـه أن زوجي حتـى هو راغب فـي الهجـرة، باع ما يملكُه مـا عدا فيلا الصخيـرات اللي تبقى موطئ أقدامنا... أما أنا فبلدي المغرب فيه أشـياء وأشـياء غير سـوية ومـن المغربـات. يخصني أخـرج في مظاهـرات رافعة لافتات مكتـوب عليها ما راضياش ومـا راضيينش... مواهبي اللي ذكرتِ، أنا خايفة عليها تذبل هنا وتفنى... شوفي بالمثال سـميرة سـعيد كيف طلعت شـاطرة، تـمصرت وخلّت خلفها مطربـات الحي يغنين مع المغبونة نعيمة سـميح «ياك أجرحي جريـتْ وجاريـتْ...». شـوفي العلاقـات الإنسـانية عندنـا: زفت وعنف، ثـم الجهالات والمكايد، الزبونية والمحسـوبية والفسـاد، وزيدي وزيـدي... جائز أكون أبالغ شـوية أو كثير، إنمـا شـعوري اللي يلازمني من سـنين هو ما قلـت... لكن ما أقـول الهجرة هـي الحل. كم وحـدة ضعيفـة أو غبية هاجرت وصارت مسـتغلة أو من بنات الهـوى! اخترت أمريكا - وأبدا مـا أتمركـن - لكونها أرض واسـعة تضم خمسـين ولاية، إذا ضاقت بي واحدة أروح لأخرى. وفيها اللي عندُه موهبة وقدرة على العمل الجاد، في الغالـب ينجح وربما نجمو يسطع... إذا أعجبني الحـال تبارك الله، وإلا فمعرفتـي بالأنجليزية تنفعني فـي بلاد مجاورة هي كندا، أجرب حظي فيها، وإذا فشـلت في البلدين فمعناه أنو مواهبي مجرد أوهام لا غير...

استفسرتها أسماء متأثرة:

- وعلاش ما اخترت فرنسا القريبة منّا؟

- على فرنسا خليني ساكتة. قلبي من جهتها فايض... يكفيني أقول هذي القوة الضيقة الحجم والصدر ما عاد ديكها يصيح كما كان في عز أنوارها. العنصرية المكشوفة تلبّست بفئات فرنسيين يكبر عددهم، والعنصرية المقنعة وصلت سمومها حتى عند نخب مهمة. تقدُّم اليمين المتطرف دليل مخيف، وأتمنى المستقبل يكذبني... طوّلت في الكلام، وأتعبتك يا نجلاء حتى سكتِّ...

نظرت المخاطبة إلى راضية نظرة ودّ وحنان وقالت:

- حرام عليك. شوفي عينيَّ. ما بقى لي غير أبكي لكلامك وفراقك، وأسماء حالها بحالي...

- إياك تبكي. المسافات ما عادت مشكل. العطل أمضيها في بلدي. واحنا علاقتنا نتابعها بالايميل والسكايب والويبكم. وحيث أكون استقبلك أنتِ وأسماء على راسي وعيني...

في هذي اللحظة المؤثرة أقبلت عفاف معتذرة وسألت الصديقات إن كنَّ يحتجن إلى شيء. أجلستها راضية حذاءها قائلة:

- اقعدي معنا. احنا ما نتكلم في أسرار الدولة. أنا أعرف أنك امرأة كفءة وأمينة. أسماء تعزك وأنا بحالها أعزك، وكلنا نفتخر بك ويمكن نباهي الرجّالة.

لمعت عينا عفاف بالدمع وانحاشت إلى المنوهة بها تقبلها وتدعو لها:

- سيري يا لالة راضية الله يخليك لِنا، ويعزك ويقويك، وينقي طريقك من الشوك ويوالي من والاك، وينصرك على من عاداك...

- اللهم آمين يا ربّ... والآن استسمح في الذهاب، يتبعني مسك دعاء الست عفاف. وموعدنا في داري مساء السبت القادم. أعوّل عليك يا أسماء، أعوّل عليك.

قام الجمع يرافقها نحو الباب، والكلبان يخصان رجليها بالملامسات الوديعة، سألت محمود عن اسمهما، أجاب: روك ورول. حنت عليهما مداعبةً رأسيهما وقالت: وداعا يا روك آند رول... الوداع. ولما استوت على مقعد سيارتها خاطبت عفاف:

- وحتى أنتِ مدعوة. وفي يوم إن شاء الله أتمنى تحكي لي حياتك.

- حياتي! يا لالة هي كحياة ملايين النسوة... عادية، جد عادية...

- عادية من وجهة نظرك أنتِ، لكن تصير استثنائية من منظوري أنا... باي باي...

-٢٧-

أثنـاء ذهابهـا إلى فيـلا داعيتها خلـف سـائقها الجديد زيد ذي الكوسـطار وربطة العنق الأسودين، كانت أسماء تتجاذبها مشاعر غامضة تصْرفها عن الكلام، فتكتفي بإشارات توجيهية إلى العنوان المقصود في الصخيرات. عند قدومها وجدت في انتظارها نجلاء التي عانقتهـا وصاحبتها بين صفوف الضيوف إلـى حيث تقف المضيفـة وزوجها، فاستقبلاها بحفاوة بالغة ووعداها باللحاق بها حالما ينهيان مراسـيم الاسـتقبال. تذْكر أسـماء أنهـا رأت الـزوج مرتيـن أو ثلاثـا، وأيضا مـا قالته لها زوجته ذات يوم من كونه تقلّب سابقا في مناصبَ عليا عديدة، كما في أسرّة نساءٍ كثيرات حتى بعد قرانهما، وأنه أضحى اليوم متقلـبَ المـزاج، قلقَ الطبع، قـد يدعو إلى حفل فـي إقامته ثم يلغيـه أو يحضـره قليلا ثم يعتصم في غرفتـه معتكفا على بليي ستايشن ومشاهدة أفلام الوسترن والبورنو.

سألت نجلاء صديقتها:

- أتركك حرة أم أحميك؟

اجابتها فورا:

- ابقـي جنبـي، وعنـد اللـزوم قدميني باسـمي المسـتعار. وحتى عازف البيانو اللي شفتو عندك خليني بعيدة عنو شوية...

كان البيانيست الأعمى يعزف كشكولا من توليفات متنوعة، فيما نساء يتناوبن على الدنو منه متهادياتٍ مترنحات، يتلقين من إحدى يديه ملامسات وطبطبات ردفية تستحلينها فرحات. نبّهت أسماء رفيقتها إلى فعل الضرير الفاجر، فسمعتها تعلق ضاحكة: لا يرى لكنو يتخير ما تقع عليه يدُه؛ حاسة اللمس عندو ما تغلط. أما الرجال فقولهم واحد: لا حرجَ على الأعمى...

في الحديقة كان الضيوف مغاربة وأجانب واقفين أو قاعدين يتناولون ما يقدمه النُدل المتجولون من مُقبلات ومشروبات، وآخرون يمشون الهوينى بين بار وآخر. قدّمت نجلاء صديقتها إلى بعض الأزواج: سناء الإدريسي. ربّ أسرتها في العمرة... التقط زوجها من ورائها هذا التقديم فبث في أذنها استغرابه، وحين واجهته هي وصاحبتها كان رفقة صديقه الجديد، فبادرت إلى القول:

- السيدة أسماء، مديرة وكالة عقارية ناجحة. صديقتي نامبر وان، وبعد التصفيات النهائية تبقى هي الوحيدة... وهذا عزيز الشاذلي...

قاطعها زوجها معاتبا:

- خليني أولا أقبّل مدام أسماء... الآن أنا اللي أكمل التعريف بهذا الرجل: بيزنسمان، خبير لدى بورصة الدار البيضاء وبعض الأبناك الوطنية والأجنبية، يلعب بالمال حتى

سـها تماما عـن زواج جديـد وتكوين أسـرة... صـح كلامي يا عزيز؟

تنـاول الرجـل بلطـف يـد نجـلاء فقبلهـا وعطـف على يد صديقتها مقبلا، ثم استقام وقال بصوت هادئ رزين:

- يا حبيبنا سعد، ربح المال بالمال مش عيب. السؤال هو: نعمـل إيه بفائـض المال؟ نقوّي به راس المال الثابت وبقسـط منه ندعم جمعيات مدنية ومشـاريع خيرية، وأنت تعلم أن هذا هو خياري.

أجاب سعد متوددا:

- مـا تزعـل مني عزيز. أعلم أنك مش مارسـل لوبان. أنتَ فـي عالم المال والأعمال اسـتثناء، وفيك شـيء من شـخصية روبان دي بووا، تاخذ من الأغنياء وتعطي للفقراء.

أفرغت أسماء كأس عصيرها وعلقت.

- أنـا علـى رأي السـيد عزيـز. المـال فـي حد ذاتـو مجرد وسيلة عند الأسخياء الكرماء، ويتحول إلى معبود بين البخلاء والمضاربين الجشعين.

أدلت نجلاء بدلوها وهي تعانق زوجها:

- فيه كاتب فرنسـي، أظنُّه جول رونار، على قول أثرياء أنو المال لا يصنع السعادة أجاب: ردّوه إذن...

متأهبا للمشي، قال سعد ضامّا زوجته إليه:

- كلامنا يكون لو ما بعدو. خلاصة: أنا على رأي نجلاء ومدام أسماء على رأي السي عزيز، وكلنا على بعض، وموسيقى السلو في الصالون تنادينا. يا الله بنا...

أضواءٌ خفيضة تعم أرجاء الصالون الوسيع، على منصة مزينة يؤدي أعضاء جوقه مقاطع من موسيقى راقصةٍ متهادية، جذبت إليها فلولا من متوسطي الأعمار، منهم الأزواج الذين يحاولون بهذه الرقصة إحياء بعض خلايا حبهم المتآكل؛ ومنهم غيرهم يفتحون بها علاقة غرامية قد تقصر أو تطول، وإلى هذه الفئة ينتمي عزيز وأسماء الآخذان في محاولة تغليب الحوار التعارفي على التجاذب الجسدي. وبينا هما كذلك إذا بالتي أسكرها سحر الأنغام والرقص الناعم تبصر الشاب عاشق أختها المتوفاة، واقفا في زاوية وحيدا، شاحب الوجه قلقا، يخصها بنظرات مطردة، لا تحيد عنها ولا تزيغ... وضعت ذقنها على كتف فارسها حتى تُشعر ناظرها أنها لاحظته وتعرفت عليه، فيما عزيز مؤولا إشارتها إيجابيا يحتك بها أكثر، يشتم شعرها ويطبع عنقها بقبلات خفيفة ثم حارة. وكم عجبت لحالها بين رجلين، واحد يضمها متعشقا متمتعا وآخر قبالتها يشاهدها وربما يئن ويغار.

في هذه الأثناء، كان زيد يتخندق في السيارة هروبا من أسئلة بعض السواقين الفضوليين، ينصت من سماعة وولكمان أو يعيد قراءة رسالة يطّو متأملا مغمغما زجلا يُسمع نغمه دون كلماته.

لما أبدلت الأوركسترا الموسيقى الحالمة بأخرى صاخبة، فكت أسماء ارتباطها بالفارس وتعللت بذهابها إلى الحمام، فهبت عجلى إلى الخارج، من دون أن يلحظها أحد من معارفها ولا أن تقتات من سماط المأدبة في الحديقة. نقرت على زجاج سيارتها نادهةً، فخرج زيد معتذرا وفتح للست الباب الخلفي وأغلقه دونها. خيّرته بين أن تتركه قريبا من بيته أو أن يبيت في الفيلا، فآثر العرض الأول، ثم لم تنبس ببنت شفة أو تُجب على رنات محمولها. وحين أدركت إقامتها سلمت لمحمود مفاتيح السيارة وهرعت إلى الحمام ثم إلى فراشها حيث استلقت دائخة حيرى.



صباح يومه الأحد استفاقت أسماء ورأسها ما زال يعج بصور الأمس، متدافعةً، خطيةً أو حلقية، فأنبأت بها نجلاء الملحة في طلبها بالموبايل، آملة أن تجد لديها عذرا لانسحابها من مشهد لم تتوقعه ولا تشك أن لحظته العصيبة لهي من إعداد راضية وإخراجها. جأرت غاضبة: لا أسمح لهذي المرأة تكتبني. أنا عاقلة وحرة مش دمية... لمحاولة تهدئتها وعدتها مخاطبتُها بإلقاء كل الأضواء عل الأمر واستأذنتها قبل إنهاء المكالمة في طمأنة عزيز أن انسحابها المفاجئ لم يكن هروبا منه كما ظن متألما، فأذنت لها.

أقبل القيّم محمود محييا، وضع على الطاولة جنب المسبح قنينة ماء وأخرى عصير برتقال، سألته عن حياته الخاصة فجاوبها مقتضبا أنه بلغ عقده السابع وترمل منذ خمس سنين، دخل بعدها في خدمة المرحوم الحاج النصري الذي أرسله إلى الحج مرة وأنعم عليه من فضله وإحسانه. له ابن في الأربعين لا يعلم أين يقيم وهل هو حيٌّ أم ميّت. وختم أنه يجد راحتَه في خدمة الفيلا ومولاتها وقرةَ عينه في الصلاة والذكر...التمست منه أن يظل في بيته إلى أن تنادي عليه، فما إن غاب حتى خلعت قميص الحمام وارتمت في المسبح تتمنى من مائه الصافي المتدافع تبريد انفعالاتها وأحاسيسها، فأكثرت من العوم طولا وعرضا وعمقا، كأنما تبغي أيضا تعويض ما فاتها منه منذ أيام وأيام لأسباب مانعةٍ قاهرة.

لما قضت وطرها من السباحة لمحت عفاف منطرحة على العشب نائمة. ارتدت قميصها وتمددت جنبها محدّقةً في أديم سماء لا شتوية ولا صيفية، طالبةً من زرقتها العميقة ذراتِ سلامٍ وشفاء. وحين أفاقت النائمة ناجت المتمددةَ من دون أن تغير هيئتها:

- صباح الخير حبيبتي وخبر الخير! ليلة البارح سهرت في بيتك الآخر، أنظفُه وأرتب ما فيه. ها هي مفاتيحُه، سلمها لي الحاج المختار وخبّرني أنو حسّان رحل إلى بلد بعيد ربما يكون أفغانستان...

نهضــت المرأتان وتعانقتا بحــرارة تعبيرا عن فرحتهما بهذا الفــرج الرباني ثم جلســتا وشــربتا مــن البرتقال والمــاء كثيرا. أرادت عفاف تســليم مفاتيح الدار المســترجعة إلى جليســتها، فتلقــت منهــا تأكيدهــا أن الدار وما فيها ســتصير قريبــا ملكها، فلــم تجــد من وســيلة لإظهار امتنانها وعرفانها ســوى إرســال دمعٍ غزيرٍ مرفقٍ بســيل أدعيتها الموصوفــة بالتضرع والصدق. وبعدهــا تناظــرت المرأتان صامتتين، كأن واحدة تريد أن تُسِــرَّ للأخرى بشيء ما، فبادرت عفاف إلى القول:

– أنا، مولاتي، عمري ما اخْفيت عنّك أي شيء في حياتي. والآن واجب عليَّ اخبِّرك أنو الحاج محمود يميل إليّ... فقط للمؤانسة لا للزواج...

فلتت من أسماء ضحكة خفيفة وقالت:

– وأنــا فــي حفل الأمس عنــد راضية عرّفوني برجل اســمُه عزيز أظهر أنو ميال إليّ. لكن نتكلم في الموضوع بعدين.

– وحتى نعمى، المصري، رغم فارق السن، ميال إليها!... وزيــد القريب مــن الثلاثين فيه الحارســة يطّو ميالــة إليه، وهو مش ميّال...

– الله يستر ويبعد الشر... وزيد كيف أخبارُه؟

– خبّرني أنو الفرنسية العجوز اللي أمو تونسها مريضة، وهي مقطوعة من شجرة، وتحب تدفن هنا في الرباط. قلت مع نفسي

نشتري منها شقتها ونملكها لزيد بعد وفاتها بالطريقة القانونية اللي تشوفيها.

- والله فكرة جيدة، لكن ننظر في الأمر بعدما أستشير صاحبنا الموثّق... وأنت شوفي محمود الميّال إليك يشير لك تاتي...

هبت عفاف تنظر في الأمر ثم رجعت تخبر رئيستها أن شابا في الباب ترك بطاقته وتمنى التشرف بمقابلتها متى شاءت، وركب سيارته وذهب. وحين وصفته قالت إنه متوسط القامة، وسيم أنيق ووجهه شاحب من شدة الأرق أو شيء آخر. لم تشكَّ أسماء أنه عشيق أختها المتوفاة، وأن حضوره في حفل الأمس وقدومه إليها الآن من ترتيبات الجنية راضية وإخراجها، فاضطرت إلى إخبار عفاف بقصتها معه واستفتتها في الأمر. جاوبتها:

- يا اخْتي استقبليه وشوفي اللي تحت راسو... أكيد أنو مثل عزيز ميال إليك. وأي رجل جميل وذكي في الدنيا شافك إلا ويميل إليك... خلّيني أهيئ لك الغدا والعشا وأنظف الصالون والغرف، ومن بعد أقصد منزلك أكمل أشغالي وأبيت فيه... والمنزل ذا فكّري جيدا قبل تحقيق وعدك لي بشانو.

قاطعتها أسماء بحدة:

- أغير رأيي إذا مرة أخرى كررتِ كلامك هذا. يا الله سيري...

انصرفت المأمورة مهرولة، فخلعت الست قميصها وارتمت مجدّدا في المسبح، وكلما قطعته عمقا ناجت نفسها: ها أنت يا هادي الورد تخرج من غيابك، تكشف عن اسمك: شوقي الشامي، تقف في بابي، تترجى لقائي... راضية تريد تكتبني وأنا ماشية معها حتى نهاية الحكاية... فقط لأنظر وأتفرج... أما عزيز فقصتُه شي ثاني، تفلت من ألاعيب راضية وإخراجها... قصة قد تموت في المهد أو ربما تصمد وتتسلسل، وأكون أنا اللي أكتبها...

حين طفا رأس السابحة على السطح كانت عفاف تردد: للمرة العاشرة وأنا أصيح يا لالة الغداء جاهز...

وبعد هذي العومة العارمة حتى المنادى عليها جاهزة.

حول الطاولة تقاسمت المرأتان وجبة الغداء، والأمين يجيئ ويذهب بالصحون، وحالما أنهى عمله وراح قالت عفاف:

- الكلام في شؤون الوكالة مش وقتو الآن. لكن فيه أمر مستعجل: نعمى صارت تتغيب وتعمل وراسها مع وعود المصري بالزواج. لا بد نشوف من يخلفها. زيد اللي الضغط عليه كثير يقترح واحد كفء ويضمنُه...

- جربيه وبعدين نشوف...

- آخر شـيء، خبّرت محمود أنو الشـاب شوقي أخوك من الرضاعة. أنا الآن رايحة... حتى سـيارتك الثانية صارت كأنها سيارتي!

أطلقت أسماء ضحكة صاخبة:

- الشـاب أخي من الرضاعة! والله أنت شاطرة وماكرة... نـادي عليـه الآن وحـددي لو الموعد هنـا في السـابعة وقولي لمحمـود يدخلـو للصالون. سـيري تقضي شـغلك. برنامجي لبقيـة اليوم حافـل: دوش وقيلولة وقـراءة وموسـيقى ومقابلة أخي من الرضاعة...

في السـاعة المذكورة صاحب محمود الزائر إلى الصالون. رحّب به وقدم له مشروبا اختاره. طال انتظاره لسيدة المقام بين أضـواء خفيضة وموسـيقى ناعمة. وفي هذا الجو الرومانسـي الملطَّف بهبّات أنسـام الحديقة الفيحاء، برزت الست بوجهها الصبـوحِ الوضـاء ذي ماكيـاج خفيـف، ترتدي فسـتانا أسـود مزركشـاً بأشكال وردية متنوعة. وقف الضيف منفعلا وانحنى على يدهـا الممدودة إليـه يقبلها. دعته إلى مجالسـتها وتناول ما يطيب له من المرطبات والحلاوي. سـألته بلطف سؤالات متتالية مَدْخَلا للكلام. اسـتأذنها في التدخين وسـمعته بوجهه الشـاحب جـدا يقـر بأنه باعـث الباقات السـري، وأن السـيدة راضيـة تركـت لـه رقم هاتفهـا منذ أسـبوع عند حـارس مقبرة الشهداء، وحينما طلبها دعته إلى حفل الأمس فحضر من دون

أن يقابلها من قبل أو يعلم مسبقا شيئا عن هوية المدعوين، بمن فيهم السيدة التي يتشرف الآن بمحادثتها. واعترف أنه تبعها بسيارته بعد أن غادرت حفل الأمس إلى منزلها.

أما عن سؤال علاقته بأختها المتوفاة، أجاب، وقد احمرت عيناه ولمعتا، أنها علاقة صوفية صرفة، أقسم أنه خلال مدتها لم يمسسها إلا مرة واحدة في بيته، بعد أن توحدا، كما قال، وصارا لدى الضم والتعنيق حرفا مشددا، وسكرا بخمرة الشطح والجذب، فرفعتهما ما شاء الله إلى الأبراج العلوية، مسبحين باسم الواحد الحي، ثم طرحتهما على أرض المحسوس الفانية، بين هياج الشوق العارم وغلبة الحواس الحيوانية، فكان ما كان مما ليس يذكره إلا ملسوعا بسموم الحسرة والأسى. وختم متفوِّها بجمل غامضة، غريبة المبنى والمعنى، نسبها إلى رجال الله وأوليائه الصالحين البررة.

أما أسماء، وهي تصيخ السمع لجليسها المنفعلِ المرتبك، المتصبِّب عرقا، فقد ساورها شك في اتزانه النفسي وصحة عقله، فكأنما سقطت على أم رأسها، وتكشفت لها حماقتها في شغل بالها شهورا بأوهامٍ سرابية ليس غير. لكنها آثرت صرف نظرها عن هذا الكشف حتى تطلّع أكثر على حالة هذا الشاب وتستبين حقيقة صفحته قبل أن تطويها تماما.

جن الليل. دعته إلى وجبة عشاء، اعتذر لكونه لا يتعشى أبدا. نهضت لتقريب صحن فواكه ثم جلست جنبه وأخذت تقضم تفاحة، قائلة إنها في الليل كثيرا ما تكتفي بفاكهة أو

شـربة. بعدئـذ، ومن دون لف ودوران، حاشـته إليها وحاولت تقبيلـه، فتمنّع واعتصم متعللا بكونه عاهد روح أختها الطاهرة أن لا يمسَّ امرأة من بعدها ما بقي على قيد الحياة. لم تدر كيف امتدت يدها إلى وجهه، فصفعته صائحة: زهرة ماتت وأنا حيّة! اسـتقام الشـاب واقفا فبادرت إلى أمره بالذهاب وقطع الصلة معهـا من دون رجعة. وما إن انصرف طائعا متعثر الخطى حتى لاذت بفراشها وشغلت ذهنها بمتابعة فيلم بوليسي في التلفاز.

-٢٨-

منتصف يومه الاثنين، علمت السيدة المديرة بالهاتف من مديرتها أن نعمى عقد عليها المصري وسافرت معه على جناح السرعة إلى العمرة أو وجهة غير معلومة؛ كما أن شابا، بتوصية من زيد، خلفها لفترة تجريبية مدتها ثلاثة أشهر، قبل أن يكون خلالها متعدد الخدمات.

كان على الست أن تلبي رغبة نجلاء في لقائها. اجتمعتا حول الغداء معا في مطعم الگولف الملكي، حيث استقبلهما المدير بحفاوة بالغة واختار لهما أجمل مكان وأهدأه. سارعت أسماء إلى الكشف عن سبب انسحابها الخفي من حفل راضية، ثم حكت لها تفاصيل قصتها مع الشاب شوقي الشامي وزيارته لها بالأمس وما آلت إليه. توقفت نجلاء عن تناول الطعام ومسحت شفتيها تهيؤا للكلام:

- يا حبيبتي أنتِ عارفة محبتي لكِ. كلماتي صادرة من قلبي وغايتها سعادتك ومستقبلك... أنا لا أوافقك على إساءة الظن براضية، وهي على كل حال رايحة وربما ما تعود. أما أنتِ يلزمك الآن تطوي صفحة الشاب شوقي. زوجك مات والحاج النصري مات. أنتِ اليوم حرّة! هل أنتِ واعية كم أنتِ

حـرة؟ لكن الأيـام تمر ويخصك زوج يكـون بينك وبينو حب وتنجبي منو. أنا وسـعد تكلمنا في الموضوع، شـوفنا عزيز هو الرجل اللي يسـتحقك. إنما عندنا شرط: الرأي كلُّه يرجع لك من بعد صُحبة كافيـة معه حتى يكون اقتناعك مش اقتناعنا هو الحاسـم في اختيارك... عزيز ينطق باسمك مرات كثيرة ويعبّر عن إعجابـو بجمالك وذكائك، لكن والله ولو خطرة ما سـأل عن ثروتك، وهو على كل حال أغنى منك بكثير...

حملقت أسماء في كأسها، ثم في وجه جليستها فألفت كل ملامحه تفوح بأمارات الوفاء والصدق. قالت:

- شـكرا نجلاء على كلامك الحلو. طيبوبتك ما لها مثيل! لكن خبّرتيه بكل شيء عني؟

- هـذا أمـر يرجـع إليـك فـي مقابلاتـك معه بعـد رجوعو مـن أوروبا. إنما فيه شـيء دبّرَتُه الأقدار بينـك وبينو بالتعادل: زوجـك الثاني مات من بعـد الأول، وحتى هـو فقد زوجتين، وواحـدة خلّفـت لـو ابنـو الأوحـد اللي يعيـش فـي مونريال. ومثلـك لا أمّ ولا أب... لكن أرجوك ما فيش لزوم تخبريه عن علاقتك بالمرحوم النصري... ما فيش داعي...

- صح، ما فيش لزوم... وفي أي يوم يعود؟

- الله! بدأتِ تسألي عنو... إذن بدأت أنا أتوفق في مساعي الحميدة.

- أقصد حتى أفكر أكثر وأرتب أموري.

- أمامك عشـرة أيام. قلّبي الأمر من كلّ وجوهو، ومن بعد بلِّغيني باللي قررتِه. تسمحي أعطيه رقم هاتفك؟

- لا خليه بعدين. التأني في هذي الحالة خير من العجلة...

رن موبايـل أسـماء، فـإذا بعفـاف تخبرها هلعة أن شـوقي الشـامي يوجد طريح سـرير في مستشـفى ابن سـينا، ويترجى رؤيتهـا قبل أن يسـلم الروح. أخذت منها رقمـه وركبته، وهي تبلغ الخبر لجليسـتها، فلم تحصل عليه. إذّاك هاتفت طبيبا من معارفها تسـأله عن المريض وما بـه. أمهلها لحظة ثم أنبأها أنه سيُنقل بعد سـاعتين إلى قسم الأمراض التناسلية في مستشفى ابن رشـد بالـدار البيضاء... طلبت الفاتـورة فامتنع المدير عن ذلـك بدعوى أن أحباب الأسـتاذ عزيز الشّـاذلي لا يؤدون في هذا المطعم شيئا، وشيّع السيدتين إلى الباب مبتسما محييا.

مـن مكتب الاسـتقبال بالمستشـفى رافقتهمـا ممرضة إلى غرفـة النـزيـل المطلـوب، وطالبتهمـا بتقصيـر الزيـارة لكونه منهـك القـوى وخاضعـا للإسـعافات الأولية. سـألتها نجلاء عـن أهله، قالت إنهم قادمون إليه هنـا من طنجة. وحين دخلتا عليه فزعتـا لضمور جسـمه واصفرار وجهه المحـاط بأنابيبَ شـتى، فأشار إلى أسـماء بالدنو وبثَّ في أذنها بصعوبة متناهية كلمـات متقطعة: أختك زهرة... المـرة الوحيدة اللي جامعتها بعـد رقصتنـا الصوفيـة... نقلـت إليهـا فيـروس... السـيدا... وكنـت واللـه أجهل أنـي أحملُه... موتهـا في حادثة سـير هو انتحـار... بالأمـس في بيتك... حرّمت على نفسـي... تكوني

ضحيتي الثانية... كلامي هذا أقولُه أمام ربّي غدا لعله يغفر لي ويعفو عنّي...

انصرم صوت المريض فجأةً وعلا لهاثه. استعجلت الممرضة الزائرتين في الخروج، فانحنت أسماء على جبهته مقبلةً ثم انصرفت متكئة على رفيقتها، مشتتة الذهن دائخة، وطلبت منها نقلها إلى منزلها على أن تتكفل عفاف بإحضار سيارتها من مرأب المستشفى.

في الطريق المكتظ بحركة السير، ظلت المصدومة خرساء لا تند عنها إلا زفرات وتنهدات. حتى إذا وصلتا واستقرتا في الصالون جنبا لجنب انفجرت بالبكاء، وحكت بين شهقاتها الحرّى فحوى همسات المريض المرعبة، ثم اعترفت لها بأنها بالأمس راودته عن نفسه وساءلتها عما كان سيصيبها لو لم يصدّها ويتمنع، وجأرت: الموت بعينو يا نجلاء، الموت المخجل!... ضمتها صديقتها إليها وهدأت روعها وهي تقودها إلى مجالستها قرب المسبح، حيث نصحتها بتطهير ذهنها من الوساوس والصور السيئة. خلعت المنصوحة ثيابها وقالت: كلامك يا حبيبتي أمر، فارتمت عارية في الماء والليل يرخي سدوله، والقمر يلقي بضيائه على الأرض وصفحة المياه. ولما شفت العائمة غليلها خرجت فألبستها نجلاء قميصها ونصحتها بحمّام ساخن والخلود إلى نوم ناعم.

جاوبتها ملحة:

- مـش من قبل مـا أعرف رأيك. أنا أتصور راضية وراء كل ما حدث لي مع الشاب شوقي. تذكّري كلامها: لا بد لحكايتك مع عشيق أختك من نهاية. هو أنكر معرفتو بها، لكن هذا نفسُه أكيـد قالو بوصية منها. كل شـيء ممكن مع هـذي الجنية، كل شيء ممكن!

- لا لا، شـوية وتصيـري مثلهـا، خيـال علـى خيـال يغلي ويفيـض. الفرق أنـو هذا هو شـغلها وأنتِ لك شـغل غيرُه... قومي باللي نصحتك به، ويصبح ويفتح واحنا على الخط...

فـي باب الفيلا صادفت نجلاء عفاف، أوصتها بعدم إزعاج الست إن لم تطلبها وودعتها وهي تنطلق بسيارتها.

نامت أسـماء حتى منتصف يوم الغد. القرص المنوم جنبّها الأرق وأضفـى علـى ليلتهـا هـدوءً لـم تتوقعـه. بعيـد الفطور هبّـت إلى الوكالة لتعيـد الارتباط بعملها وتصـرف ذهنها عما يئـن به من هواجس الأمـس ورجّاته. حيـن دخولها وقف زيد والموظـف الجديـد محيين باحتـرام فائق، وفعـل مثلهما بويا عمـر بتحيته المعهودة. بادرت عفـاف إلى تقبيل كتفها وتقديم زميل زيد بشـر الرامـي المتعدد المهـام والخدمات. رحبت به السـت المديـرة وأوصتـه بالعمل الجـاد خيرا والاسـتفادة من تجربة زيد وخبرته، ثم قصدت مكتبها رفقة نائبتها.

تناظرت المرأتان قليلا حول فنجانيْ قهوة. تجردت عفاف

للكلام بادئة بنعي شـوقي الشامي الذي أسلم الروح إلى باريها هـذا الصبـاح ونقل أهلُه جثمانـه إلى طنجـة. ترحمتا معا على المتوفـى ودعتـا له بالعفـو والمغفـرة. لاح للسـت أن تحدّث جليسـتها عن صفحـة الراحل ومـا حوته وهو حـي، فأرجأت ذلك إلى يوم آخر، وعوضه انكبت على عقود فُسخت وأخرى ماثلـة للتوقيـع، ضمنهـا عقد تشـغيل الموظـف الجديد الذي زادت فـي راتبه وأمرت عفـاف بتمكين زيد من تعويضات عن عمله كسائق، ثم سلمتها رسالة من حارسة السيارات للإطلاع، فقالت عفاف:

- هذي ثالث رسـالة منها تطلب فيها خدمة كمنظفة، وتقنع بأي أجرة نعرضها عليها... لكن...

- لكـن أش؟ المنظفـة قبلهـا غابـت، وبويـا عمـر عجوز. جرّبيها وشوفي.

- لكن زيد متحفظ في شأنها وقال لي: خديها على ذمتك، وبيني وبينها حجاب الله...

- إيه! صار هو اللي يحكم؟

- لا أبدا. البنت تحبُّه وترسل لو رسائل غرام...

- إذن هي متعلمة؟

- ربما شـوية، لكن رسائل الحب يكتبها لِها كاتب عمومي في باب الأحد...

أطلقت أسماء ضحكة صافية وقالت:

- وفيها إيه؟ الحب حلال علينا احنا، وحرام على المساكين! لا، خديها من الغد وحددي أجرتها بحسب وضعها وظروفها... سيرتنا: نسعف المحتاجين بما ناخذُه زيادة من الأغنياء.

- يا ما انْتِ خيّرة وكريمة! الجنة ما خلقها الله إلا لأمثالك... وعلى ذكر زيد، التقيت بالعجوز الفرنسية وحكيت معها في الصفقة اللي على بالك. رحبّت بالفكرة بشرط يكون المستفيد زيد وأمو...

- خليني أنظر في الأمر مع الموثق العارف بالقانون الفرنسي في هذي الحالة...

- يا ستي اللي لُو لسان ما يتلف. أنا سألت من حولي، وفهمت حتى من العجوز أنو فيه شيء اسمو *viager* أي راتب عمري يتقاضاه المالك من المسمى للتمليك، وحين تموت يرجع الملك إليه بالقانون. يبقى نعرف واش تصح الصفقة بين نصرانية ومسلم...

- وما لك يا عفاف مستعجلة من أمرك؟

- لأني شايفة عزرائيل يطوف بالعجوز المريضة، وإذا قبض روحها غدا أو بعدُه، ما بقى لنا فيياجي ولا شرا، أو يخرج لنا وارث أو أكثر بحال الشياطين.

- اصبحتِ شاطرة أكثر مني. البزنيس صار في دمك وطبيعتك.

- لا حاشـا! العين ما تعلو على الحاجب. كل شيء تعلمتُه منك. وما دمت شوية شاطرة، احنا بإذنك مقبلين على ما سماه زيـد إعادة الهيكلـة: نتخلص من المعامـلات المتعبة الضعيفة الدخل؛ نركز على الصفقات والمبادلات المضمونة الربح على المدى القريب أو المتوسـط، أي القطع الأرضية داخل المدار الحضري وخارجو والشـقق هاي سـتاندينگ للبيع والشـراء؛ نقيـم للوكالـة موقعها الإكتروني يعـرّف بعروضها عبر بوابات وخانـات متجـددة، وننظم لها حمـلات ماركتينـگ بالصوت والصورة وزيارات افتراضية بالفيديو والويبكم؛ نربط علاقات مـع وكالات عقارية ناجحة خـارج المغرب بالأنترنيت؛ نجهّز الوكالـة بأحـدث آلات الليـزر للطبـع والسـحب والتصويـر والإرسـال... وكلهـا اقتراحات زيـد والموظف الجديد بشـر المتخصـص في هـذا القطاع؛ التنافس بين الـوكالات العقارية قـال بشـر سـوقُه حاميـة، واللـي تهـاون أو غفـل هـزُّه الما... أش رأيك؟

أجابتها أسماء مبتسمة:

- تبارك الله! باغيين تديرو ثورة في الوكالة.

- وعـلاش لا؟ ثـورة وزعيمتهـا السـيدة أسـماء اللـي مـش منهـا اثنيـن، والغاية تقويـة رقـم أعمالها وتوسـيع نطاق نشـاطها... لكـن حبيبتـي، أنـا أتكلـم معـك فـي أمـور جدية وأنـت سـاهية و بالـك مـش معـي. أنـا أبـداً مـا أخفـي عنـك

أي شيء. أنت بمثابة أختي الصغرى ويهمني أعرف ما بك...

أطرقت أسماء قليلا ثم نظرت إلى جليستها بعينين لامعتين:

- فيه رجل بدأ يدخل في حياتي، سبق ذكرتُه لك. تعرّفت عليه بواسطة نجلاء وزوجها في حفل عند راضية.

- كل ما يجي من نجلاء فيه خير، هي تحبك وما تشوف غير اللي فيه سعادتك.

- صح... قالت عنو ما يفوق الوصف. أخلاقُه، احترامُه للمرأة، كرمُه... هو الآن مسافر ويرجع عما قريب.

- وعما قريب تقابليه، وعما قريب تاخْذيه، وعما قريب مولود نفرح بِه! تسمحي أزغرد.

- لا مش الآن... بعد شهرين أو أكثر أعوّل على زغاريدك حتى يبح صوتك.

- أزغرد وارْقص المغربي والشرقي. أشمر على ذراعيّ وأخدمك في عرسك حتى تسعدي بزواجك من هذا المحظوظ السعيد... اسمُه؟

- عزيز الشاذلي، خبير مالي...

- عزيز... اسم حلو! الآن يا عزيزتي ضروري أراقب فين وصل الطاقم. فيه رواج للعروض والطلبات لا بد نبدأ نبث فيها...

- تريثـي شـوية... تذكـري أم خالد، ولدت ذكـر، ورجلها وهـي فـي قمـة الفـرح. سـيري هنيهـا واعطيها من عنـدي هذ الهدية. قولي لها غادية أزورها بعدين. وهذا غلاف آخر سلّميه للحـاج المختار، قولي لـو الخير قدامنا. الرجـل فقير، زوجتُه مريضـة، أختُـه مطلقة فـي وجدة وبنتُـه عانـس... وأنتِ هذي نسـخ عقـد تمليـكك داري بحي الليمـون. وقّعـي عليها حتى تصبح عند الموثّق.

تـرددت عفاف مـن شـدة الانفعال والفـرح، فاسـتعجلتها مهددة:

- وقّعي وإلا بعد رقم ثلاثة أغير رأيي: واحد... اثنين...

تناولت المأمورة القلم بتؤدة ووقّعت وعيناها تفيضان بدمع ممزوج بالكحل، وبعده أخذت تمسح عينيها وخديها. قالت:

- الدموع عقدت لسـاني، وقلبي يخفق لكل هذي الأفراح والبشارات... تسمحي حبيبتي أذهب...

انتقلت عدوى بكاء المنسـحبة إلى أسماء، فغالبتها بإجراء مكالمات كان آخرها مع الموثق الصديق. أما عفاف فقد أجرت مع الثنائي اجتماعا قصيرا قبل أن تأذن للجميع بالانصراف، ثم انكبت على مراجعة رسـائل حررها ورَقَنها بشر. كان زيد آخر المنصرفيـن، وفيما هـو يجوز بهـو العمارة الأسـفل اعترضته يطّو مادةً رسـالة إليه، أظهرها على الأولى في جيبه فاستطارت ابتهاجا وتبعته تقول: رسـالة حبي فـي جيبك! بجاه المصطفى

حبيبنـا محمـد رقّـق قلب الرايسـة علـيَّ حتى تعطينـي خدمة. وأنتَ والله ما أخيّب ظنّك أو أشوّش عليك...

فـي يومـه الخميس، تم تمليـك دار أسـماء القديمة لعفاف التـي تخلصـت مـن عـبء كـراء شـقتها ورحلت إلى سـكنها الجديد، كما أن الوكالة اشـترت من الفرنسـية العجوز شـقتها وأبقتها فيها مكترية بشـرط تساكنها مع زيد وأمه، وهي الصيغة القانونية التي فضلها الموثق وأفتى بها.

ظُهْـرَ اليوم نفسـه سـاق زيد سـيارة السـت المديـرة، وهي جالسـة على المقعد الخلفي، متوجها، كمـا طلبت، إلى مقبرة الشـهداء. حين توقف في المرأب فتـح لها الباب بطريقة مهنية وسار وراء المرتدية جلبابا وحجابا إلى قبر قصدته فثانٍ، وأمام ثالث على شـاهدته اسـم الحـاج عدنان النصـري أمضت وقتا أوفر خاشـعةً مترحمةً باكيـة، يصحبها بضعة قـراء يتلون آيات بينـات ويختمونهـا بأدعية لـروح المنتقل إلى جـوار ربه. وفي نهاية الزيارة تصدق زيد عليهم، وقصد بوابة الخروج والسـت تمسـك بذراعـه اتقـاء التعثر أو فقـدان الوعي من شـدة الكمد والتأثـر. ولما بلغا السـيارة فتـح زيد بابها الخلفـي كما العادة، فأغلقتـه بقـوة ونعتت البـاب الأمامي فنفّذ. جلس وشـد على المقـود بكلتا يديه مغالبـا ذهوله وارتباكه؛ ثـم خلعت نظارتها ونظارتـه الشمسـيتين وحدقت في وجهه مشـيرة إليـه أن يفعل مثلهـا، فاعتـذر متذرعا بواجـب الحيطة والحذر في السـياقة،

ولو أنه رمقها بنظرة عجلى مرتين. عندها نطقت بكلمة الإقامة وجهتهـا القادمة، وسـمعته يتلعثـم بعبارات الشـكر والامتنان لتمكينـه وأمّـهِ من سـكن جيد لم يحلمـا يوما بتملكـه والتمتع بـه. اكتفت بإيماءات لطيفة، حتـى إذا أوصلها إلى مقرها، أخذ دراجته وعاد إلى عمله بالوكالة، كما أمرت.

في خطوط التماس بين فصلي الربيع والصيف من سنة ٢٠١٢، تدافعت الوقائع والاحداث بوتيرة لم تعهدها أسماء من قبل. الوكالة تكتسب حُلة جديدة من حيث تحديث أجهزة العمل ووسائله، وكذلك إعادة تنظيم المكاتب والفضاءات؛ الفتاة يطّو تشرع في عملها الجديد كمنظفة ومساعدة عند الحاجة، وذلك لقاء أجر لم تكنِ المسكينة تحلم به، مما جعل زيد يدّعي مازحا أن للوكالة الحق في الافتخار بكونها حققت المناصفة بين الجنسين في طاقمها العامل؛ عفاف أخذت تخالجها فكرة اقتراح نقل مقر الوكالة إلى آخر أوسع وأجمل في عمارة حديثة ذات موقع مميز وخدمات جيدة، لكنها آثرت إرجاء الكلام في هذا الشأن مع رئيستها المشغولة طوال هذي الأيام بعزيزها ومآربها الخاصة.

وفعلا، أسماء منذ أذنت لنجلاء بتمكين عزيز من رقم هاتفها وهي تحادثه مطولا حيثما يوجد في مونريال ودبي وجنيف. ويوم عاد إلى المغرب استقبلته في إقامتها حول مائدة غداء أحسن محمود إعدادها. رحبت به أيما ترحيب، وتلقت منه كلماتٍ طيباتٍ صادقات. لم يسألها شيئا عن ماضيها، لكنها بادرت إلى الكلام الموجز عن زوجيْها

المتوفيين وابنها المقيم في الخارج، فأقر بتطابق وضعيهما في هذا الشأن، وأشار إلى تطابق آخر، الوحيد الذي أطلعته عليه نجلاء، وهو هواية السباحة، معترفا أن كثرة أعماله لا تسمح له بممارسة غيرها في مسبح إقامته بالدار البيضاء. والتمس منها أن تُكسبه بعض المهارات في هذي الرياضة النافعة الكاملة. كان شرطها أن يلقنها شيئا فشيئا من علمه الزاخر في عالم المال والأعمال، كاشفةً عن معرفتها بشهاداته العليا من أشهر المدارس والجامعات في أوروبا وأمريكا. وبالمناسبة أطلعته لماما على إدارتها لوكالتها وين وين أو المرابحة، فأعجب بالتسمية ودلالتها الإيجابية؛ كما حدثته عن أعضاء طاقمها ونوهت بنائبتها ويدها اليمنى عفاف، فبارك لها في مقاولتها وعملها من دون أن يسألها عن رقم أعمالها مثلا، ولا عن رأس مالها أو ممتلكاتها الخاصة، واكتفى بالتعبير عن جعل خبرته رهن إشارتها قدر الإمكان، مظهرا كثيرا من التواضع والكياسة. شكرته بحرارة على لطفه وعنايته، وخطر لها أن تسأله عن طبيعة علاقاته ونوعية شركائه والمتعاملين معه، لعلها تستدرجه من بعد لبعث ولو إشارات عن حياته العاطفية، لكنها أحجمت عن ذلك تجنبا للتسرع والإحراج، فقنعت بالإنصات إليه مليا، وهو يصف عامةَ الفاعلين في أسواق المال والبورصات بمجانين المال وعبدة الأرباح السريعة الفاحشة، شعارهم أن تَفترس أو تُفترس، تصدق عليهم، كما ذهب، الآية الكريمة ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، ووسم أغلبهم

بالمضاربيـن الصعاليك، والوحوش الضارية، وأشرسـهم في تصويـره برنار مادوف، رئيس إحدى أهم شـركات الإسـتثمار فـي وول سـتريت، مـارس الغـش والتزويـر، وخـرّب حيـاة كثيـر من النـاس، وحُكم عليه فـي ٢٠٠٩ بالسـجن لمدة قرن ونصف. وابنه الذي اسـتفاد من عمليـات أبيه الإجرامية انتحر من شـدة إحساسـه بالخـزي والعـار. وأمثال مـادوف الصغار مـا زالوا يحكِّمون شـريعةَ الغاب، ولا يتوانـون في التآمر على المذخرين البسطاء كما على قيمة عملات وطنية وحتى قارية، ومثّـل بمنطقة الأورو ومنهـا اليونان التي أصبحت دولتها على حافـة الإفـلاس وطبقاتُهـا الدنيا وحتى الوسـطى تعانـي يوميا من شـظف العيش وضائقاته ومن العواقـب الوخيمة الأخرى لأزمة خانقة متفاقمة؛ ثم اسـتثني من كل أولئك فئة قليلة تمنى أن يكون منهـا، تعمل ضد اقتصاد الكازينـو وزوابعه الجارفة، وتدعو إلى عقلنة أسـواق المال والاقتصاد وضخها، ما أمكن، بالقيم الانسانية العليا التي تعطي للحياة دلالة وطعما...

سـكت لحظـة مسـتلذا بـأكل سـمك صحنـه ومثنيـا على طازجـه، ثم ختم قائلا: المال يا سـتي أسـماء خادم جيد، لكنه سيد سيئ... بعد عودتي من مهمة في برازيليا يكون لي إن شاء الله شـرف إطلاعك على مسـببات الأزمة الاقتصادية القائمة. وقبل موعدنا القادم شـوفي في الإنترنيت موضوع أزمة العقار في إسبانيا حتى نتحدث عنها، وطبعا أنت في هذا القطاع مهيأة لفهـم مكوناتهـا وأسـبابها... خطـر للممعنة فـي الإنصات أن

تقول له ما تعلمه في هذا الشأن، لكنها استحيت كما التلميذة الخجولة أمام أستاذها، لا سيما وأنه أردف قائلا: أدعك الآن في رعاية الله. آسف لكون *Time is money* هو شعار أمثالي، ولو أني أذكّرهم مرة مرة بأنو الزمن هو كذلك زمن التأمل في الحياة والتمتع بها...

كانت أسماء ترشف كلمات جليسها الموشاة بالدقة والرقة، تجرع جمله النيرة البليغة، راجية لو أن دفقها الدافئ يدوم وتيارها الناعم لا ينقطع... وقف ذو الهامة والهمة – هكذا تبدّى لها – فوقفت مشرئبة بعنقها إليه، متوددةً، متمنيةً له سفرا سالما وعودة ميمونة، فانحنى يقبل يدها ثم خديها، ووعدها بالبقاء معها على صلة أيام غيابه. وعلى مقربة من باب الخروج التفتَ إلى محمود المبدي علامات التبجيل والإحترام، وأوصاه بالست خيرا، ثم نعت رجلا قويا عملاقا فقال لمصاحبته: شوفي هذا الگارد-كور دايما تابعني بحال ظلي. فيه جهات خايفة عليّ... بدا لأسماء أن تسأله هل له واحدة بمثابة *garde-cœur* فأمسكت واكتفت بالتلويح له فيما العملاق يفتح له باب *4×4* الخلفي ويجلس حذاء السائق؛ وظلت هي كذلك إلى أن غابت سيارة السيد عزيز تماما.

بعد ذاك استمعت لمحمود يستفسرها عما يفعله بهبة مالية من الزائر الكريم، فسمحت له بأخذها ما دام لم يطلبها، وأمرته أن يراقب عمل البستاني ومنظف المسبح دون أي خدمة أخرى، ثم هرعت إلى الحمام وأخذت أمام المرآة

تلامس بأصابعها خديها وتقبلها هامسة: حتى أنا خايفة عليك يا عزيزي، والله خايفة عليك أكثر من أي مخلوق آخر... ثم ارتمت على فراشها تتقلب فيه، تعانق الوسادات، مغرقة فكرها وجوانحها في ما يحدث لها، فلم يلهها عن ذلك إلا صوت نجلاء مكَبَّرا في الهاتف:

سألتها: عملتِ إيه في الرجل، يسبّح باسمك بعد الله، ويلخص انطباعو عنك: امرأة رائعة!...

أجابتها: وأنت حبيبتي حرام عليك. سلطتِ عليَّ هذا جنتلمان والخبير المذهل، وأنا مش قد مقامو وعلمو. ورغم هذا راني الآن مهووسة به ومحال أنام الليلة...

ردت نجلاء: راضية مسافرة ليلة غد، وأنا مشغولة معها. ممكن نمر نشوفك في الوكالة غدا في الصباح. هي رغبتها تودعك، وبشرفي ما تعلم شيء عن علاقتك بعزيز... خلاص اتفقنا...

عقب انتهاء المكالمة، لاذت أسماء بالسبوح في الإنصات إلى موسيقاها المفضلة، مرخية العنان لأحلامٍ يقظة، فارسها الأوحد عزيز، هذا الوافد الجديد على حياتها، والمرشح الأقوى والأحلى لترقيتها وإسعادها. وظلت كذلك ساعات طوالا، حتى إذا حل الليل اندست في فراشها مستسلمة لنوم ليّن لم تنعم بمثيله من قبل.

* * *

قبيل حلول الموعد كانت يطّو قد أعدت على مائدة الست المديرة كل ما أمرت به عفاف من مشروبات وحلاوي. استقبلت أسماء صديقتيها بالعناق في بهو الوكالة، تمنت لراضية الشفاء العاجل ليدها اليسرى الملفوفة في الجبس، وعللت نجلاء هذي الوعكة بكون الفارسة حزنَ فرسها لفراقها واستاء، فأسقطها من فوقه سقطة خفيفة؛ ثم إن الجميع وقفوا محيّين بإيماءات تقدير وإكبار. طلبت راضية من مضيفتها أن تقدم لها أعضاء الطاقم، بادرت عفاف الغنية عن التعريف إلى تلبية طلبها بإيجاز، ثم دعتها إلى تشريف صالون الست المديرة، فاستجابت وهي تطيل استراق النظر إلى زيد.

حول المائدة رحبت أسماء براضية في أول زيارة لها للوكالة، سألتها الزائرة:

- عزيزتي أسماء، جلستنا للأسف قصيرة. هذي الرسالة المختومة هي مني إليك. أمنيتي تطّلعي عليها وأنا غائبة حتى تحسني الظن بي ونظل صديقات العمر... عشنا لحظات جميلة وأخرى شوية صعبة، الأولى هي اللي تبقى ونتذكرها... إنما الشاب زيد وحتى زميلُه مش غريبين عليّ...

قاطعتها نجلاء:

- لا يا راضية، الحكايات انتهينا منها خلاص!

- طبعا حكاياتنا وضعنا لها نهايات، وهي في طريقها إلى وكالة هوليود اللي تكلمت عنها... لا، أنا أسأل فقط عن زيد

فين شوفتُه من قبل، فين؟... لا يهم، ننسى الموضوع... الآن حان وقت گود باي، قومي نجلاء نمشي. أغراض أخرى في انتظرنا.

نهضت الستات وتعانقت راضية وأسماء عناقا حارا، وفي البهو جددتا العناق حتى البكاء، ثم أخذت راضية تحملق في وجه زيد وصديقه، ثم هتفت في اتجاههما بعينين محمرتين، رافعة شارة النصر:

هـذي وقفـه سلميه والمبادئ حقوقيه...

تردد الشابان ثم هتفا بدورهما:

هـذي وقفـه سلميه وقِـيَّـمـنـا تـحـريـريـه
الـحـركـه سلميه والـحـراكْ بـلا عـراك
الـفـسـادْ الـفـسـادْ هـو عَـدُوّ هـذْ الـبلاد
ما مْفرقينش ما مْفاكينش وعلى الظلم ما راضينْش وما راضْيَش

أمام ذهول المديرة ونائبتها وتمادي بويا عمر في تحاياه العسكرية وانضمام يطّو إلى الهاتفين، جذبت نجلاء راضية إليها تنهاها عما هي فيه، فسكتت معتذرة وقالت:

- صديقتنا تفسر لك بعدين ما حدث يا عزيزتي أسماء. وأنتِ يا ست عفاف تركت لك عند نجلاء حوائج والكثير من الأثاث، وزعيها بينكم، وما تنسي هذي البنت... أش اسمك؟

ارتعدت فرائص المنعوتة وأجابت متلعثمة:

- يا لالة... اسمي يطّو.

- إذا كنتِ عزبا سيري الله يجيب لك شي فرْطَطّو...

قالـت راضية دعاءها هذا وقد اجتازت عتبة الباب وأخذت تنزل الـدرج مع رفيقتهـا. توجهت المديرة إلـى مكتبها، وبعد لحظـات التحقـت بهـا النائبـة وأبلغتهـا سـبب ذلك المشـهد المثيـر للدهشـة والعجـب، بعد أن اسـتقته من زيـد وصاحبه، وهو أن السـت راضية كانت منذ سـنة ويزيد تشاركهما محجبةً مظاهـرات حركة ٢٠ فبرايـر، ويرددون مع الجموع شـعارات أسـمعونا بعضها، وكلها من صنع زيد حارس السيارات سابقا والمرشد العقاري حاليا. والتمست عفاف من رئيستها أن تقبل اعتـذارات الجميع وتسـامحَهم، وسـمعت منهـا كلمات تفيد قبولها وأخرى تعبر عن عجبها واسـتغرابها من راضية المحيرة والفريـدة من نوعها، وتمنت ألا تكون الرسـالة التي تركتها لها قنبلة مسيلة لدموع الكرب والأسى جراء مفاجئات غير سارة.

اسـتأذنت النائبـة فـي العـودة إلى مكتبهـا، وظلت أسـماء وحيـدة، عينهـا علـى هاتفهـا، لا تفكـر فـي شـيء آخـر غيـر عزيزهـا، تُـردّد كلماتِه وجُملَه، وتسـتعذبها بحواسـها وكيَانها كله. سـطرت كلمات على جـذاذات حتى تبحث عن تعاريفها ومعانيهـا في ما تتوفـر عليه من معاجم وفـي غوغل ويوتوب، ومنها أرسـن لوبـان، روبان دي بـووا، أزمة العقار الاسـبانية،

مضاربـات الأسـواق المالية... وفيما هي تفكـر في أخرى رنّ هاتفها، ففتحته فورا وإذا بنجلاء تشـرع في شـرح سبب مشهد الشعارات، فقاطعتها بأنها عرفت السبب وبطل العجب، لكنها سـاءلتها لماذا راضية خاطبتها بكلمـة عزيزتي على غير عادتها من قبل. أقسـمت المسؤولة أن الأمر مجرد مصادفة، لا تلميح فيه إلى عزيز، ثم وعدتها بلقاء قريب...

-٣٠-

عودا إلى إقامتها، آثرت أسماء تأجيل قراءة رسالة راضية تجنبا لما قد يعكر صفو خاطرها وجنوحَه إلى الذي بات يقيم في قلبها وتتردد كلماته العلية بين صدرها وذاكرتها. فتحت بريدها الالكتروني فطالعتها فيه رسالة منه نزلت عليها دفئا وسلاما؛ يعبر بألفاظ حرى متقدة عن شوقه إلى رؤيتها ومجالستها ورغبته في محادثتها، واعدا إياها أنه من أجلها قد يقصّر أيامه في الخارج. سارعت فورا إلى إجابته بكلمات معتدلة الاندفاع والتوق إليه، ولو أنها ختمتها بما لم تستطع كبحه والسكوت عنه: ترقبها للقائه على أحر من الجمر. سحبت الرسالة ورقيا، وأخذت على فراشها متقلبةً تقرأها مرارا وتكرارا حتى حفظتها عن ظهر قلب، وظلت تستحلي كل مفردة على حدة، متأولةً رقتها وشذاها تأويلَ البِشر والخير، متمنيةً سماع صوته على خط هاتفها...

وقتها كان زيد، صحبة بشر وآخرين، يصيد السمك بصنارته في الساحل البحري المقابل لحيه، ويطّلع هو بدوره على رسالة يطّو إليه في انتظار أن تؤتي الطعمة أكلها؛ رسالة هي الخامسة أقسمت باعثتها في مطلعها أنها كتبتها بنفسها وبخطها، وتبدى له صدق دعواها من كلماتها وجملها البسيطة المعبرة، البعيدة

عن أسلوب الحذلقة والتصنع. واستقى من قراءتها مرتين أن للبنت حظا من التعليم وحبّا تكنه له صافيا بريئا لا غبار عليه، هذا علاوة على استقامتها وحسن سلوكها في الوكالة. شيء واحد لم يستسغه في الرسالة، ولو أنه قابل للتصحيح، هو أن تناديه: يا فرْطَطّو ذيالي، متأثرة ولا شك بورود هذي الكلمة في دعاء راضية لها بالزواج. وبينا هو منصرف الذهن إلى يطّو وما يحوم حولها إذا بالصنارة تأخذها رعدة حادة، فسارع إلى سحب سلكها، فيا لِسروره لما اصطاد! سمكة شبوط سرعان ما عكست له صفحتاها الناصعتان وجه المتعلقة به، الآخذة في ترويض قلبه، فصاح من حيث لا يشعر: صدقت يا بشر! هذي ربطة زغبية والفاتحة زيدية، ثم التف حوله رفاق الصيد وهنأوه على غنيمته المعتبرة. ولما امتلأ نصف سلته بأسماك أصغر حجما، ودعهم على أن يلحق بهم ليلا في مقهاهم المعتاد بالقامرة للتحادث في قضايا الدوار وأخرى متنوعة...

* * *

عزيز وعد وأوفى. ها هو يؤكد لأسماء بالهاتف تاريخ عودته القريبة إليها، يضرب لها موعدا في إقامته بالدار البيضاء، يزودها بعنوانه وأرقام هواتفه.

يومه السبت فاتح مارس ٢٠١٣ تاريخ سجلته أسماء في ذاكرتها ووجدانها بأحرف ذهبية بارزة. في صباحه توجهت إلى داعيها يسوقها زيد في سيارتها مرسيدس الحمراء. طوال الطريق، جالسةً على الأريكة الخلفية جنب باقة ورد فاخرة،

لـم تنبس سـوى بكلمات إرشـادية لفـرط ما اسـتأثر بها الفرح والانفعـال بلقائهـا المرتقب مـع عزيزها وفـارس أحلامها... على عتبة عمارة هاي سـتاندنگ اسـتقبلها حارسـه الشخصي الـذي نعـت لزيـد مدخـل مـرأب السـيارة ورافقهـا محيّيا في مصعد سـريع، أفضى بهما إلى بهو وسـيع ذي باب واحد يقف عليه المضيف ببدلة بيضاء أنيقة، فتسلم منها الباقة مقبّلا مرحّبا ورافقها إلـى الصالون حيث انحنت لهـا خادمة جميلة وتلاها خادم شـاب قـال عزيز إنه زوجها، فانبسـطت أسـارير الضيفة وأخـذت تعبّر عـن إعجابهـا بفخامـة المنزل ورونق هندسـته وأثاثـه وجمال لوحاته التشـكيلية ومنحوتاته. أخذها عزيز من ذراعهـا وعرّفهـا على غرف الطابق السـفلي وفضاءاته ثم على الطابـق العلـوي حيث دُهشـت وسُـرت باحتوائه على مسـبح فسيح مغطى. استحلت احتكاك مرافقها بها وقالت متعجبةً:

- هذي فيلا هائلة معلقة!

- في الطابق العشـرين، الأخير. مساحتها ٤٠٠ م٢... وهنا جنب المسبح نجلس، وفيه قبل الغداء يكون سباقنا...

- سباقنا؟ مش ناوية أعوم. ما أخذت معي المايو.

- عندي لك واحد من طراز فريد.

- ما استعمل مايو العشيقات.

- حـرام عليك! قلت لك مـن طراز خاص. أصنع لك مايو حواء من ورق التوت.

- نشوف الأمر بعدين.

أجلسها قبالته حول طاولة حافلة بشتى المشروبات، ضغط على زر فمثل الخادم وأخرج زجاجة شامبانيْ من سطلها وفتحها. نعتت أسماء عصير طماطم، لبّى طلبها وسقى الجليسَ المندهش ثم انسحب... دار الحديث بينهما لماما عن نجلاء وزوجها سعد، فتوافقا على التنويه بأخلاقهما العالية ووفائهما لمن يختارونه للعشرة والصداقة. تنهدت أسماء وتأسفت لكون جل الأزواج ليسوا مثلهما!

سألته عن راضية وبعلها، فأقر أن معرفته بالأولى ضعيفة، وعلاقته بالثاني دامت بضعة شهور منذ زمن مضى وانقطعت بسبب خلافات في التعامل والسلوك؛ ثم اعترف أن تلبيته لدعوة راضية تمت بإلحاح من نجلاء وزوجها، وأثنى على صنيعهما، إذ مكناه من التعرف على امرأة رائعة حسناء اسمها أسماء، التي شكرته على وصفه لها، وأيدته في الثناء على مسعى الزوجين المتحابين الخيّرين.

بدا للجليسة أن تأخذ هذه المرة بزمام المبادرة في المحادثة وإبداء مشاعرها، قالت:

- أنا يا عزيز لا أشرب الخمر ولا أدخن، لكني أُحادث... صحتي رأس مالي ولا أريد الإساءة إليها. ربما ترى في السكر ما يسعف اللسان على الانفتاح والبوح؛ أما أنا يكفيني أي عصير وحتى الماء لأعترف لك أني من لقائنا الأول حتى

الآن سكرانة بحسنك وكلامك ولطفك. إنسان مثلك جوال وصاحب مهام، أكيد لك عشيقات في كل أنحاء الدنيا. وهذا من حقك ولا تعليق لي عليه...

بدا للمتكلمة الجسورة أن تذهب أبعد فتسأله: أما آن لمطلّق وأرملة مرتين أن يجربا زواجا تشي أمارات شتى بإمكان نجاحه. بدا لها ذلك لكنها أمسكت. وعوضه التمست منه أن يحدثها عن سفرته الأخيرة بنهاراتها ولياليها، فابتسم وأفرغ كأسه وأجاب:

- لا، بعدين أحدثك عن سر بروز البرازيل كقوة صاعدة، وعن صمودها أمام جائحات العالم المالية؛ بعدين أحكي لك عن لولا دا سيلفا الرئيس الأسبق لهذا البلد الشاسع ورائد نهضته اللي أتمنى تقوّيها الرئيسة الحالية، الست ديلما روسف؛ أما حياتي الغرامية فأنا ودعتها الوداع الأخير من وقت شفتك وقابلتك... من قبلك عرفت نساء ونساء، لا أتذكر حتى أسماء بعضهن. كان الشيب بدأ يغزو مفرقي، ولا واحدة عيّرتني به، سواء كانت من سني الخمسيني أو أصغر. واليوم ورأسي ينذرني بالاشتعال شيبا، عليّ بطي صفحة من حياتي وفتح أخرى، وهذي الصفحة الجديدة ما أراها إلا معك يا ستي أسماء، وإذا سمحت... يا حبيبتي...

احمرت وجنتا الست ولمعت عيناها ببريق القبول الممزوج بالتحوط. ولمحاولة تخليص جوابها بنَعم من لكن، بادر عزيز إلى القول:

- الإمسـاك عن الشـراب والتدخين مشروع مؤجل عندي، وتنفيـذُه متعلـق بـك، وكذلـك التقليـل مـن السـفريات إلـى الخـارج، ما عـدا الضروري منها آخـذك فيها معي حتـى نَنْعم بالحـب وتحرسـي قلبي... الآن حـان وقت سـباقنا في الماء، ومن يطلع الأول يطلب يد الثاني...

- والمايو يا عزيز، المايو!

- مايو حواء يا حبيبتي أسماء. الله وحده يرانا ويشهد على صدق نوايانا... أغمض أنا عينيّ، اخلعي أنت لباسـك واقفزي في المسبح، والتحق بك بعد شوية...

وكذلـك كان. لـمّا قطـع المتباريان المسـبح طولا مرتين، كان السـبق لعزيز الذي بادر بعد التوقف إلى طلب يد منافسته، أعطتـه إياها ثم جذبته إلى عمق المسـبح لإظهاره على تفوقها هناك، فصارا كحوتين ذكر وأنثى يتراقصان، يتلامسان، يتعانقان ويتلاحمان على وقع نغم صامت ينفذ إلى قلبيهما وجوانحهما عذبـا ناعمـا. ومن حين لآخر يطفو عزيز برأسـه على السـطح للتـزود بالهواء ثـم يعود إلى ما كان فيه مع أنثـاه، حتى إذا هاج بهما الشـوق والهوى سعيا إلى التنفس ملء صدريهما ومتابعة الانغمـار في لجـة التعنيق والتقبيل الجامحـة... وبعدها هرعا إلى مخدع ارتديا فيه لباسا خفيفا فإلى غرفة الحب ذات السرير الوثير والأضواء الخافتة...

في هذي الأثناء، كان زيد قد رجع من المطعم إلى السـيارة حيث تمـدد على الأريكة الخلفية، تارة يعيد قراءة رسـالة يطّو

الأخيرة، وطورا يسبح في أمور شتى، متأرجحا بين الغفو والانتباه، حتى أتى عليه وقت رأى فيما يرى النائم رئيسته الست أسماء تستقبله في شقة فاخرة، مرتدية فستانا شفيفا، ووجهها في أبهى صوره وكذلك جسمها؛ تأمره بالتعري فيمتثل وبتقبيلها حيثما شاء فيطيع؛ لكنَّ تيار رؤياه سرعان ما انصرم إثر قدوم الـگوريلا الذي أخطره بقرب مجيء سيدته لكي يستعد للسياقة.

صاحب عزيز محبوبته إلى بهو العمارة السفلي حيث قبلها خلسة ووعد بزيارتها في الغد لجولة سباحية إيابية ووضعِ ترتيبات تخصهما. حين قصدت سيارتها، فتح لها زيد الباب الخلفي، ملاحظا من طرف خفيّ ابتهاجها وانتشاءها، ثم انطلق عائدا إلى الرباط.

في الطريق ظل بال الست منشغلا بما حدث لها وعاشته، فلم يخالجها أيُّ ندم في ما فعلته، ولا أيُّ ريب في استقامة عزيز وصدقه. وبين حين وآخر تلتفت إلى سائقها وتستفسره هل هو مرتاح في عمله بالوكالة، «بل سعيد وجد محظوظ» يجيب؛ وعن أمه وسكنه الجديد، فيشكرها مجددا عما فعلته من خير في حقهما، ويدعو لها بالصحة الوافرة والنصر والتوفيق... خطر له أن يسألها عن أداء بِشْر في عمله ويطّو في شغلها، كما عن إمكانية توظيف سائق غيره، كيما يتفرغ لشؤون الوكالة وحاجتها إلى المزيد من التحديث والتوسع لكنه، وقد لاحظ في المرآة الارتدادية سهوها عما حولها، آثر أن تكون عفاف واسطة خير في ذلك، حسب ما اعتاده منها.

-٣١-

وعـد عزيـز وأوفى. هـا هو بعيد الـزوال مـع عزيزته جنب المسـبح بلبـاس العـوم حـول طاولة تـي تايم أعدهـا محمود واختفـى. قدّم لهـا بدايةً هدايـاه المقتناة أثناء سـفرته الأخيرة: حقيبـة جلديـة بديعة الشـكل واللون، حِلـيّ وقواريـر عطور. دنـت منه أسـماء شـاكرة مقبّلـة، ثم دعاها إلى سـباق الحسـم السِّـباحي، فاستجابت مظهرةً علامات الخشـية والتهيب. وما إن قفـزا في الماء حتى أبانت السـبّاحة عن لياقـة بدنية ومهارة عاليتين، بحيث نالت قصب السبق بفارق زمني ممتاز، فما كان مـن عزيز إلا أن أقر بهزيمته وهنأ المتفوقة بسـيل من الضمّات والقبلات. وبعدذاك استحما تحت دوش مشترك، تلته استراحة اسـتعدادا لتناول العشاء في جلسة حميمية لا تلحقها الأضواء ولا الأنظار.

في قاعـة الطعام حول طاولة أعدها محمـود وزيّنها بالورد والشـموع ثم انسـحب، أصرت أسـماء أن تخدم ضيفها الأعز وتختار له ألذ الأكلات وأشـهاها. سـقته نبيذا اسـتطابه ومدح مذاقـه وتربة مأتاه، واهتبلها فرصـة لكي يبوح لها أن فطمه عن الخمـر تحت وصايتها ورعايتها قد يتطلـب وقتا وتدرجا على

غـرار ما اقتضـاه الأمر القرآنـي بالتحريم. وتمنت لـه المنصتة المبتسـمة أن يسـبق ذلـك الفطم الإمسـاكُ عـن التدخين حتى يحسّن أداء رئتيه وأنفاسه في العوم، فيثأر منها ذات يوم بالفوز أو بالتعادل. عبّر لها عن استبعاده لهذا وذاك، ووعدها بإخضاع علاقته بالتبغ للتقشف في انتظار الاضراب عنه.

عم صمت بين العشـيقين، تلذّذا خلاله بالأقوات المتنوعة كمـا بأنغـام موسـيقى عذبـةٍ لطيفة، تنعـش الحواس وتسـتثير الرغبة فـي الرقص. توقف عزيز عن الأكل دون الشـرب. نظر مليّا إلى وجه جليسته النَّضِرِ الصبوح وقال:

- تفوقـي عليك في جولة السـباق الأولى إنمـا تم بتدبيرك الذكي، حتى أكون السبّاق إلى طلب يدك... صح؟

جذبت أسماء يد عزيزها، لفّتها بكفيها وهمست:

- تفوّقي اليوم يجعلني أنا أسـماء العامري اللي أطلب يدك وآخذهـا... أطفأت كل الهواتـف لأقف كما ترى وأصرح لك أمام الله أني أخطبك وأريدك زوجي...

وقـف المخاطـب بدوره وصـرح بمثل ما صرحـت به، ثم تعانقـا وتضاما في رقصة سْـلُو ناعمة مسـكرة، ثـم حملها بين ذراعيه إلى غرفة الإمتاع والسحر الحلال...

* * *

بعيد منتصف نهار الغد، استقبلت عفاف رئيستها بالعناق ورأتها على غير عادتها تصافح كل أعضاء طاقم الوكالة واحدا واحدا بمن فيهم يطّو، تسألهم عن أحوالهم ومدى ارتياحهم في عملهم، فلا تتلقى منهم سوى كلمات الرضى والإعتراف؛ ثم وعدتهم بزيادة وشيكة في أجورهم قبل أن تقصد مكتبها مع نائبتها، متبوعة بآيات الشكر والامتنان وتحايا بويا عمر المعتادة.

حين دخلت المرأتان المكتب، أزاحت عفاف الستائر وهتفت:

- شوفي اللي فعلتُ بالعش، السرير طار، المكتبة حركتها إلى الحائط أمامنا. تركت من الأثاث اللي يجعل من هذي التوسعة صالون يكمل صالونك...

حيّت أسماء صنيعها وتهالكت على أريكة تستطيب التكملة. رنّ هاتفها فسمعتها جليستها تجهر بصوت في غاية الصفاء والإبتهاج: وحتى صباحك يا حبيبتي فل وياسمين وكل أيامك سعادة وهناء... أنا حلوة وأنت أحلى والناس من حولي حلوين... قبلاتك ومتمنياتك وصلتني على الهواء. وانا بدوري أقبلك وأقبلك... سمعت قبلاتي... والله، صدّقيني، أول مرة أشعر بالحب يغمرني بمثل هذا الدفق وهذا الدفء... أنا عاشقة! ولولاك... ما تقاطعيني... لولاك، وأقولها ألف مرة، ما كنت عرفت هذا الرجل الكامل الأوصاف اللي ملأ عليَّ حواسي، كلّ حواسي... مشروعنا؟ مش بالموبايل...

أشـوفك في المسـا وأحكي لك عنو، وكل كلمة ببوسة... نعم غـدا يأتي عزيز لزيارة الوكالـة. يعجبك تكوني معنا؟... عندك حق بلاش، ثم عندك حصة تنيس... وراضية أش اخبارها؟... الله يمتّعها بالسـلامة والصحة. إذا سـألت عني حييها باسـمي وأكّـدي لها: خـلاص حكاية أسـماء عرفت هابّـي آند حقيقي مش زيّ في السـينما، وأنو أبدأ حكاية أخرى أنا اللي أكتبها... گود باي حبيبتي.

عفـاف التي لم يزُل دهشـها ارتمت على المسـتطيرة فرحا تقبلهـا، ثم جلسـت جنبهـا وانهالت عليها بسـيل مـن التهاني والأدعية، ثم قالت:

– السعادة نورها يشع منكِ... خلاص أنا فهمت كل شيء. الوكالـة من اليوم ننظفها ونزينها، وغـدا نفرش لهذا ڤي آي بي الورد ونسـتقبلو بالتمر والحليب وبأجمل مـا عندنا... خليني آمـر يطـو وكل واحـد أش يلزم يعمـل، وأعلن زيارة شـخصية بارزة غدا من دون أيّ إشارة لمشروع زواجك به...

– انتظـري شـوية... أنتِ عفـاف مكانك هنـا وفي صالون داري ومش مطبخها. ما تنسي أنك مديرة بالنيابة... أش رايك آخذ بنت الحاج المختار شغالة عندي؟

– والله فكـرة طيبة. البنت أمينة وحاذقـة... وفكرة بفكرة. رايك جد إيجابي في بشر؟

– إيه طبعا، وحتى في يطّو...

- زيد طلب منّي أقترح عليك توظيف سائق يعرفُه ويضمنُه إسمُه رشيد حتى يتفرغ لشغلو في الوكالة...

- وحتى هذي فكرة جيدة. رتبي كل شيء وما تنسي الزيادة في الأجور اللي وعدت بها... عينك ميزانك... وانا دابا خارجة. عندي موعد...

- خليني أزغرد... فقط في أذنك، أرجوك...

* * *

في الغد بعد الزوال ها هو الطاقم المكون من عفاف الماسكة بباقة ورد وزيد وبشر ينتظرون على عتبة العمارة قدوم الست المديرة وضيفها الكبير، وقد ارتدوا أحسن لباسهم، لا يلغون ولا يتهامسون، ولو أنهم لاحظوا لفتات بعض الجيران إليهم وحلول حارس سيارات جديد محل يطو. رنّ موبايل النائبة، فعلمت من رئيستها أن سيارة السيد قريبة الوصول. عدّل زيد ربطة عنقه وفعل مثله صديقه. وحين ظهرت مرسديس بيضاء فاخرة فتح سائقها البابين الخلفيين، خرجت منه الست أسماء وأعقبها السيد المنتَظر بسموكينگ أزرق أنيق فتوجه نحوهما الوفد محيين، قدمت عفاف للزائر نفسها وسلمته باقة ورد وعرفته بالشابين ثم قصد الجميع العمارة فباب الوكالة، فيما زيد يناجي نفسه وقد لمح الـگوريلا يتسلم الباقة ويقف كالصنم قرب السيارة: كل شيء توضّح والطريق بان...

سبقت النائبة الجمع إلى مدخل الوكالة حيث قدمت للوافد الكبير صحن التمر والحليب. دخل الجميع وراء المقدَّمَين. فرت يطو إلى المطبخ، أدى بويا عمر التحية المعتادة وكان على وشك سرد سيرته العسكرية لو لم تسكته عفاف بغمزة حادة. حاولت أسماء إخفاء انبهارها بالبهو وقد أُزيح مبسطه وزُين بالورود وأضواء تخفت أو تشع، وتحوَّل إلى ما يشبه قاعة سينمائية صغيرة. بضعة مقاعد وراء كرسيان بارزان. على الحائط الأمامي شاشة متوسطة الحجم وفي الخلف زاوية ريجي بأدوات وآلات يسهر على تسييرها بشر وزيد. عرضت عفاف على رئيستها والزائر الكبير صحن مرطبات ثم مقبلات، فتناولا منها قليلا، ثم أخذت مبتسمة منشرحة تشكره على تشريفه وكالة وين وين التي تديرها السيدة أسماء بكفاءة قل نظيرها وأخلاق عالية. زكّى السيد عزيز قولها، وكم أفرحها ثناؤه عليها كمديرة بالنيابة وكامرأة يسبقها صيتها الطيب ويتأكد بحضورها.

سألت أسماء إن كان وقت عرض روبورتاج عن الوكالة قد حان، أشارت عفاف إلى الشابين، فإذا بهما يخفضان الأضواء ويشرعان في عرض معلومات على الشاشة، بعضها عن ميزانيتي التسيير والاستثمار ومؤشر المعاملات ومستخلصات الأجور والضرائب ومعدل الأرباح السنوي، وغير ذلك مما تضمنته لوحات رقمية ورسوم بيانية، ثم تلتها بالصورة وصوت زيد وبشر تناوبا زيارات افتراضية، على وقع

موسيقى مناسبة، لأهم عروض الوكالة العقارية في أربع مدن كبرى، بدءا بالشقق والفيلات المتوسطة والكبرى وانتهاءً بالأراضي التي طالها التوسع العمراني أو المرشحة لذلك، وكلها تندرج في عمليات ثلاث: البيع، الكراء والمبادلات على الصعيدين الوطني والخارجي... واختص بشر بإيراد مثال على زيارة فعلية قادها المرشد زيد وتمّ تصويرها ومزجها بالصوت في مونتاج وفوتو-شوب؛ وهي باختصار: الفيلا هذي من الطراز العالي، مبنية بالحجر الصخري المصقول، كأنو حجر الأهرام، يقوّي الأساس والسواري والسقوف، كل حائط يثنيه آخر وبينهما ألواح القُرق أو اللياج. إذن الصيف في الفيلا مبرّد والشتاء دافئ... الحديقة الفسيحة وغروسها، ما شاء الله على جمالها وهندستها! المسبح يشبه بحيرة أو قطعة من النيل، مع فارق كبير: العوم فيه أنقى وأسلم، والعائم يشعر في مياهو المتجددة ليل نهار بانتعاش جسمو وتقوية عضلاتو بحركات لينة ناعمة...

ندت عن السيد عزيز ضحكات خافتة، مالت عليه أسماء هامسة: الزائر مصري... ثم ختم صوت بشر قائلا: وهذي بوابة أخيرة اسمها: بنك المشاريع موزعة على ثلاث خانات: خانة التدابير الانعاشية الفاعلة، خانة الإجراءات الوقاية ضد مخاطر الانكماش والركود، وخانة الأفكار والمقترحات الجيدة القائمة على دراسات سوق العرض والطلب...

لمـا انتهى العرض وأُشـعلت الأضواء، صفق السـيد عزيز بحرارة، قام يهنئ السـت المديرة ونائبتها، وتوجه إلى الشابين فصافحهما مشجعا، وسألهما هل للوكالة ويب سايت فأجاب بشـر أي نعم وعقب زيد: هذا بيسـت-أوف، سيدي المحترم، مأخوذ من موقعنا الإلكترونـي... فبارك لهما في عملها تحت رعايـة السـيدة المديـرة المقتدرة وبعـون نائبتهـا المحنكة؛ ثم بطلـب مـن عفاف ألقى الزائـر الكبير نظرة علـى قاعة الانتظار والمكاتـب والتجهيـزات فأشـار أن الوكالة يلزمها مقر أوسـع وأحدث على أن تظل هذي ملحقة لها؛ وأبدت عفاف إيماءات تزكية وتأييد.

ختـم الرجل المميز جولته بجلسـة مـع محبوبته في مكتبها على انفراد، يتناجيان بكلمات خافتةٍ طيبات، ويتبادلان نظرات شـوق وولـع. أخـذ يدها بيـن يديـه وقـال: متى تعقـدي علي ونتـزوج؟ ما بيـن نهاية هذي السـنة وبداية القادمـة؟ صح!... وقفـا معا وتعانقـا وهي ترمق المدخل السـري لعش كان ذات يوم عشـها العشـقي، ثم طبعت على خده وشفتيه قبلات حارة تغالـب بهـا ما رمقتـه... ذكّرتـه بموعدهما مع نجلاء وسـعد، فقصـدا بـاب الخروج. فـي البهو سـلم على الشـابين ثم على بويا عمر وسـأله: بلغت سـن التقاعد يا حاج؟ أجاب: سـيدي تقاعـدت كمقاوم، لكن مع هذي السـيدة الكريمـة، ما زال فيَّ ما يعمل... وما يحج أنا وزوجتي المسكينة... ربّت على كتفه وقال: حجك وحجها، يكون خير... ثم طلب بإحضار الشغالة

المختبئة في المطبخ، استفسرها عن سبب هروبها منه، أجابت مرتبكة وعيناها مغمضتان: هي الحشمة يا سيدي، سامحني... لامس رأسها وغادر الوكالة والعمارة صحبة أسماء، فيما الثلاثي يتبعونهما بإشارات التوديع والاحترام إلى أن انطلقت السيارة بهما.

في الطريق إلى موعدها، خطر لأسماء أن تحدث حبيبها عن موظفي الوكالة من المغادرين إلى القارين والملتحقين، مركّزة على عفاف وزيد، لكنها أجّلت ذلك إلى مستقبل الأيام، الذي سيتسع لمواضيع أخرى شتى تنبئه بها كيما تبدو شفافة صافية، خلوةً من ظلال الأسرار، إلا ما منها يعصى على البوح والافشاء، كعلاقتها السيئة مع ابنها المختفي وكعشها العشقي وما كان لها فيه من جلسات حميمية مع الحاج النصري، وليِّ نعمتها المتوفّى...



زوال منتصف اليوم التالي، دخلت عفاف صحبة بنت الحاج المختار إلى إقامة رئيستها بعد أن تيقنت من غياب السيد عزيز. قدمت لها خديجة وأبلغتها امتنان أبيها ودعاءه لها بالخير الوافر ودوام الصحة والتوفيق. سُرّت أسماء بمجيء الخادمة الجديدة ورحبت بها، وتوجهت الآنسة فرحة شاكرة إلى حيث طُلب منها أن تبدأ عملها.

لما بقيت المرأتان على انفراد، انقضّت أسماء على عفاف بالتقبيل والعناق وهي تجهر في وجهها:

- أنـتِ جنيـة، عفريتـة! اللي فعلتِـه البارح لاسـتقبال عزيز والله ما توقعتُه ولا حتى تخيلتُه.

-أنت معذورة يا حبيبتي... بالك كلُّه مشـغول برجل هايل ومتواضـع، منعَّم وأكيد كريم. وأنا متيقنـة تكون لك معه حياة سـعيدة، أنـتِ تسـعدي به وهو يسـعد بـك والحبايب يسـعدو بفضلكـم... أدعيتي فـي صلواتي هي لـك ولمحبوبك، والله شاهد على ما أقول...

أتى محمود محييا بآنية شـاي وقهوة وصحن أكلات خفيفة تساعده خديجة. استأنفت الستّ كلامها وهي تحتسي شايها:

- صـح! ما أسـتطيع التركيـز إلا على عزيز، سـوا حضر أو غـاب... شـؤون الوكالـة، ما عـدا حـالات خاصـة، دبريها يا عفاف. عندك طابعها، وقّعـي بتفويض منّي قبل زواجي وربما حتى بعدو...

- سـمعا وطاعـة يـا رئيسـتي... إيـه نسـيت، السـائق اللي اقترحو زيد هو في الـگاراج يغسـل السـيارتين. فحصت ملفو وجدتُه جيد. وفيه طلبات شـغل أنظر في بعضها، لا دخل لزيد فيها وربما أعرضها عليك.

- تصرفـي واعطي الأسـبقية للأكفـاء والمحتاجيـن... إيه أنا في هذا الأسـبوع تصلني سـيارة هدية من عزيـز، وأنتِ بعد شـهر سلّمي سـيارتي القديمة لزيد وشـوفي لك أخرى جديدة على حسابي.

- لا يا ستي، ملكتني دارك والآن تهديني سيارة! هذا كثير عليّ...

- هذا أمر رئاسي لا يردّ... اشربي وكلي ونفّذي...

- يا ما أنت كريمة يا حبيبتي! سعيدة ورغبتك إسعادي... بعدين أبكي من الفرح. الآن أرجع إلى الوكالة مع السائق. اسمُه عبد الرحيم، رهن إشارتك في أيّ وقت. هذي بطاقتُه. تركتك بخير...

قامت عفاف وانحنت على الست تقبلها ثم انصرفت. بعدها ناداها عزيز وظل معها عل الخط زهاء نصف ساعة. شكرها مجددا على حفل استقباله في وكالتها، وتبادل معها كلمات حبٍّ وشوق وأخرى في نصحها ببيع أسهمها في البورصة سمّاها؛ ثم أنبأها أنه ذاهب إلى طنجة في مهمة. عرض عليها أن ترافقه، فاعتذرت قائلة إنها تفضل السفر معه إلى مدن في دنيا لا تعرفها؛ والأصح أنها إنما تستحسن التقليل من لقاءاتهما وترويض نفسها على غيابه وشغفِها الشديد به إلى أن يحل يوم عقد قرانهما وفتح فصل جديد في حياتها يكون لها في عشرته طالعَ يمنٍ وعيدا.

في ارتقاب قدوم نجلاء إليها سارت في أرجاء الفيلا تتفقدها، وعطفت على المطبخ فأوصت محمود بخديجة خيرا في تعليمها وإرشادها، ونعتت لها ملحقة في الحديقة تسكن فيها والعريشة تعد على مائدتها مشروبات ومقبلات...

هنا في العريشة حيث تتردد أصداء سمفونيات مختارة، جالست أسماء صديقتها نجلاء، تسلمت منها شاكرة حزمة كتب أخرى؛ تحادثتا في أمور كثيرة ضمنها اعتذار الست عن قبول عرض عزيز السفر معه إلى طنجة، فأيدتها الجليسة وباركت لها في ذكائها وفطنتها، وعبرت عن أملها أن تكون الأولى بعد الزواج في معرفة أنها حبلى. سكتت أسماء لحظة محتسية شايها ومستلذة بأنغام الموسيقى، ثم فجأة سألتها مفزوعة:

- والرسالة اللي أخفيت عندك؟ رسالة راضية...

- أولا أهنئك على قبول حكايتك من طرف الوكيل الأمريكي. هذا ما قرأتُه في إيمل صديقتنا الأخير. أما حكايتي فوجدها عادية، أي غير صالحة للسينما، وأنا غير مستاءة ما دام انْتِ نجحتِ...

لم تعر المضيفة أي اهتمام بالأمر، فأردفت الجليسة قائلة:

- أما بخصوص رسالة راضية اللي تقلقك، ففيها تعترف لك بأشياء تحت عنوان: ساعة الحقيقة دقت. هي كانت عشيقة زوجك الأول اللي حكا لها وهو سكران تجده، وأنت معه في السيارة، في موت الطفل خالد، هذي الأولى؛ الثانية أنها قرأت في كف أبو خالد وبشرته بولد من زوجته بعدما أخضعتها لإيكوغرافيا عند طبيبها الخاص ظلت طي الكتمان؛ الثالثة أنها دعت عشيق أختك الميتة إلى حفلها اللي حضرناه

من بعد حصولها على اسمو وعنوانو من أحد قراء مقبرة الشهداء، وتقسم أنها ما كانت تعرف أيّ شيء عنو. غايتها هي أنك تفكي لغزو، فإما تتخلصي منو أو ترتبطي معه في فصل جديد من حياتك. وفي الختام تستأذنك في إدراج نهايتو المأساوية في حكايتك مع تقيّدها بشرط السرية وتغيير أسماء الشخصيات...

تنفست أسماء الصعداء وقالت:

- راضية إذن كانت عرافة مزورة، تقرأ في الكف ما تعلمو من قبل... هذي امراه ما عرفت مثيلتها أبدا!

- فات اخبرتك كيف برهنتْ لي أنو كانت عشيقة زوجي الأول، وأَمْلَتْ عليه طريقة التعرف عليّ بالطريقة اللي سبق حكينا فيها... هي هكذا، الحياة عندها لعب ولهو... في حفلها الأخير گود باي بارتي، ألقت خطابا بالأنجليزية أمام المدعوين؛ سألتها من بعد تلخص لي مضمونو، أجابت: مجرد كوكتيل من التفاهات والأكاذيب... وعلى العموم كانت تقول لي: أنا بهلوانية، أمشي على حبال الحياة وألعب. ويوم أفقد توازني أسقط ميتة أو مهشمة... قلنا إيه في استئذانها منك؟

- بلغيها الطلب مقبول والشرط على ذمتها... يا ألله! راضية امراه تجنّن وتدوّخ...

ثم تناولت الرسالة وأحرقتها. وبدا لها الوقت مناسبا لتسر لصديقتها بما ينتابها أحيانا من قلق وهواجس، قالت:

- تصوري ابني حسـان يبرز لي في يوم ويعكّر عليّ حياتي أو يقتلني بسلاحو...

قاطعتها نجلاء بصوت حاد:

- لا يا سـتي، البلد فيها قانون وقوى أمن، وأكيد اسمو عند حرس الحدود. حسـان مسـتبعد جدا يعود. وإذا عاد أنا وسعد اللي يدو طويلة نخلّصك منو. لكن بعد شـهور أو سـنة احكي عنو لعزيز...

- وعزيـز يا حبيبتي، أكيد عندو أسـرار يخفيها عنّي... مثلا امـرأة أو أكثـر ما زال على علاقة بها... صعـب عليّ أصدق ما ليه عشيقات في أسفارو...

- يجـوز هذا، لكن هو عـازم على الزواج بـك أنتِ، ومعه يكـون طـوى صفحة علاقاتـو الماضية، ويفتح أخـرى جديدة معك وحدك، لا شريكة لك...

- كلامـك والله يريحني ويقوينـي... معرفتي بعزبز غيرت فـيّ أشـياء كثيرة. صورتـو وكلامو وهـو كلو يبـث في روحي وجسـمي دبدبات ناعمة ومنعشـة. الحياة عندي صارت حلوة بهيـة. حتـى السـما بنجومهـا وكواكبها صـرت أنظر فيهـا وانا متعجبـة ومنبهرة... بالأمـس تابعت من هنا غروب الشـمس، كما لو كنت أشاهدو لأول مرة، ناجيت نفسي: يا ألله، الشمس تغـرب! وحدث لي هذا مع كلّ ما تحفل به الطبيعة: الأشـجار والأزهـار والطيـور... والأنوار اللي اصْبحت أشـمها... حتى علاقتـي مع روك ورول تحسـنت، والتفاهم بيننـا قايم. قبل ما

تاتي تمغط روك على عتبة الصالون وشافني بعينيه كأنو يطلب منـي الدخـول. أوميت لو بعيني فقط فأقبـل وتمدد بين قدمي، أما القطط ما تسألي... شفت اللي فعل الحبّ بيَ!

- خـلاص يـا حبيبتي، سـميتِ حالتك وحلاوتهـا! الآن يا الله بنا للصالون نكمل كلامنا ونقتات ونسمع موسيقى... إيه، قبل ما أنسـى اقرئي من كتبي إليك رواية فتنة الرؤوس والنسوة لكاتب لا أذكر الآن اسمه...

فـي الوكالة وحتى في الحي، لم يعد سـرا أن بين زيد ويطو أشـياء، إذ أضحى، كلما أنهى عملـه وقضى بعض أغراضه في المدينـة، ينتظرهـا في درب محـاذٍ لزنقة بيت لحـم ثم يأخذها وراءه على دراجته النارية، فيجول بها جولات قبل أن يوصلها إلـى بيت والديها وإخوتها في دوار التقدم. وفي صباحات أيام العمـل يمـر لنقلها مـن مكان معلـوم في حيها إلـى آخر قريب مـن مقـر عملهـا. وأول مـن علم بذلك هو بشـر الذي شـجعه عليـه وأنبأه أنه هو أيضا مرشـح للزواج بعد أن تحسـن وضعه المادي، مجددا شـكره وامتنانه لصديقه على حسـن وسـاطته ودوام دعمه.

توالـت أيـام بين زيد ويطّو علـى ذلك النحو حتـى إذا عزم علـى تحسـين دينـه، فاتـح أمـه فـي الأمـر بحضـور العجـوز الفرنسـية السـيدة جان، فعجب لكونها وافقته توا وباركت له، وتبـدّد عجبـه لما أن علـم منها أنها فـي غيبته اسـتقبلت البنت مـرارا في البيت القديـم، وقلّبتها بصفتها كانـت من قبل قابلة، فوجدتها عذراء ما مسـها رجـل، وجربتها في الطبخ وشـؤون المنـزل، فألفتهـا ماهرة حاذقة وشـغالة؛ ثم ذكّرتـه أنها حامت

عليـه ضـد أولاد حرام كانوا لولاها سيقتلونه أو يعطبونه، كما أنهـا هي من استقدمت البوليـس ووقفت إلى جنبه في سـيارة الإسـعاف والمستشـفى. ولـم تكن الأم تعرف أن يطّو هي التي ساهمت من حيث لا تدري في ترقيته من حارس سيارات إلى مرشد عقاري.

سـألت العجوز عما تسـمعه ولا تفهمه، أجابهـا زيد بلغتها مبتسـما مبشـورا أن الأمر يتعلق بفكرة زواجـه. هنأته وألحت علـى أن يكون الزفاف في هذا المنزل وأن تعيش العروسـة فيه مع زوجها حتى يقوى النشـاط وتجد من يؤنسها أكثر. قام زيد شاكرا لها عرضها وفضْلها، ثم قبّل رأس أمه وانصرف هامسا: كل شيء توضّح والطريق بان...

بكل هذا حدّث زيد من بات يسميها أختي عفاف، وشاورها فـي الأمر. اعترفت له أن علاقته بيطـو لا تخفى عليها، فأيدت قصـده وباركت له فيه موصيةً إياه أن لا يحرم البنت من عملها هنـا كيما تعينه علـى تكاليف الحيـاة؛ كما أنها بشّـرته بتمليكه قريبا السـيارة العادية هديةً من السـت المديرة. عبّر عن امتنانه لها وعرفانه ثم أطرق مفكرا مترددا. سألته النائبة عما به فقال:

- أولا أنـا أفضل تكون حياتي الزوجية في بيتي الصفيحي، ولو مؤقتا؛ ثم أحب ائتمنك على سـر ما قلتو لأحد غيرك، وما تضحكـي علـيّ أرجـوك... تذكري يـوم جيت للوكالـة بوجه مجـروح وأنف يرعـف... اللي فعل فيَّ هـذي الفعلة هي يطّو

في سطح عمارة قريبة من هنا. تحدثني وقالت: نتعارك واللي غلب يكون وحدو حارس سيارات الزنقة. غلبتني بضربات قاضية، وبعدما عملت في الوكالة وتحسنت حالتي صارت تبعث لي رسائل غرام وتغنّي كلما صادفتها: بلا عداوة ما تكون محبة يا حبيبي... وهذي هي قصتي معها ولو أني مع الوقت صرت أنساها، سيما وهي اللي كانت اعتقتني من اعتداء حسان واصحابو عليّ...

انتاب عفاف ضحك سرعان ما حبسته:

- بنت عندها كل هذي الصحة والقوة ما تتردد تعقد عليها وتغلبها بعطفك وحنانك... زواجك أساعدك فيه، والست المديرة أكيد تنفق عليه وتهنيك بعدين...

- آخر شي... أنا وبشر راغبين نشوف الست المديرة، ونكلمها وانت حاضرة في أعمال خيرية نساعد أصحابها، وناخد رايها ورايك حولها حتى إن شاء الله نتقدم ونتوفق... وهذي المرة انْظر إليها باحترام وجها لوجه.

- هذا أحسن لك! طلبك مبلغ وما يكون غير الخير... ارجع الآن لعملك.

- شي أخير... أنا وبشر يشرفنا نهدي للسيدة المديرة هدية متواضعة بمناسبة زواجها السعيد...

- وبشر ما له كثير ساكت وبالع لسانه؟

- طبعو هكذا من يوم عرفته. هو والكومبيوتر واحد بالع الآخر!

- لكنه كفء في ميدانه... أما الهدية حتى يجئ وقتها.

- وأنا عندي لك هدية، أختى عفاف...قط من النوع اللي يعجبك. كنت من قبل أتاجر في شراء وبيع الحيوانات الأليفة، وما زلت شوية...

ضحكت المنصتة ملء فيها، قالت:

- لا أرجوك، في داري قطط الحي تكفيني.

- لكن هذا قط فارْسي، وهو في القفص تحت طاولتي، وإذا فضلت عليه كليب كانيش لك أو للست المديرة...

- سر الآن، وبعدين أشوفه...

-٣٣-

في الطريق السيار بين الرباط والدار البيضاء، كانت الست أسماء تتوجه إلى إقامة عزيزها في سيارة فخمة أهداها إليها، يقودها السائق الجديد. وَثَبَاتُ الفرح بادية على محياها الصبوح، وقلبها يخفق شوقا إلى لقاء حبيبها وقرة عينها... وقتها كان زيد يسوق السكوتر وحبيبته يطّو خلفه تعانقه واضعة نصف وجهها على ظهره مهمهمة: أَوَالْ نَّمْ آيُونُو/ آيسْ داسْ تِّنيخْ أماري إِثَنَّه ريخْ[1]... فجأة، أثناء توقف أمام الضوء الأحمر توجهت شرطية إلى السائق طالبة أوراق سائق الدراجة وبطاقة تعريفه، فحصتها وردتها إليه، ثم سألته عن الراكبة خلفه بخوذتها القانونية إن كانت ما زالت أخته من الرضاعة. تذكر زيد أن الشرطية هي نفسها التي أوقفته ذات يوم ويطّو لا خوذة لها، أجابها متأدبا: لا أمولاتي، هذي أخرى وعاقد عليها بالصداق، تحبِي تشوفي عقد الزواج؟ ردت عليه الشرطية مبتسمة: لا بلاش... مبارك مسعود والله يكمل بخير... الله يكمل بخير عليك وعلى كل المخطوبين... والعقبى لِيَ... وردّدت دعائها وهي تؤدي لهما التحية البوليسية...

---

(١) في لغتك يا أماه أبث لوعتي المحرقة.

للكاتب بالعربية

❑ الإبداعات:

* ***كناش إيش تقول*** (شعر كاليغرافي)، دار النشر المغربية، الدار البيضاء ١٩٧٧.

* ***ثورة الشتاء والصيف*** (شعر كاليغرافي)، منشورات البديل، الرباط ١٩٨٣.

* ***كتاب الجرح والحكمة***، بيروت، دار الطليعة، بيروت (ط. ٢) ١٩٨٨.

* ***مجنون الحكم*** (جائزة الناقد للرواية)، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٢ (طبعة جديدة).

* ***محن الفتى زين شامة***، بيروت، دار الآداب، بيروت ١٩٩٣.

* ***سماسرة السراب***، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء ١٩٩٥.

* ***أبيات سكنتها... وأخرى*** (شعر)، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٧.

* ***العلامة***، دار الآداب، بيروت ١٩٧٧ (جائزة الأطلس الكبير، ٢٠٠٠ وجائزة نجيب محفوظ ٢٠٠٢).

* ***فتنة الرؤوس والنسوة***، دار الآداب، بيروت ٢٠٠٠.

* ***زهرة الجاهلية***، د ار الآداب، بيروت ٢٠٠٣.

* *أنا المتوغل وقصص فكرية أخرى*، دار الآداب، بيروت ٢٠٠٤.

* *هذا الأندلسي!* دار الآداب بيروت ٢٠٠٧ .

* *معذبتي*، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٩. (ط ٢).

* *جماع الشعر، افتراعات*، دار رياض الريس، بيروت ٢٠١٠.

* *سيناريات*: أفلام تلفزية للقناة الثانية المغربية : أمواج البر (٢٠٠٣)/ علال القلدة (٢٠٠٤) / علاش لاّ! (٢٠٠٥).

❑ الدراسات:

* *في نقد الحاجة إلى ماركس*، بيروت، دار التنوير ١٩٨٣ .

* *معهم حيث هم (حوارات فكرية)*، دار الفارابي، (ط. ٢)، بيروت ١٩٨٧ .

* *التشكلات الإيديولوجية في الإسلام ـ الاجتهادات والتاريخ* ـ بيروت، دار المنتخب العربي، (ط. ٢)، بيروت ١٩٩٠ .

* *في الغمة المغربية* ، دار شراع، طنجة ١٩٩٧ .

* *الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ*، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٨؛ لمجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧ (ط.٢).

* *في معرفة الآخر*، دار الحوار، اللاذقية، ٢٠٠٣ .

* *نقد ثقافة الحجر وبداوة الفكر*، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٤.

* *العرب والإسلام في مرايا الاستشراق*، دار الشروق القاهرة،٢٠١١.

* *ابن رشد وشوق المعرفة*، منشورات مجلة «العربية» جدة، ٢٠١٣.

* *في الإسلام الثقافي* (تحت الطبع).

□ بالفرنسية

* **De la formation idéologique en Islam,**

Anthropos, Paris, 1983 (réédition, Rabat, 2006).

* **Ibn Khaldûn, un philosophe de l'histoire**, Anthropos Paris 1990, (réédition Rabat 2006).

* **Au pays de nos crises, Essai sur le mal marocain**, Casablanca 1977.

* **Le calife de l'épouvante, Le Serpent à Plumes**, Paris 1999 ; réédition Seguier-La Croisée des Chemins, Paris, Casablanca, 2010.

* **Etre en vie! et autres fragments**, 2ème éd. Non lieu/Eddif, Paris-Casablanca, 2010.

* **Le Livre des Elans**, Marsam, Rabat, 2012.

* **Le roman d'Abdel** (sous presse).

«رنَّ هاتف أسماء فسمعَتها جليستها عفاف تجهر بصوت في غاية الصفاء والابتهاج: وحتى صباحك يا حبيبتي نجلاء فل وياسمين، وكل أيامك سعادة وهناء... أنا حلوة وأنت أحلى والناس من حولي حلوين... قبلاتك ومتمنياتك وصلتني على الهواء. وأنا بدوري أقبلك وأقبلك... سمعتِ قبلاتي... والله، صدِّقيني، أول مرة أشعر بالحب يغمرني بمثل هذا الدفق وهذا الدفء. أنا عاشقة، مفتونة! ولولاك... ما تقاطعيني... لولاك، وأقولها ألف مرة: ما كنت عرفت هذا الرجل الكامل الأوصاف، اللي ملأ عليَّ حواسي، كلَّ حواسي... مشروعنا؟ مش بالموبايل... أشوفك في المسا وأحكي لك عنو، وكل كلمة ببوسة... نعم، غدا يأتي عزيزي لزيارة الوكالة. يعجبك تكوني معنا؟ عندك حق بلاش، ثم عندك حصة تنس... وراضية إيش أخبارها؟... دايمًا ما راضياش؟ الله يمتّعها بالسلامة والصحة.»



بنسالم حِمِّيش: مفكر وأديب مغربي. وزير الثقافة سابقًا. يكتب بالعربية والفرنسية في البحث والإبداع. ترجمت بعض رواياته إلى عدة لغات. اختار اتحاد كُتاب مصر روايته «مجنون الحكم» ضمن أحسن الروايات المائة للقرن العشرين. من الجوائز والتنويهات: جائزة الناقد للرواية (١٩٩٠)، جائزة الأطلس الكبير (٢٠٠٠)، جائزة نجيب محفوظ من الجامعة الأمريكية بالقاهرة (٢٠٠٢)، جائزة الشارقة لليونسكو (٢٠٠٣)، جائزة نجيب محفوظ لاتحاد كُتاب مصر (٢٠٠٩)، ميدالية تنويه من جمعية الأكاديمية الفرنسية للفنون والآداب والعلوم (٢٠٠٩)، الجائزة الكبرى لأكاديمية تولوز الفرنسية (٢٠١١)، وقد سميت روايته «معذبتي» في القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية في عام ٢٠١١.



دار الشروق
www.shorouk.com